القراءة الراشدة

لتعليم اللغة العربية والثقافة الإسلامية



تأليف
أبي الحسن علي الحسني الندوي

الأكاديمية الإسلامية
ليستر - بريطانيا

القراءة الراشدة

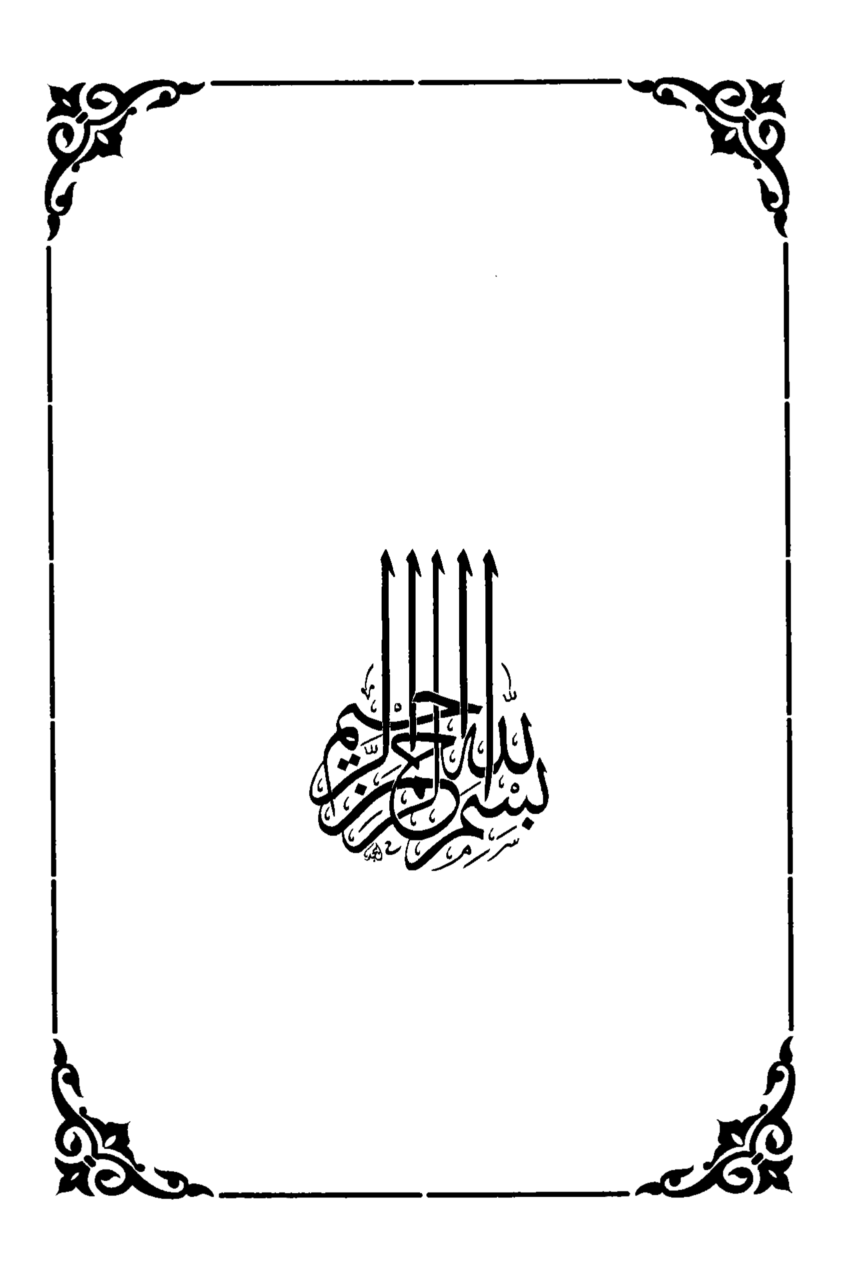
لتعليم اللغة العربية والثقافة الإسلامية

تأليف

أبي الحسن علي الحسني الندوي

الأكاديمية الإسلامية

ليستر - بريطانيا


بسم الله الرحمن الرحيم

ISBN 1 872531 38 5 (HB)
ISBN 1 872531 47 4 (PB)

General editor: Iqbal Ahmad Azami

Published by

UK Islamic Academy
PO Box 6645
Leicester
LE5 5WT
United Kingdom





دمشق - برامكة - جانب الهجرة والجوازات - ص.ب ٢٧٧ - تلفاكس ٢١٢٢٠٥٩ - ٢١٢٣٢٤٥
بيروت - ص.ب ١١٢/٥٤٨٨ - تلفاكس ٠١.٤٧٥٨٥٧ - جوال ٠٣.٨٥٢٥٨٦
Http://www.dar-alyamama.com
e-mail: alyamama@scs-net.org

British Library Cataloguing in Publication Data

A catalogue record for this book is available from the British Library.

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة عن الطبعة الجديدة

الحمدُ لله ربِّ العالمين ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على سَيِّدِ الأنبياءِ ، وإمامِ المرسلين ، محمد وعلى آله وصَحْبهِ أجمعين.

وبعد:

فيسرُّني أنْ أقدِّمَ هذه المجموعةَ الأدبيةَ إلى الجيل النَّاشىء الذي سيدرسُها ضمنَ تعلُّم اللغةِ العربيةِ ، والتعبير العربيِّ الجميل ، فقد ألَّفها سَماحةُ العلاَّمةِ الشَّيخ السيد أبي الحسن الحسني الندوي (رحمه الله)؛ لكي تكون هديةً أدبيةً جميلةً إلى طُلاَّبِ المدارسِ الإسلامية ، التي تُعنى بالتَّعليم المنهجي ، وتُزَوِّدُهم بلغةِ القرآنِ الكريمِ ، والسُّنَّةِ المطهَّرةِ العزيزةِ ، التي لا يستغني عنها المسلم في أيِّ زمانٍ ومكانٍ.

هذه المجموعةُ الأدبيةُ ، تضمُّ ثلاثةَ أجزاءٍ لكتاب: «القراءة

الرَّاشدة» ، التي وَضَعها المؤلفُ العلامةُ (رحمه الله) لطلاب المدارسِ المتوسطةِ والثانويةِ كمرحلةٍ دراسيةٍ يُقبلُ فيها الطالبُ على تعلُّمِ اللغةِ العربيةِ بشوقٍ وحنينٍ بالِغَيْن ، وهي مرحلةٌ تعتبرُ له كأساسٍ لغويٍّ وتربويٍّ ، إذا نجحَ فيها كان له نصيبٌ وجيهٌ من هذه اللغةِ مصحوباً بالتربيةِ الإسلاميةِ ، فكلُّ فَصْلٍ من هذه المجموعة يتضمَّنُ دروساً لغويةً ، وتعبيريـةً ، وخُلُقيـةً ، بينما لا توجدُ لدى المؤلِّفين الآخرين هذه الميزةُ الطيبة.

لقد استأذنَ فضيلةُ الشيخ الأستاذُ إقبال أحمد الأعظمي «رئيس الأكاديمية الإسلامية في بريطانيا» ، سماحةَ العلاَّمةِ النَّدوي (رحمه الله) ، حول جَمْعِ الأجـزاءِ الثلاثـةِ لكتابـه هـذا ، وطَبْعها في مجموعةٍ واحدةٍ تكونُ زاداً دسماً لطلبة اللغةِ العربيةِ في الشَّرق والغربِ ، وفي كلِّ جهةٍ ، فتكرَّم سماحتُه بالسَّماحِ له بذلك على الرَّحْب والسَّعَة ، وبتصرُّفٍ يسيرٍ في النقص والزّيادة في بعض الفُصُول من النَّثْر والنَّظْم ، واستبدالِ بعضِ النَّظْم بنظْمٍ آخر ، مراعاةً لظروفِ طلابِ الأقطار الأخرى.

وبذلك أصبحتِ المجموعةُ الأدبيةُ زاداً عصريّـاً لتعلُّم اللغةِ العربيةِ في البلدان الشَّرقية والغربية معاً ، وقد سبق أنَّ فضيلة الشيخ الأعظمي قام بترجمة أجزاء: «قصص النبيين» لسماحته

إلى اللغة الإنجليزية المعاصرة بأسلوبٍ شيِّقٍ يتَّفقُ وطبيعةِ الطُّلَّابِ في المدارس الابتدائية في البلدان الغربية ، فكان عملاً مقبولاً نال إعجابَ خُبراءِ التعليم والتربية في هذه البلدان ، وحَظِيَ برواجٍ كبيرٍ في مدارسِها .

ونرجو اللهَ سُبحانَهُ وتعالى أن يتقبَّلَ منه هذا العملَ المشكورَ ، ويجعلَه حَظِيّاً بالقبولِ والتَّقديرِ ، فإنَّ الله لا يُضيعُ أجرَ المحسنين .

كتبه بقلمه

٢٩/ ١١ / ١٤٢١ هـ　　　سعيد الأعظمي الندوي

٢٤/ ٢/ ٢٠٠١ م　　　رئيس تحرير مجلة : «البعث الإسلامي»

الصادرة من ندوة العلماء ـ لكهنؤ (الهند)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كلمة عن الكتاب

(بقلم العلامة المؤلف ـ رحمه الله ـ)

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى.

أما بعد:

... فإنَّ صلة العجم باللغة العربية إنما هي عن طريق الدين والكتاب المبين، وسنة سيد المرسلين عليه الصلاة والتسليم، وإنما يعنيه أمر اللغة العربية لأنها لغة لا يتوصل بغيرها إلى منابع الدين ومشارعه الصافية، فيجب أن يستعان بها على دراسة الكتاب والسنة بغير واسطة. ويتقرب إلى تلك البيئة التي نبع منها الأدب الإسلامي بأوسع معنى الكلمة.

وكان من أهم الواجبات في هذه الأيام أن يعنى العلماء ورجال التعليم الديني بوضع منهاج تعليمي رشيد حكيم يفوق

مناهج التعليم اللادينية في السهولة وتوفير الوقت ومراعاة نفسية الصغار ، ويمتاز عنها في التربية الخلقية والدينية وتهذيب النفس ، مع إفادة الطالب بكل ما تهم معرفته من الشؤون الكونية والتاريخية والمواد العامة ، مبنياً على أحدث مبادىء التعليم واختياراته.

وكان من حق هذه المهمة العلمية الدينية الجليلة ـ ولها خطرها وأثرها في حياة المسلمين وفي مستقبل التعليم الديني ـ أن تتألف لها لجان من العلماء والمعلمين الكبار وأصحاب المعاهد الجليلة ، وأن يبذلوا في سبيلها قسطاً صالحاً من أوقاتهم وجهودهم ، وأن يقدموها على كثير من أشغالهم العلمية والسياسية ، فإن هذه المهمة الواسعة المعقدة لا يستقل بها الأفراد ، وإنها لتنوء بالعصبة أولي القوة ، ولكن العلماء ـ مع الأسف ـ في شغل شاغل عن هذا العمل الجدي الذي يقتضي صبراً طويلاً وعناء شديداً واختياراً واسعاً وتعاضداً قوياً ، ثم إنه كثير الخطر بطيء الأثمار قليل الاشتهار.

إن خطر هذه المهمة وجلالتها ، وإن الأخطار المحدقة بنظام التعليم الديني التي تهدد حياة المسلمين الدينية ، واشتغال الأكفاء عنه بما هو أهم لديهم منه ، حث مؤلف هذه الكتب على أن يكون جندياً مغامراً في سبيل هذا الجهاد ، وأن يكون

عاملاً صغيراً في مهمة التعليم الديني ، وأن يؤدي من حقوق هذه اللغة الكريمة ، ومن حقوق المعلمين الذين حببوا إليه هذه اللغة وسهلوها له ما يستطيع ، وأن يقوم بإذن الله بجزء من أجزاء هذا العمل الجليل رغم ضعف صحته وتشتت باله ، وانشعاب فكره وتزاحم أشغاله وكثرة أسفاره.

قام المؤلف أولاً بوضع مجموعة المختارات في الأدب العربي ، فجاءت بإذن الله تعالى مجموعة تمثل الأدب العربي الإسلامي في جميع مظاهره ومناحيه الأدبية والتاريخية والتهذيبية من العصر الإسلامي الأول إلى القرن الرابع عشر الهجري ، تجمع بين ألوان الأدب العربي المختلفة وبدائعه من وحي سماوي وبلاغة نبوية ، وخطب لأشهر خطباء العرب في أزهر عصور العربية وروايات وقصص ورسائل وكتب ، ومناقشات ومحاورات ورحلات وأحاديث منزلية متبسطة ، وجدّ وهزل وحكمة ولهو ، تلقاها بعض الدوائر العلمية والمعاهد ـ على بطء ـ بالقبول ، وأدخلتها في مناهج الدرس.

ثم رأى المؤلف كتباً صغيرةً لبعض أدباء مصر في حكايات الأسد والذئاب ، والقردة والدباب ، حتى الخنازير والكلاب ، فصيحة العبارة قليلة المغزى ، عربية الوضع أفرنجية الروح ، إسلامية اللغة جاهلية السبك ، فيها صور الحيوانات في

اللباس الغربي ، فساءه أن لا يقرأ أبناء المسلمين في العربية أيضاً إلا قصص الحيوانات والأساطير والخرافات ، فكتب لهم قصص الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام ، بأسلوب سهل يحاكي أسلوب الأطفال وطبيعتهم من تكرار الكلمات والجمل ، وسهولة الألفاظ وبسط القصة.

ثم رأى المؤلف أن كل ذلك لا يسد مسد سلسلة القراءة التي تحتوي على مواد في اللغة والأدب متنوعة بأسلوب تدريجي ملائم لذوق الناشئة المسلمة عامة ، فوضعها في أجزاء واجتهد في :

(١) أن تكون اللغة أدبية دينية عليها مسحة من جمال أدب الكتاب والسنة.

(٢) استعمال الكلمات المستحدثة التي لها أصل عربي واشتقاق صحيح لموضوعات عصرية قد عول المؤلف فيها في الغالب على قرارات مجمع فؤاد الأول للغة العربية ، حتى لا يلجأ الطالب في استعمال الكلمات العجمية أو الدخيلة ، أو يكون له لسان أخرس في المناسبات العصرية.

(٣) تكرار المفردات العربية حتى يتمرن عليها الطالب.

(٤) تنوع الموضوعات والمواد لينشط الطالب وينتقل فيها من

فائدة علمية إلى حديث ممتع وحوار لذيذ ، ومن درس علمي إلى حكاية تاريخية ، ومن نثر إلى شعر أو نشيد .

(٥) نقل الحكايات الواردة في الحديث إلى لغة تنشأ على أسلوب الحكايات الموضوعة للأطفال .

(٦) دروس خلقية تهذيبية تعلم الآداب الإسلامية في مختلف نواحي الحياة .

(٧) تضمين الدروس الأدعية المأثورة والآداب الدينية بحيث لا يشعر الطالب بأنها تلقى عليه إلقاء ، بل يحفظها عفواً في ثنايا الدروس والحكايات .

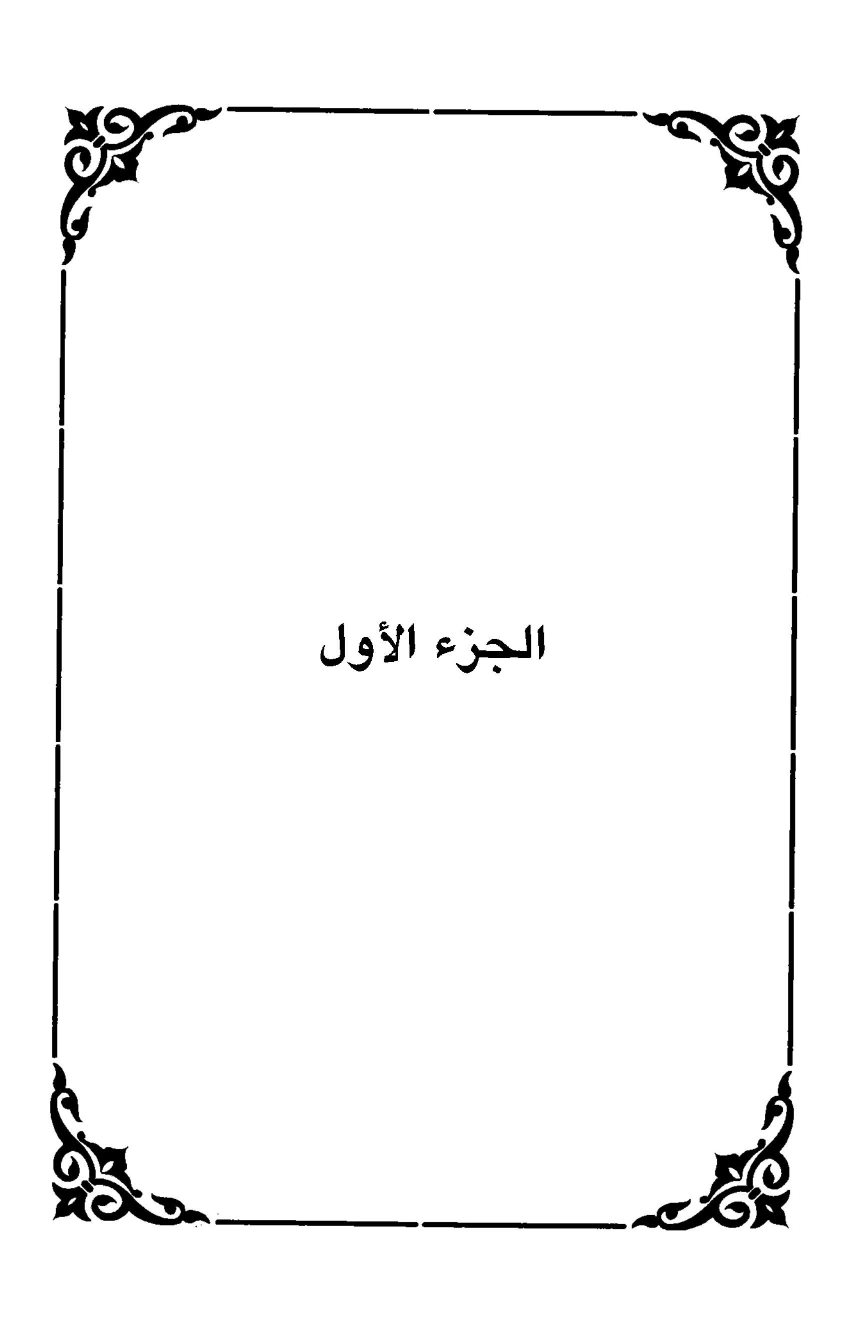
(٨) الروح الديني الساري في الكتاب بحيث لا يمكن تجريد الكتاب منه ، ويعم ذلك الدروس الدينية ودروس المعلومات الكونية والطبيعية والحيوانية والنباتية وعن الاختراعات الحديثة .

والله المسؤول أن ينفع بهذا الكتاب وبيده العصمة والتوفيق ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

أبو الحسن علي الحسني

لخمس بقين من رجب ١٣٦٥ هـ

دار العلوم ندوة العلماء لكهنؤ (الهند)



الجزء الأول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١)

كيْفَ أقضي يَوْمِي

أَنَامُ مُبَكِّراً فِي اللَّيْلِ وَأَقُومُ مُبَكِّراً في الصَّبَاحِ ، أَسْتَيْقِظُ عَلَى اسْمِ اللهِ وَذِكْرِه ، أَسْتَعِدُّ لِلصَّلاةِ ثُمَّ أَذْهَبُ مَعَ وَالِدِي إِلَى الْمَسْجِدِ ، وَالْمَسْجِدُ قَرِيْبٌ مِنْ بَيْتِيْ ، فَأَتَوَضَّأُ وَأُصَلِّيْ مَعَ الْجَمَاعَةِ ، وَأَرْجِعُ إِلَىٰ الْبَيْتِ وَأَتْلُو شَيْئاً مِنَ الْقُرآنِ الْكَرِيمِ ، ثُمَّ أَخْرُجُ إِلَىٰ الْبُسْتَانِ وَأَجْرِيْ ، ثُمَّ أَرْجِعُ إِلَى الْبَيْتِ فَأَشْرَبُ اللَّبَنَ وَأَسْتَعِدُّ لِلذَّهَابِ إِلَى الْمَدْرَسَةِ ، وَأُفْطِرُ إِذَا كَانَتْ أَيَّامُ الصَّيْفِ ، وَأَتَغَدَّىٰ إِذَا كَانَتْ أَيَّامُ الشِّتَاءِ ، وَأَصِلُ إِلى الْمَدْرَسَةِ فِي الْمِيْعَادِ.

وَأَمْكُثُ فِي الْمَدْرَسَةِ سِتَّ سَاعَاتٍ ، وَأَسْمَعُ الدُّرُوْسَ بِنَشَاطٍ وَرَغْبَةٍ ، وَأَجْلِسُ بِأَدَبٍ وَسَكِيْنَةٍ ، حَتَّىٰ إِذَا انْتَهَى الْوَقْتُ وَضُرِبَ الْجَرَسُ خَرَجْتُ مِنَ الْمَدْرَسَةِ وَرَجَعْتُ إِلَىٰ الْبَيْتِ.

وَلاَ أَقْرَأُ بَعْدَ صَلاَةِ الْعَصْرِ إِلَىٰ الْمَغْرِبِ ، وَفِيْ بَعْضِ الأَيَّامِ أَمْكُثُ فِي الْبَيْتِ ، وَفِيْ بَعْضِ الأَيَّامِ أَذْهَبُ إِلَىٰ السُّوْقِ وَأَشْتَرِي حَوَائِجَ الْبَيْتِ ، وَفِيْ بَعْضِ الأَيَّامِ أَخْرُجُ مَعَ أَبِيْ أَوْ أَخِيْ إِلَىٰ بَعْضِ الأَقَارِبِ ، أَوْ أَلْعَبُ مَعَ إِخْوَتِي وَأَصْدِقَائِيْ.

وَأَتَعَشَّىٰ مَعَ وَالِدِيْ وَإِخْوَتِيْ وَأَحْفَظُ دُرُوْسِيْ ، وَأُطَالِعُ لِلْغَدِ وَأَسْتَعِدُّ لِلدَّرْسِ ، وَأَكْتُبُ مَا يَأْمُرُ بِهِ الْمُعَلِّمُ ، وَأُصَلِّيْ الْعِشَاءَ وَأَقْرَأُ قَلِيْلاً ، ثُمَّ أَنَامُ عَلَىٰ اسْمِ اللهِ وذِكْرِهِ.

تِلْكَ عَادَتِيْ كُلَّ يَوْمٍ لاَ أُخَالِفُهَا ، وَأَقُومُ مُبَكِّراً يَوْمَ الْعُطْلَةِ أَيْضاً ، وَأُصَلِّيْ مَعَ الْجَمَاعَةِ وَأَتْلُو الْقُرْآنَ ، وَأَقْضِيْ الْيَوْمَ فِيْ مُطَالَعَةِ كِتَابٍ وَمُحَادَثَةٍ مَعَ أَبِيْ وَأُمِّيْ وَإِخْوَتِيْ ، وَفِيْ زِيَارَةِ قَرِيْبٍ أَوْ عِيَادَةِ مَرِيْضٍ ، وَأَمْكُثُ أَحْيَاناً فِي البَيْتِ ، وَأَخْرُجُ أَحْيَاناً إِلَى الْخَارِجِ.

* * *

(٢)

لمَّا بـلَغْتُ السَّابِعَةَ مِنْ عُمُرِيْ

لَمَّا بَلَغْتُ السَّابِعَةَ مِنْ عُمُرِيْ أَمَرَنِي أَبِيْ بِالصَّلاَةِ ، وَكُنْتُ تَعَلَّمْتُ كَثِيراً مِنَ الأَدْعِيَةِ وَحَفِظْتُ سُوَراً مِنَ الْقُرآنِ الْكَرِيم مِنْ أُمِّيْ ، وَكَانَتْ أُمِّي تَتَـكَلَّمُ مَعِيْ كُلَّ لَيْلَةٍ عِنْدَ الْمَنَام فَـتَـقُصُّ عَلَيَّ قِصَصَ الأَنْبِيَاءِ ، وَكُنْتُ أَسْمَعُ هٰذِهِ الْقِصَصَ بِنَشَاطٍ وَرَغْبَةٍ.

وَبَدَأْتُ أَذْهَبُ مَعَ أَبِيْ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ ، وَأَقُوْمُ فِيْ صَفِّ الأَطْفَالِ خَلْفَ صَفِّ الرِّجَالِ ، وَلَمَّا بَلَغْتُ الْعَاشِرَةَ مِنْ عُمُرِيْ قَالَ لِيْ مَرَّةً: قَدْ أَكْمَلْتَ الآنَ مِنْ عُمُرِكَ تِسْعَ سِنِيْنَ ، وَالآنَ أَنْتَ ابْنُ عَشْرِ سِنِيْنَ فَإِذَا تَرَكْتَ صَلاَةً ضَرَبْتُكَ ، لأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: مُرُوْا أَوْلاَدكُمْ بِالصَّلاَةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِيْنَ ، وَاضْرِبُوْهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ.

وَقَصَّ عَلَيَّ أَبِيْ قِصَصَ الأَطْفَالِ الَّذِيْنَ حَافَظُوا عَلَىٰ الصَّلاَةِ فِي الصِّغَرِ ، وَكَانَ لَهُمْ شَأْنٌ فِي الْكِبَرِ.

قُلْتُ: يَا أَبِيْ! إِنَّكَ لَا تَحْتَاجُ إِلَىٰ أَنْ تَضْرِبَنِيْ وَسَأُحَافِظُ عَلَىٰ الصَّلَوَاتِ ، وَكَذٰلِكَ فَعَلْتُ ، فَقَدْ كُنْتُ أُصَلِّيْ أَيْنَمَا كُنْتُ ، كُنْتُ إِذَا ذَهَبْتُ إِلَىٰ السُّوْقِ أَوْ كُنْتُ فِيْ شُغْلٍ وَأَدْرَكَتْنِي الصَّلَاةُ فِيْ مَكَانٍ صَلَّيْتُ ، لأَنِّيْ أَرَىٰ النَّاسَ لَا يَخْجَلُونَ مِنَ الأَكْلِ إِذَا جَاعُوْا ، وَاللَّعِبِ إِذَا أَرَادُوْا ، فَلِمَاذَا أَخْجَلُ مِنَ الصَّلَاةِ؟ وَإِنَّ الصَّلَاةَ لَفَرِيْضَةٌ ، وَإِنَّ الصَّلَاةَ لَشَرَفٌ لِلْمُسْلِمِ.

وَخَرَجْتُ مَرَّةً إِلَىٰ مُبَارَاةٍ وَكَانَ الزِّحَامُ شَدِيْداً ، وَأَدْرَكَتْنِيْ صَلَاةُ الْعَصْرِ وَكُنْتُ عَلَىٰ وُضُوْءٍ ، فَقُمْتُ أُصَلِّيْ وَجَعَلَ النَّاسُ يَنْظُرُوْنَ إِلَيَّ وَيَتَعَجَّبُونَ ، وَأَكْمَلْتُ صَلَاتِيْ بِسَكِيْنَةٍ وَاعْتِدَالٍ وَرَجَعْتُ إِلَى الْمُبَارَاةِ.

وَلَمَّا انْتَهَتِ الْمُبَارَاةُ جَاءَ إِلَيَّ رَجُلٌ وَسَأَلَنِيْ عَنِ اسْمِيْ وَاسْمِ وَالِدِيْ ، وَسَأَلَنِيْ عَنْ سِنِّيْ فَأَخْبَرْتُهُ ، فَأَثْنَىٰ عَلَىٰ أَبِيْ خَيْراً ، وَدَعَا لِيْ بِالبَرَكَةِ ، وَقَالَ: مَا رَأَيْتُ وَلَداً يُصَلِّيْ فِي الْمُبَارَاةِ وَيَتْرُكُ كَثِيْرٌ مِنَ النَّاسِ الصَّلَاةَ فِيْ هٰذَا الْوَقْتِ ، فَحَمِدْتُ اللهَ وَشَكَرْتُ أَبِيْ.

وَلَا أَتْـرُكُ الصَّلَاةَ إِذَا كُنْتُ مُسَافِراً وَأَرَىٰ كَثِيْراً مِنَ النَّاسِ يُصَلُّوْنَ فِي الحَضَرِ وَيَتْرُكُوْنَ الصَّلَاةَ فِي السَّفَرِ ، وَيُصَلُّوْنَ فِي الصِّحَّةِ وَلَا يُصَلُّوْنَ فِي الْمَرَضِ ، مَعَ أَنَّ الصَّلَاةَ لَا تَسْقُطُ عَنْ أَحَدٍ.

وَأَرَىٰ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لاَ يُصَلُّوْنَ بِاعْتِدَالٍ وَسَكِيْنَةٍ وَيُسْرِعُوْنَ كَثِيْراً ، وَلاَ أَذْكُرُ أَنِّيْ تَرَكْتُ صَلاَةً فِيْ هٰذِهِ السَّنَوَاتِ الأَرْبَعِ ، وَإِذَا نِمْتُ عَنْهَا أَوْ نَسِيْتُهَا صَلَّيْتُهَا إِذَا تَذَكَّرْتُ .

وَإِنِّيْ أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ التَّوْفِيْقَ وَالثَّبَاتَ .

* * *

(٣)
النَّمْلَةُ

طَالَ سَعْيِيْ بِالأَمَلْ — لَسْتُ أَرْضَىٰ بِالْكَسَلْ
غَايَتِيْ نَيْلُ الطَّلَبْ — لاَ أُبَالِيْ بِالتَّعَبْ
أَبْتَنِي الْبَيْتَ الْحَسَنْ — بِنِظَامٍ لِلسَّكَنْ
وَلِقُوتِيْ أَذْهَبُ — لَسْتُ يَوْماً أَلْعَبُ
كُلَّ صَيْفٍ أَجْمَعُ — لِيْ طَعَاماً يُشْبِعُ
فَإِذَا جَاءَ الْمَطَرْ — كَانَ لِيْ بَيْتِي الْمَقَرْ
ذَاكَ شَأْنِيْ فِيْ الصِّغَرْ — وَنِظَامِيْ فِي الْكِبَرْ
إِنَّنِيْ نِعْمَ المَثَلْ — بِاجْتِهَادِيْ فِي الْعَمَلْ

(مَبَادِئُ القِرَاءَةِ الرَّشِيْدَةِ)

* * *

(٤)
فــي السُّــوْقِ

عمَرُ: هَلْ زُرْتَ سُوْقَ هٰذَا الْبَلَدِ يَا صَدِيْقِيْ؟

خَالِدٌ: لاَ يَا أَخِيْ ، فَإِنِّيْ غَرِيْبٌ جَدِيْدٌ فِيْ هٰذَا الْبَلَدِ لاَ أَعْرِفُ الطَّرِيْقَ.

عُمَرُ: تَـعَالَ مَعِـيْ فَإِنِّـيْ ذَاهِبٌ إِلَىٰ السُّـوْقِ لأَشْـتَـرِيَ بَعْـضَ الْحَوَائِجِ وَنَرْجِع قَبْلَ الْمَغْرِبِ إِنْ شَاءَ اللهُ فَإِنَّ السُّوْقَ غَيْـرُ بَعِيْدَةٍ.

خَالِدٌ: مَا شَاءَ اللهُ هٰذِهِ سُوْقٌ كَبِيْرَةٌ وَالدَّكَاكِيْنُ نَظِيْفَةٌ جَمِيْلَةٌ ، وَمَا هٰذَا الدُّكَّانُ الْجَمِيْلُ إِلَىٰ اليَمِيْنِ يَا عُمَرُ؟

عُمَرُ: هٰذَا دُكَّانُ فَاكِهَانِيٍّ ، أَلاَ تَرَىٰ إِلَىٰ الْفَوَاكِهِ وَتَرَىٰ النَّاسَ يُسَاوِمُوْنَ الْفَاكِهَانِيَّ فِيْهَا.

خالِدٌ: أَنَا أُرِيْدُ أَنْ أَشْتَرِي شَيْئاً مِنَ الْفَوَاكِهِ ، الْموزَ وَالْجَوَّافَةَ وَالْبُرْتُقَالَ، فَإِنِّيْ أُرِيْدُ أَنْ أَدْعُوَ بَعْضَ الإِخْوَانِ إِلَىٰ الْفُطُورِ بُـكْرَةً.

عُمَرُ: الْجَوَّافَةُ غَالِيَةٌ جِدّاً فِيْ هٰذِهِ الأَيَّامِ ، وَالْبُرْتُقَالُ حَامِضٌ وَلاَ بَأْسَ بِالْمَوْزِ.

خَالِدٌ: تَفَضَّلْ يَا أَخِيْ نُسَاوِمُ الْفَاكِهَانِيَّ.

عُمَرُ: أَحْسَنُ أَنْ نَشْتَرِيَ الْفَوَاكِهَ مِنْ سُوْقِ الْخُضَرِ بُكْرَةً ، فَإِنَّ الْفَوَاكِهَ وَالثِّمَارَ فِيْهَا كَثِيْـرَةٌ وَرَخِيْصَةٌ.

خَالِدٌ: هٰذَا هُوَ الرَّأْيُ ، وَمَا هٰذِهِ الدَّكَاكِيْن يَا عُمَرُ؟

عُمَرُ: هٰذِهِ دَكَاكِيْنُ الْقُمَاشِ ، أَلاَ تَرَىٰ كَيْفَ بَسَطُوْا أَنْوَاعاً مِنَ الْقُمَاشِ وَكَيْفَ يَلْمَسُهَا النَّاسُ وَيُسَاوِمُوْنَ فِيْهَا التُّجَّارَ ، تَعَالَ! فَإِنِّيْ أُرِيْدُ أَنْ أَشْتَرِيَ حِذَاءً.

خَالِدٌ: تَفَضَّل فَإِنِّي صَاحِبُكَ.

عُمَرُ: مِنْ فَضْلِكَ أَخْرِجْ لِيْ حِذَاءً مُطَابِقاً.

صَاحِبُ الدُّكَّانِ: هٰذَا حِذَاءٌ جَمِيْلٌ وَمَتِيْنٌ.

عُمَرُ: نَعَمْ! وَلٰكِنَّـهُ وَاسِعٌ قَلِيْلاً.

صَاحِبُ الدُّكَّانِ: وَهٰذَا الآخَرُ مُطَابِقٌ تَمَاماً.

عُمَرُ: بِكَمْ هُوَ؟

صَاحِبُ الدُّكَّانِ: بِسِتِّ رُبِّيَاتٍ.

عُمَرُ: أَلاَ تَنْزِلُ فِي الثَّمَنِ؟

صَاحِبُ الدُّكَّانِ: لَنْ تَجِدَ يَا سَيِّدِيْ أَرْخَصَ مِنْ هٰذَا فِي السُّوْقِ.

عُمَرُ: أُصَدِّقُكَ لأَنَّكَ مُسْلِمٌ وَالْمُسْلِمُ لا يَكْذِبُ وَلاَ يَغُشُّ.

خَالِدٌ: وَمَا هٰذَا الْمَكَانُ الَّذِي يَأْكُلُ فِيْهِ النَّاسُ؟

عُمَرُ: هٰذَا مَطْعَمٌ يَأْكُلُ فِيْهِ النَّاسُ، وَالْمَطَاعِمُ فِيْ الْبَلَدِ كَثِيْرَةٌ.

خَالِدٌ: مَالِيْ لَمْ أَرَ مَطْعَماً فِي الْقَرْيَةِ؟

عُمَرُ: لأَنَّ الْبَلَدَ فِيْهِ غُرَبَاءُ وَمُسَافِرُونَ لَيْسَ لَهُمْ بُيُوْتٌ يُقِيْمُونَ فِيْهَا وَيَأْكُلُونَ فِيْهَا، فَيَأْكُلُوْنَ فِي الْمَطَاعِمِ، أَمَّا الْقَرْيَةُ فَالْغَرِيْبُ فِيْهَا قَلِيْلٌ فَلاَ حَاجَةَ فِي الْقَرْيَةِ إِلَىٰ الْمَطْعَمِ.

خَالِدٌ: وَأَيْنَ نَجِدُ الْوَرَقَ وَالْحِبْرَ وَالْقَلَمَ وَالْمِرْسَمَ وَالنَّشَافَةَ وَأَدَوَاتِ الْكِتَابَةِ؟

عُمَرُ: هٰذَا دُكَّانُ وَرَّاقٍ تَجِدُ فِيْهِ جَمِيْعَ حَوَائِجِ الْمَدْرَسَةِ.

خَالِدٌ: أَشْكُرُكَ يَا صَدِيْقِي الْكَرِيْمَ فَقَدْ أَفَدْتَنِيْ كَثِيْراً، وَأَرَىٰ أَنْ نَرْجِعَ الآنَ إِلَىٰ الْبَيْتِ وَنُصَلِّي الْمَغْرِبَ هُنَا.

عُمَرُ: نَعَمْ! وَمَا بَقِيَ لِيَ شُغْلٌ.

* * *

(٥)

الطَّائِرُ

الْحَبْسُ لَيْسَ مَذْهَبِيْ ... وَلَيْسَ فِيْهِ طَرَبِيْ

فَلَسْتُ أَرْضَىٰ قَفَصاً ... وَإِنْ يَكُنْ مِنْ ذَهَبِ

غَابَاتُ رَبِّيْ غَايَتِيْ ... وَالْعَيْشُ فِيْهَا مَطْلَبِيْ

قَدْ طَابَ فِيْهَا مَطْعَمِيْ ... وَرَاقَ فِيْهَا مَشْرَبِيْ

أَذْهَبُ فِيْهَا أَسْتَقِيْ ... مِنْ مَاءِ نَبْعٍ أَعْذَبِ

أَصْدَحُ فِيْهَا مُطْلَقاً ... فَالْحَبْسُ لَيْسَ مَذْهَبِيْ

«مَدَارِجُ الْقِرَاءَة»

* * *

(٦)

نُـزْهَـةٌ وَطَـبْــخٌ

كَانَ يَوْمُ الثُّلاثَاءِ الْمَاضِيْ يَوْمَ عُطْلَةٍ فِي الْمَدْرَسَةِ. جَاء إِلَيَّ دَاودُ صَباحاً وَقَالَ: الْيَوْمُ يَوْمُ الْعُطْلَةِ ، أَلاَ نَخْرُجُ إِلَىٰ بُسْتَانٍ ، أو مَكَانٍ فِيْ ضَوَاحِي الْمَدِيْنَةِ نَرْتَعُ وَنَلْعَبُ ، وَنَطْبخُ مِنَ الطَّعَام مَا نَشْتَهِيْ وَنَأْكُلُ ، وَنَرْجِعُ فِي الْمَسَاءِ ، قُلْتُ: هَوَ كَذٰلِكَ! وَأَنَا كُنْتُ أُفَكِّرُ أَيْضاً كَيْفَ أَقْضِيْ هٰذَا الْيَوْمَ ، وَلٰكِنْ كَلِّمْ أَخَاكَ سُلَيْمَان وَالأَخَ هَاشِماً وَالسَّيِّدَ عُمَرَ لَعَلَّهُمْ يَخْرُجُوْنَ مَعَنَا.

وَافَقَ دَاوُدُ عَلَىٰ ذَلِكَ وَكَلَّمَهُمْ ، وَفَرِحُوْا جِدّاً وَجَاؤُوا إِلَىٰ بَيْتِيْ مِنْ سَاعَتِهِمْ وَصَدِيْقُنَا خَالِدٌ فَفَرِحْنَا بِهِ وَقُلْنَا: مَرْحَباً.

اجْتَمَعْنَا وَقُلْنَا: هَلْ نَقْصِدُ بُسْتَاناً مِنْ بَسَاتِيْنِ الْمَدِيْنَةِ أَوْ نَـتَـوَجَّهُ إِلَىٰ ضَاحِيَةٍ مِنْ ضَوَاحِي الْمَدِيْنَةِ.

قَـالَ دَاوُدُ وَعُمَـرُ: بَـلْ نَقْصِـدُ الْبُسْتَـانَ الْكَبِيْـرَ فِـيْ وَسَـطِ

الْمَدِيْنَةِ ، فَإِنَّ الْبُسْتَانَ قَرِيْبٌ فَلاَ يَضِيْعُ وَقْتُنَا فِي الذَّهَابِ إِلَىٰ ضَاحِيَةٍ مِنْ ضَوَاحِي الْبَلَدِ.

وَقَالَ سُلَيْمَانُ وَهَاشِمٌ وَأَنَا مَعَهُمَا: بَلْ نَتَوَجَّهُ إِلَىٰ بَعْضِ الضَّوَاحِيْ لأَنَّا نُرِيْدُ أَنْ نَطْبخَ الطَّعَامَ وَنَقْضِيَ النَّهَارَ فِي النُّزْهَةِ وَالطَّبْخِ.

فَاسْتَقَرَّ رَأْيُنَا عَلَى الذَّهَابِ إِلَى الضَّاحِيَةِ ، فَاكْتَرَيْنَا مَرْكَبَةً وَوَصَلْنَا مِنْ سَاعَتنَا إِلَى الضَّاحِيَةِ.

وَكُنَّا أَخَذْنَا مَعَنَا الرُّزَّ وَاللَّحْمَ وَالتَّوَابِل وَالسَّمْنَ وَالْخُضَرَ وَأَخَذْنَا قِدْرَيْنِ وَأَوَانِيَ ، وَكُنَّا عَلِمْنَا أَنَّ فِي الْمَحَلِّ خَبَّازاً فَقُلْنَا نَشْتَرِي الرَّغِيْفَ فَإِنَّ الرَّغِيْفَ فِيْهِ تَعَبٌ.

اخْتَرْنَا مَكَاناً ظَلِيْلاً وَكَانَ السَّيِّدُ عُمَرُ وَالسَّيِّدُ هَاشِمٌ يُحْسِنَانِ الطَّبْخَ فتَوَلَّيَا أَمْرَ الطَّبْخِ وَسَاعَدَهُمَا دَاوُدُ وَسُلَيْمَانُ.

وَتَوَلَّيْتُ أَمْرَ الْحطَبِ فَذَهبْتُ إِلَى الْغَابَةِ الْقَرِيْبَةِ وَجِئْتُ بِالْحطَبِ مِنْ سَاعَتِيْ ، وَدَقَّ خَالِدٌ التَّوَابِلَ وَذَهبْتُ أَنَا إِلَى الْخَبَّازِ فَاشْتَرَيْتُ الأَرْغِفَةَ.

وَأَدْرَكَ الطَّعَامُ فِي السَّاعَةِ الْحَادِيَةَ عَشَرَةَ ، وَقَدْ غَلَبَنَا الْجُوْعُ وَاشْتَهَيْنَا الطَّعَامَ فَأَكَلْنَا بِرَغْبَةٍ ، وَكَانَ الطَّعَامُ شَهِياً لَذِيْذاً.

وَجَلَسْنَا نَـتَحَدَّثُ حَتَّىٰ كَانَ وَقْتُ الظُّهْرِ فَأَذَّنْتُ وَصَلَّيْنَا جَمَاعَةً .

وَخَرَجْنَا بَعْدَ الصَّلاَةِ نَـزُورُ بَعْضَ الآثَارِ ، وَفِي الْعَصْرِ رَجَعْنَـا إِلَى الْبَلَدِ مَسْرُوْرِيْنَ .

* * *

(٧)

مـنْ يَـمْنَـعُـك مِـنِّــيْ؟

خَرَجَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ فِيْ غَزْوَةٍ! هَلْ تَعْرِفُوْنَ مَا هِيَ الْغَزْوَةُ؟

لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ الْمُسْلِمِيْنَ كَانُوْا يَخْرُجُوْنَ لِلْجِهَادِ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ وَكَانُوْا يُقَاتِلُونَ الْمُشْرِكِينَ وَالْكُفَّارَ لِوَجْهِ اللهِ تَعَالَىٰ ، وَلَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ فَضِيْلَةَ الْجِهَادِ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ؟ وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَخْرُجُ أَحْيَاناً مَعَ الْمُسْلِمِيْنَ وَأَحْيَاناً يَمْكُثُ فِي الْمَدِيْنَةِ لِشُغْلٍ أَوْ مَصْلَحَةٍ وَيَبْعَثُ جُنْداً مِنَ الْمُسلِمِيْنَ.

فَالغَزْوَةُ مَا خَرَجَ فِيْهَا رَسُوْلُ اللهِ ﷺ فِيْ جُنْدٍ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ لِلْجِهَادِ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ.

نَعَمْ فَخَرَجَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ فِيْ غَزْوَةٍ وَرَجَعَ عَنْهَا فِي الظَّهِيْرَةِ وَكَانَتْ أَيَّامُ الصَّيْفِ فَأَرَادَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ أَنْ يَسْتَرِيْحَ.

وَلَيْسَ فِيْ الْبَـرِّيَّـةِ مَكَانٌ يَسْتَرِيْـحُ فِيْـهِ الإِنْسَانُ إلاَّ الـشَّجَرُ.

وَلَيْسَ فِيْ الْـبَرِّيَّـةِ فِي بِلاَدِ الْعَرَبِ شَجَرٌ كَثِيرٌ وَلَيْسَ فِيْهَا إِلاَّ السَّمُرُ.

فَنَزَلَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ تَحْتَ سَمُرَةٍ وَعَلَّقَ بِهَا سَيْفَهُ، وَتَفَرَّقَ النَّاسُ وَنَامُوْا، وَنَامَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ تَحْتَ السَّمُرَةِ.

وَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ وَسَيْفُ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ مُعَلَّقٌ بِالسَّمُرَةِ وَهُوَ فِيْ غِمْدِهِ.

فَـأَخَـذَ الْمُشْـرِكُ السَّيْـفَ وَسَلَّـهُ مِـنْ غِمْـدِهِ وَاسْتَيْقَـظَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ.

فَقَـالَ الْمُشْـرِكُ... وَالسَّيْـفُ مَسْلُـوْلٌ فِـيْ يَـدِهِ... لِرَسُوْلِ اللهِ ﷺ: تَخَافُنِيْ؟

قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: لاَ!

قَالَ الْمُشْرِكُ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّيْ؟

قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: اللهُ!

فَسَقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِ الْمُشْرِكِ فَأَخَذَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ السَّيْفَ فَقَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ لِلْمُشْرِكِ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّيْ؟

فَقَالَ الْمُشْرِكُ: كُنْ خَيْرَ آخِذٍ!

فَقَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: أَتَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ؟

قَالَ الْمُشْرِكُ: لاَ! وَلٰكِنِّيْ أُعَاهِدُكَ عَلَىٰ أَنْ لاَ أُقَاتِلَكَ وَلاَ أَكُونَ مَعَ قَوْمٍ يُقَاتِلُونَكَ!

فَخَلَّىٰ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ سَبِيْلَهُ.

فَأَتَىٰ الْمُشْرِكُ أَصْحَابَهُ فَقَالَ: جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ خَيْرِ النَّاسِ.

[ملْتَقَطٌ مِنَ الصَّحِيحَيْنِ وَصَحِيحِ أَبِيْ بكْرٍ الإسماعيليِّ]

* * *

(٨)

سفَرُ الْـقِطَـارِ

لاَ أَنْسَىٰ سَفَرِي الأَوَّلَ ، عَلِمْتُ أَنِّي مُسَافِرٌ بُكْرَةً مَعَ أُمِّيْ وَإِخْوَتِيْ ، فَاسْتَيْقَظْتُ قَبْلَ السَّحَرِ وَبَقِيْتُ أَنْتَظِرُ سَاعَةَ السَّفَرِ ، وَاسْتَيْقَظَ أَهْلُ الْبَيْتِ مُبَكِّرِيْنَ ، وَصَلَّيْنَا الصُّبْحَ ، وَجَاءَ عَمِّيْ وَبَدَأَتْ فِي الْبَيْتِ حَرَكَةٌ وَأَصْوَاتٌ ، هٰذَا يَجْرِيْ وَذٰلِكَ يَلُفُّ الْفِرَاشَ وَهٰذَا يُنَادِيْ وَذٰلِكَ يُجِيْبُ ، وَالْعَمُّ يَغْضَبُ وَيَسْتَعْجِلُ ، وَالْوَالِدُ قَائِمٌ يَأْمُرُ وَيَنْهَىٰ ، وَيَغْضَبُ وَيُرْشِدُ ، وَالْخَادِمُ يُهَيِّىءُ الزَّادَ ، حَتَّى كَانَ وَقْتُ الْخُرُوجِ مِنَ الْبَيْتِ وَقَرُبَ مِيْعَادُ الْقِطَارِ.

جَاءَتْ مَرْكَبَتَانِ فَرَكِبْنَاهُمَا ، وَسَلَّمْتُ عَلَىٰ أَبِيْ فَوَدَّعَنِيْ وَدَعَا لِيْ ، وَوَصَلْنَا إِلَىٰ الْمَحَطَّةِ فَأَخَذَ الْحَمَّالُونَ الْحَوَائِجَ وَالْمَتَاعَ ، وَكَانَتْ أَيَّامُ شِتَاءٍ فَكَانَتِ الْفُرُشُ كَبِيْرَةً ، وَذَهَبَ عَمِّيْ فَاشْتَرَىٰ تَذَاكِرَ الْقِطَارِ.

وَسَأَلْتُ عَمِّيْ عَنِ النَّوْلِ فقَالَ: إِنَّ النَّوْلَ ثَلاَثُ رُبِّيَاتٍ ، وَرُبِّيَّةٌ وَنِصْفٌ لكَ.

وَقُلْتُ لِعَمِّيْ: أَعْطِنِيْ تَذْكِرَتِيْ. فَقَالَ عَمِّيْ: إِنَّكَ تُضَيِّعُ تَذْكِرَتَكَ ، فَقُلْتُ: لاَ! سَأُحَافِظُ عَلَىٰ تَذْكِرَتِي إِنْ شَاءَ اللهُ ، فَأَعْطَانِيْ تَذْكِرَتِي وَوَضَعْتُهَا عِنْدِيْ. دَخَلْنَا الْمَحَطَّةِ فَرَأَيْنَا رِجَالاً كَثِيْراً وَنِسَاءً وَأَطْفَالاً وَرَأَيْنَا زِحَاماً شَدِيْداً وَسَمِعْنَا أَصْوَاتَ النَّاسِ وَ الأَطْفَالِ وَصَيْحَةَ الْحَمَّالِيْنَ وَصَفِيْرَ الْقَاطِرَةِ.

وَكَانَ قِطَارُنَا مُتَأَخِّراً فَذَهَبْنَا إِلَى الْمَنْظَرَةِ وجَلَسْنَا قَلِيْلاً ، ثُمَّ جِئْتُ إِلَى الرَّصِيْفِ لأَرَىٰ هَلْ جَاءَ الْقِطَارُ ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَىٰ الْمَنْظَرَةِ.

وَبَعْدَ قَلِيْلٍ جَاءَ الْقِطَارُ فَخَرَجْنَا مِنَ الْمَنْظَرَةِ ، وَقَامَ النَّاسُ كُلُّهُمْ عَلَىٰ الرَّصِيْفِ وَوَقَفَ الْقِطَارُ ، ونَـزَلَ أُناسٌ وَرَكِبَ أُناسٌ وَرَكِبْنَا.

وَكُنْتُ أُطِلُّ مِنَ الْقِطَارِ وَأَرَىٰ الْمَنَاظِرَ ، وَكَانَ الزِّحَامُ شَدِيْداً فِي الْقِطَارِ ، وَجَاءَ الْبَاعَةُ وَجَعَلَ النَّاسُ يَشْتَرُوْنَ وَيَأْكُلُونَ ، وَاشْتَرَىٰ بَعْضُ النَّاسِ مِنَ الْبَاعَةِ هَدَايَا لأَصْدِقَائِهِمْ وَأَقَارِبِهِمْ.

وَبَعْدَ قَلِيْل صَفرَ أَمِيْنُ الْقِطَارِ وَهَزَّ الْعَلَمَ الأَخْضَرَ فَأَسْرَعَ النَّاسُ وَدَخَلُوْا فِي الْقِطَارِ ، وَتَحَرَّكَتِ الْقَاطِرَةُ وَسَارَ الْقِطَارُ.

وَدَخَلَ نَقَّابٌ فِيْ عَرَبَتِنَا فَـنَـقَبَ تَذَاكِرَنَا وَرَدَّهَا إِلَـيْـنَـا.

وَفِي الطَّرِيْقِ تَغَدَّيْـنَـا بِالزَّادِ وَأَكَلْـنَـا وَشَرِبْـنَـا وَحمِدْنَا اللهَ .

وَلَمْ يَزَلْ يَقِفُ الْقِطَارُ عَلَى الْمَحطَّاتِ وَيَسِيْرُ حَتَّىٰ وَصَل وَقْتُ الظُّهْرِ فَتَوَضَّأنا بِسُرْعَةٍ عَلَىٰ مَحَطَّةٍ وَصَلَّيْنَا صَلاَةَ السَّفَرِ ، صَلَّيْنَا الظُّهْرَ رَكْعَتَيْنِ وَسَلَّمْنَا ، وَصَفرَ أَمِينُ الْقِطَارِ فَرَكِبْنَا سَرِيْعاً .

وَقَالَ عَمِّيْ: لَوْ كَانَ الْقِطَارُ لِلْمُسْلِمِيْنَ لَكَانَ فِيْهِ مَكَانٌ لِلْوُضُوءِ وَالصَّلاَةِ ، نُؤَذِّنُ فِيْهِ وَنُصَلِّيْ جَماعَةً .

وَفِي الْعَصْرِ وَصَلَ الْقِطَارُ إِلَىٰ مَحَطَّتِنَا ، وَكُنْتُ أُطِلُّ مِنَ النَّافِذَةِ فَرَأَيْتُ هَاشِمَاً وَسَعِيْداً عَلَى الرَّصِيْفِ وَعَرفْتُهُمَا وَسَلَّمْتُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَا عَلَيَّ .

وَوَصَلْتُ إِلى قَرْيَتِي وَقَابَلْتُ أَصْدِقَائِيْ وَإِخوانِيْ وَجَعَلْتُ أُحَدِّثُهُمْ حَدِيْثَ الْبَلَدِ وَأُخْبِرُهُمْ بِعَجَائِبِهِ وَأَحْكِيْ لَهُمْ مَا رَأَيْتُ فِي السَّفرِ .

❊ ❊ ❊

(٩)

مـاذا تُـحِـبُّ أَنْ تَـكُـوْنَ؟

سَأَلَ الْمُعَلِّمُ التَّلاَمِيْذَ مَرَةً فِي الصَّفِّ وَاحِداً وَاحِداً: مَاذا تُحِبُّ أَنْ تَكُوْنَ؟

وَقَالَ: كُلُّ وَاحِدٍ حُرٌّ فِيْ جَوَابِهِ فَلاَ يَخَفْ وَلاَ يَسْتَحِيْ.

وَقَالَ أَحْمَدُ وكَانَ أَصْغَرَ التَّلاَمِيْذِ: أَنَا أُرِيْدُ أَنْ أَكُوْنَ سَائِقاً فِي الْقِطَارِ، فَأَرْكَبَ دَائِماً وَأُسَافِرَ مَجَّاناً وَأَتَنَزَّهَ.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمٰنِ: إِنَّ سَائِقَ الْقِطَارِ فِيْ تَعَبٍ عَظِيْمٍ وَحَرٍّ وَجَحِيمٍ، وَلٰكِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ رُبَّاناً فِيْ بَاخِرَةٍ، فَأُسَافِرَ فِي البحر وَأَزُوْرَ الْبِلاَدَ الْبَعِيْدَةَ مَجَّاناً وَأُشَاهِدَ عَجَائِبَ الدُّنْيَا.

وَقَالَ إِبْرَاهِيْمُ: الرُّبَّانُ وَبَاخِرَتهُ فِي خَطَرٍ مِنَ الْغَرَقِ، وَلَكِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ طَبِيْباً فَأُدَاوِيَ النَّاسَ وَأُدَاوِيَ الْفُقَرَاءَ مَجَّاناً، وَأَخْدِمَ الْخَلْقَ وَأُحَافِظَ عَلَىٰ صِحَّتِيْ وَأَعِيْشَ بِأَمْنٍ وَسَلاَمٍ.

وَأَجَابَهُ عَبْدُ الرَّحْمٰنِ وَقَالَ: هٰذَا لَيْسَ بِصَحِيْحٍ ، لَيْسَتِ الْبَاخِرَةُ فِيْ خَطَرٍ فِيْ هٰذَا الزَّمَانِ ، وَالْبَوَاخِرُ تُسَافِرُ دَائِماً فِيْ هٰذِهِ الأَيَّامِ بِأَمْنٍ وَسَلَامٍ ، وَبِالْعَكْسِ أَرَىٰ الأَطِبَّاءَ يَمْرَضُونَ وَيَمُوتُوْنَ.

وَقَاطَعَهُ إِبْرَاهِيْمُ وَقَالَ: أَمَا سَمِعْتَ أَنَّ بَاخِرَةً غَرِقَتْ قَبْلَ يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ.

وَأَرَادَ إِبْرَاهِيْمُ أَنْ يُجِيبَهُ وَلٰكِنْ قَالَ الْمُعَلِّمُ: وَهٰذَا لَيْسَ وَقْتَ مُنَاظَرَةٍ وَقَدْ بَقِيَ كَثِيرٌ مَنَ الطَّلَبَةِ ، ومَاذا تَقُولُ يَا قَاسِمُ؟

قَالَ قَاسِمٌ: أَنَا لَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ سَائِقاً أَوْ رُبَّاناً أَوْ طَبِيْباً ، بَلْ أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ فَلَّاحاً ، أَزْرَعُ وَأَحْرُثُ ، وَلَا أَحدَ يَخْدِمُ النَّاسَ وَيَنْفَعُهُمْ كَالْفَلَّاحِ ، وَهُوَ الَّذي يَزْرَعُ الْحُبُوبَ وَالخُضَرَ فَيَأْكُلُ النَّاسُ وَالدَّوَابُّ.

وَقَالَ سُلَيْمَانُ: أَنَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ تَاجِراً ، لِيْ دُكَّانٌ كَبِيرٌ فِيْ سُوْقٍ كَبِيْرَةٍ يَأْتِي النَّاسُ إِلَيَّ وَيَشْتَرُونَ.

وَقَالَ حَامِدٌ: أَنَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ صَنَّاعاً مَاهِراً وَمُخْتَرِعاً أَصْنَعُ وَأَخْتَرِعُ الأَشْيَاءَ الْعَجِيْبَةِ.

وَقَالَ خَالِدٌ: أَنَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ جُنْدِيّاً قَوِياً أُقَاتِلُ الْكُفَّارَ وَالْمُشْرِكِيْنَ وَأُجَاهِدُ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ.

وَقَالَ عَبْدُ الْكَرِيْمِ: أَنَا أُحِبُّ أَنْ أَكُوْنَ غَنِياً كَبِيراً أَلْبَسُ مَا أُحِبُّ وَآكُلُ مَا أَشْتَهِيْ وَأُسَافِرُ إِلَىٰ أَيْنَ أُرِيْدُ ، وَدَائِماً عِنْدِيْ مَالٌ كَثِيرٌ وَأَسْكُنُ فِيْ قَصْرٍ كَبِيْرٍ.

وَضَحِكَ الأَوْلَادُ مِنْ قَوْلِ عَبْدِ الْكَرِيْمِ وَخَجِلَ عَبْدُ الْكَرِيْمِ.

وَقَالَ مُحَمَّدٌ: أَنَا أُحِبُّ أَنْ أَكُوْنَ عَالِماً أَخَافُ اللهَ وَأَعْبُدُهُ ، وَأَعِظُ النَّاسَ وَآمُرُهُمْ بِالمَعْرُوْفِ وَأَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُحَذِّرُهُم عَذَابَ اللهِ.

قَالَ الْمُعَلِّمُ: أَحْسَنْتُمْ يَا أَوْلَادِيْ وَأَنَا أَدْعُوْ لَكُمْ بِالتَّوْفِيْقِ وَالنَّجَاحِ ، وَلَكِنْ كُوْنُوا مُسْلِمِيْنَ وَابْتَغُوا اللهَ بِعَمَلِكُمْ وَانْفَعُوا الدِّيْنَ بِشُغْلِكُمْ وَاخْدِمُوا الأُمَّةَ بِعِلْمِكُمْ.

قَالَ التَّلَامِيْذُ: وَمَاذَا تَقُوْلُ أَيُّهَا الأُسْتَاذُ عَنْ عَبْدِ الْكَرِيْمِ وَقَصْرِهِ؟

قَالَ الْمُعَلِّمُ: الْمَالُ نِعْمَةٌ مِنَ اللهِ يَجِبُ عَلَيْهَا الشُّكْرُ ، وَسَعِيْدٌ جِدّاً مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً ، وَيَبْتَغِي بِهِ مَرْضَاةَ اللهِ وَيَخْدِمُ بِهِ الإِسْلَامَ ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيْثِ الشَّرِيْفِ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ ، رَجُلٍ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَسَلَّطَهُ عَلَىٰ هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ ، وَرَجُلٍ آتَاهُ اللهُ حِكْمَةً فَهُوَ يَقْضِيْ بِهَا وَيُعَلِّمُهَا».

وَقَدْ كَانَ سَيِّدُنَا عُثْمَانُ غَنِيّاً وَسَيِّدُنَا عَبْدُ الرَّحْمٰنِ بنُ عَوْفٍ غَنِيّاً.

وَرَفَعَ عَبْدُ الْكَرِيْمِ رَأْسَهُ وَقَالَ: سَأَجْتَهِدُ أَنْ أَخْدِمَ الإِسْلاَمَ بِمَالِيْ وَأَبْتَغِيْ بِهِ مَرْضَاةَ اللهِ.

* * *

(١٠)

مُسابَقَةٌ

كَانَتْ أَمْسِ مُسابَقَةٌ فِي الْجَرْيِ فِيْ مَدْرَسَتِيْ ، أَوَّلاً اخْتَارَ مُعَلِّمُ الرِّيَاضَةِ أَرْبَعَةً وَعِشْرِيْنَ طَالِباً مِنْ جَمِيْعِ الصُّفُوْفِ هُمْ أَقْرَانٌ وَأَكْفَاءٌ ، وَأَوْقَفَهُمْ فِيْ صُفُوفٍ صَفّاً خَلْفَ صَفٍّ ، وَفِيْ كُلِّ صَفٍّ ثَلاثَةٌ.

وَوَقَفَ الأُسْتَاذُ بِجَانِبٍ مِنْ هذِهِ الصُّفُوفِ ، وَقَدَّمَ صَفّاً فِيْهِ مُحَمَّدٌ وَإِبْرَاهِيْمُ وَسَعِيدٌ وَهُمْ أَقْرَانٌ وَأَكْفَاءٌ وَقَالَ: قُوْمُوْا فِيْ صَفٍّ وَاحِدٍ وَعَلَىٰ خَطٍّ وَاحِدٍ ، وَلاَ يَتَقَدَّم مِنْكُمْ أَحَدٌ ، وَكَانَ إِبْرَاهِيْمُ مُتَقَدِّماً قَلِيْلاً فَأَخَّرَهُ وَجَعَلَهُ فِي الصَّفِّ وَقَالَ: أَنَا أَعُدُّ لَكُمْ فَإِذَا قُلْتُ: وَاحِد فَسَوُّوا الصَّفَّ ، وَإِذا قُلْتُ: اثْنَان ، فَاسْتَعِدُّوْا واجْمَعُوْا ثِيَابَكُمْ ، وَإِذا قُلْتُ: ثَلاَثَة ، فَطِيْرُوْا. وَذَهَبَ أَحَدُ

الْمُعَلِّمِيْنَ إِلَىٰ آخِرِ الْمَيْدَانِ وَوَضَعَ هُنَالِكَ قَصَبَةً وَقَالَ: هٰذِهِ هِيَ الْغَايَةُ.

وَقَالَ الأُسْتَاذُ: وَاحِدْ، وَوَقَفَ قَلِيْلاً ثُمَّ قَالَ: اثْنَان، فَتَقَدَّمَ سَعِيْدٌ، فَقَالَ الأُسْتَاذُ: تَأَخَّرْ يَا سَعِيْدُ وَأَنَا أَعُدُّ مَرَّةً ثَانِيَةً فَقَالَ: وَاحِدْ، اثْنَانْ، ثَلاَثَةْ، فَطَارَ الأَوْلاَدُ لاَ يَدْرِيْ أَحَدٌ مَنِ السَّابِقُ، حَتَّىٰ بَرَزَ مُحَمَّدٌ وَهَتَفَ الأَوْلاَدُ بِاسْمِهِ وَقَالُوْا: مُحَمَّد مُحَمَّد وَصَاحُوْا: مَرْحَىٰ مَرْحَىٰ، وَكَانَ هُوَ الْمُجَلِّيَ، وَلَحِقَهُ إِبْرَاهِيْمُ فَكَانَ هُوَ الْمُصَلِّيَ، وَجَاءَ دَوْرِيْ وَقُمْتُ فِيْ أَقْرَانِيْ وَأَكْفَائِيْ وَعَدَّ الأُسْتَاذُ: وَاحِدْ، اثْنَانْ، ثَلاَثَةْ، وَأَبْطَأْتُ قَلِيْلاً عِنْدَ الْجَرْيِ فَمَا قَدَرْتُ أَنْ أَسْبِقَ وَأَكُوْنَ الْمُجَلِّي، وَوَصَلْنَا إِلَىٰ الْغَايَةِ وَكُنْتُ الْمُصَلِّيَ.

وَكَانَ خَالِدٌ الْمُجَلِّيَ، فَهَتَفَ الأَوْلاَدُ بِاسْمِهِ وَقَالُوا: مَرْحَىٰ مَرْحَىٰ، وَكَانَ إِخْوَانِيْ يَظُنُّوْنَ أَنِّيْ أَنَا الْمُجَلِّيَ، لأَنِّي خَفِيْفٌ وَسَرِيْعٌ وَأَجْرِي كُلَّ يَوْمٍ، وَتَأَسَّفْتُ أَيْضاً ولكِنِّي قُلْتُ فِيْ نَفْسِيْ: سَأَسْبِقُ فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ عِنْدَ انْتِهَاءِ السَّنَةِ إِنْ شَاءَ اللهُ.

وَخَطَبَ الأُسْتَاذُ فِي الأَخِيْرِ وَقَالَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُسَابِقُ وَكَانَ أَصْحَابُهُ يَتَسَابَقُوْنَ، وَيَنْبَغِيْ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَكُوْنَ نَشِيْطاً خَفِيفاً قَوِيّاً حَتَّىٰ لاَ يَعْجزُ فِي الْجِهَادِ.

* * *

(١١)

السَّاعَةُ

حَارِثٌ: كَمِ السَّاعَةُ يَا أَخِيْ؟

سَعِيْدٌ: السَّاعَةُ عَشْرٌ وَرُبْعٌ أَلَيْسَ عِنْدَكَ سَاعَةٌ؟

حَارِثٌ: بَلَى! وَلٰكِنَّ سَاعَتِيْ وَاقِفَةٌ.

سَعِيْدٌ: لَعَلَّكَ مَا مَلأْتَهَا.

حَارِثٌ: نَعَمْ! نَسِيْتُ أَنْ أَمْلأَهَا الْبَارِحَةَ، أَنَا أَمْلَؤُهَا فِي السَّاعَةِ الْعَاشِرَةِ فِي اللَّيْلِ وَلٰكِنِّيْ غَلَبَتْنِي عَيْنِيْ الْبَارِحَةَ فَقَدْ كُنْتُ تَعِباً جِدّاً فَمَا مَلأْتُهَا.

سَعِيْدٌ: هَلْ تُرِيْدُ ضَبْطَهَا بِسَاعَتِيْ؟

حَارِثٌ: نَعَمْ! أَضْبِطُهَا بِسَاعَتِكَ إِذَا كَانَتْ سَاعَتُكَ مُسْتَقِيْمَةً.

سَعِيْدٌ: سَاعَتِيْ تَتَقَدَّمُ دَقِيْقَتَيْنِ فِيْ أَرْبَعٍ وَعِشْرِيْنَ سَاعَةً وَقَدْ ضَبَطْتُهَا الْبَارِحَةَ فَأَخَّرْتُهَا دَقِيْقَتَيْنِ.

حَارِثٌ: كَمِ السَّاعَةُ الآنَ؟

سَعِيْدٌ: الآنَ عَشْرٌ وَثُلُثٌ.

حَارِثٌ: أَشْكُرُكَ، أَرِنِيْ سَاعَتَكَ.

سَعِيدٌ: تَفَضَّلْ.

حَارِثٌ: إِنَّ سَاعَتَكَ ثَمِيْنَةٌ وَجَمِيْلَةٌ مِيْنَاؤُهَا جَمِيْلٌ وَعَقَارِبُهَا دَقِيْقَةٌ وَغِطَاؤُهَا نَظِيْفٌ، بِكَمْ اشْتَرَيْتَهَا يَا سَعِيْدُ؟

سَعِيْدٌ: أَهْدَاهَا إِلَيَّ أَخِي الْكَبِيْرُ وَأَخْبَرَنِيْ أَنَّهُ اشْتَرَاهَا بِثَلاَثِيْنَ رُبِّيَّةً، وَسَاعَتُكَ بِكَمْ؟

حَارِثٌ: سَاعَتِيْ أَرْخَصُ مِنْهَا، فَإِنَّهَا بِعِشْرِيْنَ رُبِّيَّةً، قَدْ أَهْدَاهَا إِلَيَّ عَمِّيْ لَمَّا رَجَعَ مِنَ السَّفَرِ.

سَعِيْدٌ: إِنَّ السَّاعَةَ لاَزِمَةٌ فِيْ هذَا الزَّمَانِ، فَبِالسَّاعَةِ يَعْرِفُ التِّلْمِيْذُ مِيْعَادَ الْمَدْرَسَةِ، وَبِالسَّاعَةِ يَعْرِفُ الْمُسْلِمُ أَوْقَاتَ الْجَمَاعَةِ وَالصَّلَوَاتِ.

حَارِثٌ: نَعَمْ! أَنَا كُنْتُ أَتَأَخَّرُ عَنْ مِيْعَادِ الْمَدْرَسَةِ فِيْ بَعْضِ الأَيَّامِ وَتَفُوْتُنِي الْجَمَاعَةِ أَحْيَاناً، وَلٰكِنْ مُنْذُ اشْتَرَيْتُهَا لَمْ أَتَأَخَّرْ عَنِ الْمَدْرَسَةِ وَمَا فَاتَتْنِيْ جَمَاعَةٌ.

سَعِيْدٌ: أَسْتَأْذِنُكَ لأَنِّي مُسَافِرٌ الْيَوْمَ وَمِيْعَادُ الْقِطَارِ السَّاعَةُ اثْنَتَا عَشَرَةَ إِلاَّ عَشْراً.

حَارِثٌ : الْوَقْتُ وَاسِعٌ فَلَيْسَ الآنَ إلاَّ عَشْرٌ وَنِصْفٌ وَالْمَحَطَّةُ قَرِيْبَـةٌ مِنْ بَيْتِكَ .

سَعِيْدٌ : نَعَمْ ! الوقتُ واسِعٌ ، وَلٰكِنْ لِيْ شُغْلٌ فِي السُّوْقِ وَلَمْ أَرْبِطِ الْحَوَائِجَ إِلَىٰ الآنَ .

حَارِثٌ : عَلَىٰ بَرَكَةِ اللهِ ، السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ .

سَعِيْدٌ : وَعَلَيْكُمُ السَّلاَمُ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ .

* * *

(١٢)

الـفُـطُـورُ

طَلَبْتُ مِنْ أَبِيْ وَأُمِّيْ أَنْ أَصُوْمَ يَوْمَاً مِنْ رَمَضَانَ ، فَقَالَ أَبِيْ : إِنَّكَ صَغِيْرٌ ضَعِيْفٌ لاَ تَصْبِرُ عَلَىٰ الْجُوْعِ وَالْعَطَشِ ، وَقَالَتْ أُمِّيْ : هٰذِهِ أَيَّامُ صَيْفٍ وَالصَّوْمُ فِيْهَا شَدِيْدٌ اصْبِرْ حَتَّىٰ تَكُوْنَ أَيَّامُ شِتَاءٍ .

وَلٰكِنِّيْ بَكَيْتُ وَقُلْتُ : قَدْ صَامَ مَحْمُوْدٌ وَهُوَ فِيْ سِنِّيْ ، وَقَدْ صَامَ إِسْماعِيْلُ وَهُوَ أَصْغَرُ مِنِّيْ ، وَلِمَاذَا أَنْتَظِرُ أَنَا؟

وَقَدْ رَأَيْتُ مَحْمُوْداً لَمَّا صَامَ لَبِسَ لِبَاساً جَدِيْداً وَصُنِعَتْ لَهُ أَطْعِمَةٌ لَذِيْذَةٌ وَقَدَّمَ لَهُ أَقَارِبُهُ هَدَايَا وَجَوَائِزَ وَاجْتَمَعَ نَاسٌ كَثِيْرٌ ، وَكَانَ مَحْمُودٌ لَهُ شَرَفٌ ، كُلٌّ يَتَحَادَثُ مَعَهُ وَيُقَرِّبُهُ إِلَيْهِ .

وَقَدْ سَمِعْتُ أَنَّ الْوَلَدَ الصَّغِيْرَ إِذَا صَامَ كَانَ لِوَالِدَيْهِ الأَجْرُ وَالثَّوَابُ ، وَأُحِبُّ أَنْ يَنَالَ أَبِيْ وَأُمِّي الأَجْرَ وَالثَّوَابَ .

وَقَبِلَ أَبِيْ وَرَضِيَتْ أُمِّيْ ، وَدَعَتْ أُمِّيْ أَصْدِقَائِي وَأَتْرَابِي

لِلسُّحُوْرِ مَعِيْ فَبَاتُوْا فِيْ بَيْتِيْ ، وَفِي السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ فِي اللَّيْلِ اسْتَيْقَظْنَا وَقَدَّمَتْ أُمِّيْ طَعَاماً لَذِيْذاً ، فَأَكَلْنَا وَشَبِعْنَا وَنِمْنَا قَلِيْلاً وَاسْتَيْقَظْنَا لِصَلاَةِ الصُّبْحِ .

وَفِي النَّهَارِ أَرَادَتْ أُمِّيْ أَنْ تَشْغُلَنِيْ فَلاَ أَذْكُرُ الْجُوْعَ وَالْعَطَشَ ، فَأَمَرَتْنِيْ بِأَشْغَالٍ لَيْسَ فِيْهَا تَعَبٌ ، وَكُنْتُ فِيْ شُغْلٍ وَحَدِيْثٍ مَعَ الأَصْدِقَاءِ وَالأَتْرَابِ ، حَتَّى انْتَصَفَ النَّهَارُ وَمَا شَعَرْتُ بِجُوْعٍ وَلاَ عَطَشٍ .

وَفِي الظَّهِيْرَةِ شَعَرْتُ بِظَمَأٍ وَحَرٍّ فَاغْتَسَلْتُ فَذَهَبَ عَنِّي الظَّمَأُ وَاسْتَرَحْتُ .

وَفِي الْعَصْرِ شَعَرْتُ بِالْجُوْعِ وَرَأَيْتُ أَطْعِمَةً وَثِمَاراً وَفَوَاكِهَ ، وَقَالَ لِيْ أَحَدُ الأَصْدِقَاءِ : لا بَأْسَ أَنْ تَأْكُلَ شَيْئاً وَلاَ يَرَاكَ الآنَ أَحَدٌ ، وَقَدْ أَكَلْتُ أَيْضاً لَمَّا كُنْتُ صَائِماً ، قُلْتُ : نَعَمْ! لاَ يَرَانِيْ هُنَا أَحَدٌ وَلٰكِنَّ اللهَ يَرَانِيْ .

وَسَكَتَ صَدِيْقِيْ وَصَبَرْتُ عَلَىٰ الْجُوْعِ .

وَقَبْلَ الْغُرُوْبِ حَضَرَ أَصْدِقَاءُ أَبِيْ وَأَقَارِبُنَا وَنُقِلَ الْفُطُوْرُ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ ، وَكَانَ الْوَقْتُ شَدِيداً عَلَيَّ فَكُنْتُ أَرْمُقُ الْمُؤَذِّنَ وَأَعُدُّ الدَّقَائِقَ ، فَلَمَّا أَذَّنَ أَفْطَرْتُ بِتَمْرَةٍ ثُمَّ أَكَلْتُ وَشَرِبْتُ وَقُلْتُ كَمَا عَلَّمَنِيْ أَبِيْ :

«ذَهَبَ الظَّمَأُ وَابْتَلَّتِ الْعُرُوْقُ وَثَبَتَ الأَجْرُ إِنْ شَاءَ اللهُ».

وَمَا أَكَلْتُ طَعَاماً أَلَذَّ مِنْ طَعَامِ ذٰلِكَ الْيَوْمِ، وَمَا كَانَ يَوْمٌ أَجْمَلَ فِيْ حَيَاتِيْ مِنْ ذٰلِكَ الْيَوْمِ.

* * *

(١٣)

الأَمَانَةُ

اسْتَأْجَرَ رَجُلٌ قَوْمَاً ، فَاشْتَغَلُوْا وَعَمِلُوْا ، وَلَمَّا فَرَغُوْا مِنْ شُغْلِهِمْ جَاؤُوا إِلَيْهِ فَأَعْطَاهُمْ أَجْرَهُمْ ، وَكَانَ فِيْهِمْ رَجُلٌ اشْتَغَلَ مَعَهُمْ ، وَلكِنَّهُ لَمْ يَأْخذْ أَجْرَهُ وَتَرَكَهُ وَذَهَبَ .

وَكَانَ الرَّجُلُ كَرِيْمَاً أَمِيْنَاً ، فَلَمْ يَأْكُلْ أُجْرَتَهُ ، وَلَمْ يَنْتَفِعْ بِهَا ، وَخَافَ اللهَ وَوَضَعَهَا فِي التِّجَارَةِ ، وثَمَّرَهَا وَأَثْمَرَتِ الأُجْرَةُ كَثِيْراً ، وَكَثُرَت مِنْهَا الأَمْوَالُ .

وَبَعْدَ حِيْنٍ جَاءَهُ الأَجِيْرُ وَهُوَ خَائِفٌ أَنْ لاَ يَعْرِفَهُ الرَّجُلُ ، فَقَدْ طَالَت الْمُدَّةُ ، وَمَضَىٰ زَمَنٌ كَثِيْرٌ ، وَمَاذَا يَفْعَلُ الْمِسْكِيْنُ إِنْ لَمْ يَعْرِفْهُ الرَّجُلُ أَوْ نَسِيَ قِصَّتَهُ .

جَاءَ الأَجِيْرُ وَهُوَ لاَ يَطْمَعُ إِلاَّ فِي أُجْرَتِهِ الْقَلِيْلَةِ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ، وَإِذَا جَحدَهَا الرَّجُلُ وَلَمْ يَدْفَعْهَا رَجعَ خَائِباً .

وَلٰكِنَّهُ جَاءَهُ لأَنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَىٰ هٰذِهِ الدَّرَاهِمِ، فَقَالَ: يا عَبْدَ اللهِ! أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِيْ ، فَمَا جَحَدَ الرَّجُلُ وَمَا أَنْكَرَ ، بَلْ قَالَ: كُلُّ مَا تَرَىٰ مِنَ الإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالرَّقِيْقِ مِنْ أَجْرِكَ.

دُهِشَ الرَّجُلُ وَتَحَيَّرَ وَظَنَّ أَنَّهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِ ، فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللهِ لاَ تَسْتَهْزِىءْ بِيْ.

قَالَ الرَّجُلُ: لاَ أَسْتَهْزِىءُ بِكَ ، فَكُلُّ مَا تَرَىٰ مِنَ الإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالرَّقِيْقِ لَكَ ، فَإِنِّيْ قَدْ وَضَعْتُ أُجْرَتَكَ فِي التِّجَارَةِ ، وَثَمَّرْتُهَا وَأَثْمَرَتْ هٰذِهِ الإِبِلَ وَالْبَقَرَ وَالْغَنَمَ وَالرَّقِيْقَ .

فَأَخَذَ الأَجِيْرُ الإِبِلَ وَالْبَقَرَ وَالْغَنَمَ وَالرَّقِيْقَ وَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهَا شَيْئاً.

وَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَلَىٰ هٰذِهِ الأَمَانَةِ وَالْوَفَاءِ وَالْكَرَمِ.

وَقَدْ وَقَعَ هٰذَا الرَّجُلُ الأَمِيْنُ مَرَّةً فِيْ غَارٍ ، وَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِ صَخْرَةٌ ، فَلَمَّا يَئِسَ مِنَ الْحَيَاةِ دَعَا اللهَ بِهٰذَا الْعَمَلِ الصَّالِحِ ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذٰلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ ، فَاكْشِفْ عَنَّا هٰذِهِ الصَّخْرَةَ ، فَأَجَابَ اللهُ دَعْوَتَهُ وَأَعَانَهُ.

* * *

(١٤)

الصَّيْـدُ

خَرَجْتُ يَوْمَ عُطْلَةٍ مَعَ صَيَّادِيْنَ عِنْدَهُمْ بَنَادِقُ وَسَكَاكِيْنُ ، خَرَجْنَا مُبَكِّرِيْنَ فِي الصَّبَاحِ لَمْ تَطْلُعِ الشَّمْسُ ، وَكَانَ مَعِيْ كَثِيْرٌ مِنْ أَتْرَابِيْ وَأَصْدِقَائِيْ ، وَأَخَذْنَا غَدَاءَنَا مَعَنَا لِنَتَغَدَّىٰ إِذَا غَلَبَنَا الْجُوْعُ ، وَكُنَا نُرِيْدُ أَنْ نَرْجِعَ فِي الْمَسَاءِ .

وَلَمْ نَـزَلْ نَمْشِيْ فِي الْحَرِّ وَالشَّمْسِ حَتَّىٰ تَعِبْنَا ، وَغَلَبَنَا الْجُوْعُ وَالظَّمَأُ ، وَكَانَ الْغَدَاءُ مَعَ خَلِيْلٍ ، وَقَدْ ضَلَّ الطَّرِيْقَ ، وَمَا وَجَدْنَا طَعَاماً وَلاَ مَاءً .

وَانْتَصَفَ النَّهَارُ وَجَلَسْنَا فِيْ ظِلِّ شَجَرَةٍ نَنْتَظِرُ خَلِيْلاً ، وَبَـرَزَ خَلِيْلٌ مِنْ بُعْدٍ فَنَـادَيْـنَاهُ بِاسْمِهِ وَحَمِدْنَا اللهَ ، وَتَغَدَّيْنَا وَاسْتَرَحْنَا قَلِيْلاً ، ثُمَّ خَرَجْنَا .

وَدَخَلْنَـا فِـي الْغَابَـةِ وَوَجَدْنَـا آثَارَ بَـقَرِ الْوَحْشِ فَتَـفَـرَّقْنَـا

وَجلَسْنَا بِالْمِرْصَادِ وَخَرَجَتْ بَـقَرَةٌ مِنَ بَيْنِ الأَشْجَارِ، وَكَانَ السَّيِّدُ إِسْمَاعِيْلُ مُسْتَعِدّاً فَصوَّبَ إِلَيْهَا بُنْـدُقِيَّـتَه ، وَأَطْلَقَ الرَّصَاصَةَ وَأَصَابَ الْبَقَرَةَ فِيْ صَدْرِهَا ، فَسَقَطَتْ جَرِيْحاً تَضْرِبُ بِرِجْلَيْهَا.

وَسَمِعَ الإِخْوَانُ صَوْتَ الْبُنْدُقِيَّةِ فَجَاؤُوا ، وَذَبَحَهَا يَاقُوتُ بِسِكِّيْنٍ كَبِيْرٍ حَادٍّ وَسَمَّىٰ اللهَ وَكَبَّرَ ، وَكُنَّا نَتَكَلَّمُ وَكُنَّا مُطْمَئِنِّيْنَ إِذْ خَرَجَتْ بَقَرَةٌ أُخْرَىٰ ، فَأَطْلَقَ عَلَيْهَا هَاشِمٌ بُنْدُقِيَّـتَهُ بِسُرْعَةٍ ، وَمَا قَدَرَ أَنْ يُصَوِّبَ الْبُنْدُقِيَّةَ ، فَأَخْطَأَتِ الرَّصَاصَةُ وَمَا صَادَتِ الْبَقَرَةَ وَتَأَسَّفَ هَاشِمٌ وَتَأَسَّفَتِ الْجَمَاعَةُ.

وَصِدْنَا حَمَامَتَيْنِ بِرَصَاصَةٍ وَبَطَّتَيْنِ بِرَصَاصَتَيْنِ ، وَكَانَ عِنْدِيْ سِكِّيْنٌ صَغِيرٌ حَادٌّ فَذَبَحْتُ الْبَطَّتَيْنِ ، وَسَمَّيْتُ اللهَ وَكَبَّرْتُ.

وَقُلْتُ لِلسَّيِّدِ إِسْمَاعِيْلَ: أَنَا أُرِيْدُ أَنْ أَصِيْدَ أَيْضاً ، فَأَعْطَانِيْ بُنْدُقِيَّتَهُ وَوَضَعَ فِيْهَا رَصَاصَةً ، وَكُنْتُ أَعْرِفُ كَيْفَ أُصَوِّبُ الْبُنْدُقِيَّةَ وَكَيْفَ أُطْلِقُهَا ، لأَنِّيْ أَطْلَقْتُ الْبُنْدُقِيَّةَ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ أَوْ خَمْسَ مَرَّاتٍ ، فَذَهَبْتُ وَجَلَسْتُ بِالْمِرْصَادِ ، وَجَاءَ حَمَامٌ وَوَقَعَ عَلَىٰ شَجَرَةٍ قَرِيْبَةٍ ، وَصَوَّبْتُ بُنْدُقِيَّتِي نَحْوَ الْحَمَام ، وَأَطْلَقْتُ الْبُنْدُقِيَّةَ ، فَأَصَبْتُ حَمَامَتَيْنِ وَفَرِحْتُ جِداً لَمَّا أَصَبْتُ الْحَمَامَتَيْنِ وَكَبَّرْتُ مِنَ الْفَرَحِ.

وَجَاءَ الإِخْوَانُ وَقَالُوْا: مَرْحَىٰ مَرْحَىٰ ، وَقَالُوا: مَا شَاءَ اللهُ إِنَّ خَالِداً صَيَّادٌ.

وَمَا رَضِيْتُ أَنْ يَذْبَحهُمَا أَحَدٌ ، فَذَهَبْتُ وَسَمَّيْتُ اللهَ وَذَبَحْتُ الْحَمَامَتَيْنِ بِسِكِّيْنِي الصَّغِيْرِ الْحَادِّ ، وَرَجَعْنَا إِلَىٰ الْقَرْيَةِ فِي الْمَسَاءِ بِصَيْدٍ كَثِيْرٍ ، وَقُطِعَتِ الْبَقَرَةُ قِطَعاً قِطَعاً ، وَأَهْدَيْنَا لَحْمَهَا إِلَىٰ جَمِيْعِ الأَصْدِقَاءِ وَالأَقَارِبِ وَأَهْلِ الْقَرْيَةِ ، فَأَكَلُوا وَشَبِعُوْا وَشَكَرُوْا الصَّيَّادِيْنَ .

* * *

(١٥)

مـأُدُبَـــةٌ

رَجَعَ أَخِيْ مِنَ الْحَجِّ ، فَفَرِحَ أَهْلُ الْبَيْتِ كَثِيْراً وَفَرِحَتْ أُمِّيْ جِدّاً ، وَصَنَعَتْ أُمِّيْ طَعَاماً وَدَعَتْ إِلَيْهِ الأَقَارِبَ وَالأَصْدِقَاءَ وَكَثِيراً مِنْ أَهْلِ الْقَرْيَةِ .

وَفَرِحْنَا جِدّاً ، وَفَرَشْنَا فِرَاشاً نَظِيْفاً أَمَامَ الْبَيْتِ وَكَانَتْ أَيَّامُ صَيْفٍ ، وَوَضَعْنَا أَبَارِيْقَ فِيْهَا مَاءٌ لِغَسْلِ الأَيْدِيْ ، وَوَضَعْنَا صَابُوْناً وَمِنْشَفَةً وَبَسَطْنَا سُفْرَةً وَاسِعَةً ، حَضَرَ النَّاسُ فِي الْمَسَاءِ ، فَاسْتَقْبَلَهُمْ أَخِيْ وَقُلْنَا : مَرْحَباً وَجَلَسُوا قَلِيْلاً وَحَضَرَ الطَّعَامُ ، فَجَلَسَ الضُّيُوفُ حَوْلَ السُّفْرَةِ ، وَقَدَّمْنَا الرَّغِيْفَ الْحَارَّ وَاللَّحْمَ وَالرُّزَّ فِيْ صُحُونٍ وَالرَّائِبَ فِيْ أَقْدَاحٍ ، فَسَمَّوُا اللهَ وَأَكَلُوْا .

وَكُنَّا قَائِمِيْنَ نُلاَحِظُ الضُّيُوْفَ ، وَنُقَدِّمُ لَهُمُ الْخُبْزَ والطَّعَامَ وَنَسْقِيْهِمُ الْمَاءَ الْمَثْلُوجَ ، وَأَصَابَ النَّـاسَ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ مِنَ الطَّعَامِ وَأَكَلُوْا بِرَغْبَةٍ وَحَمِدُوا اللهَ .

وَقَامُوْا وَغَسَلُوا أَيْدِيَهُمْ وَمَسَحُوْهَا بِالْمِنْشَفَةِ ، وَجَلَسُوْا إِلَىٰ أَخِيْ يَتَحَدَّثُوْنَ وَيَتَكَلَّمُوْنَ وَيَسْمَعُوْنَ مِنْهُ أَخْبَارَ الْحِجَازِ وَحَدِيْثَ مَكَّةَ الْمُشَرَّفَةِ وَالْمَدِيْنَةِ الْمُنَوَّرَةِ وَمِنَىٰ وَعَرَفَاتٍ بِكُلِّ رَغْبَةٍ وَسُرُوْرٍ ، وَاشْتَاقُوا إِلَىٰ الْحَجِّ ، وَدَعَوُا اللهَ أَنْ يُوَفِّقَهُمْ لِذٰلِكَ .

ثُمَّ اسْتَأْذَنُوْا لِلْخُرُوْجِ وَقَامُوْا يَقُوْلُونَ :

«أَفْطَرَ عِنْدَكُمُ الصَّائِمُوْنَ ، وَأَكَلَ طَعَامَكُمُ الأَبْرَارُ ، وَصَلَّتْ عَلَيْكُمُ الْمَلاَئِكَةُ» .

* * *

(١٦)
بـــرُّ الْــوَالِــدَيْــنِ

كَانَ رَجُلٌ لَهُ أَبَوَانِ كَبِيْرَانِ وَأَوْلَادٌ صِغَارٌ ، وَكَانَ بَرّاً بِالْوَالِدَيْنِ شَفِيْقاً عَلىٰ الأَوْلَادِ.

وَكَانَ يَذْهَبُ كُلَّ يَوْمٍ فِي الصَّبَاحِ إِلَىٰ الْمَرْعَىٰ وَيَرْعَىٰ الْمَاشِيَةَ وَيَرْجِعُ بِهَا فِي الْعِشَاءِ ، فَيَحْلِبُهَا وَيَسْقِيْ وَالِدَيْهِ وَأَوْلَادَهُ الصِّغَارَ.

وَكَانَ أَبَوَاهُ وَأَوْلَادُهُ الصِّغَارُ يَنْتَظِرُوْنَ قُدُوْمَهُ ، وَلَا يَنَامُوْنَ حَتَّىٰ يَحْضُرَ الرَّجُلُ وَيَسْقِيْهُمُ اللَّبَنَ.

مَرَّةً ذَهَبَ الرَّجُلُ بِالْمَاشِيَةِ إِلَىٰ الْمَرْعَىٰ ، فَبَعُدَ فِيْ طَلَبِ الشَّجَرِ وَالْعَلَفِ فَتَأَخَّرَ ذٰلِكَ الْيَوْمَ ، فَرَجَعَ إِلَىٰ الْبَيْتِ وَقَدْ ذَهَب كَثِيرٌ مِنَ اللَّيْلِ.

وَانْتَظَرَ أَبُوْهُ وَأُمُّهُ طَوِيْلاً ، وَكَانَ أَبُوهُ جَائِعاً وَكَانَتْ أُمُّهُ جَائِعَةً ، وَرَقَدَ أَبُوهُ وَرَقَدَتْ أُمُّهُ بَعْدَ الانْتِظَارِ الطَّوِيْلِ.

وَرَجعَ الرَّجُلُ وَدَخلَ الْبَيْتَ ، فَوَجدَ أَنْ أَباهُ الشَّيْخَ قَدْ رَقَدَ ، وَأَنَّ أُمَّهُ الْعَجُوْزَ قَدْ رَقَدَتْ.

فَتَأَسَّفَ الرَّجُلُ وَحَزنَ كَثِيْراً وَنَدِمَ عَلَىٰ تَأْخِيْرِهِ ، وَقَالَ: أَسَفاً إِنِّي تَأَخَّرْتُ الْيَوْمَ فِي الْمَرْعَىٰ وَبَعُدْتُّ فِيْ طَلَبِ الشَّجَرِ وَالْعَلَفِ لأَرْعَىٰ الْمَاشِيَةَ حَتَّىٰ رَقَدَ الشَّيْخُ وَرَقَدَتِ الْعَجُوزُ.

وَفَكَّرَ الرَّجُلُ هَلْ يُوْقِظُ الشَّيْخَ وَالْعَجُوْزَ؟

وَكَرِهَ الرَّجُلُ أَنْ يُوْقِظَ الشَّيْخَ والْعَجُوْزَ.

وَكَانَ أَهْلُهُ وَأَوْلاَدُهُ يَنْتَظِرُوْنَهُ وَكَانُوْا جِيَاعاً فَطَلَبُوا مِنْهُ اللَّبَنَ.

وَلٰكِنَّ الرَّجُلَ كَرِهَ أَنْ يَسْقِيَ أَهْلَهُ وَأَوْلاَدَهُ قَبْلَ وَالِدَيْهِ ، وَخَافَ اللهَ وَقَالَ: كَيْفَ أَسْقِيْكُمْ وَلَمْ أَسْقِهِمْ ، إِنِّي إِذاً لَمن الظَّالِمِيْنَ.

وَحَلَبَ الرَّجُلُ الْمَاشِيَةَ وَوَقَفَ يَنْتَظِرُ أَنْ يَسْتَيْقِظَ أَبَوَاهُ ، وَبَقِيَ وَاقِفاً وَالْقَدَحُ عَلَىٰ يَدِهِ ، وَالأَطْفَالُ يَبْكُونَ وَيَصِيْحُوْنَ عِنْدَ قَدَمِهِ ، وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَسْقِهِمْ شَيْئاً مِنَ الْقَدَحِ وَلَمْ يَشْرَبْ ، وَبَاتَ قَائِماً وَالْقَدَحُ عَلَىٰ يَدِهِ.

وَطَلَعَ الْفَجْرُ وَاسْتَيْقَظَ وَالِدَاهُ ، فَقَدَّمَ الرَّجُلُ لَهُمَا قَدَحَ اللَّبَنِ فَشَرِبَا ثُمَّ سَقَىٰ أَوْلاَدَهُ ، وَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْ هذَا الرَّجُلِ الَّذِي كَانَ بَرّاً بِالْوَالِدَيْنِ ، رَضِيَ اللهُ عَنْ هذَا الْعَمَلِ الصَّالِحِ وَقَبِلَهُ.

وَمَرَّةً كَانَ هٰذَا الرَّجُلُ الْبَرُّ مَاشِياً فِي اللَّيْلِ ، فَرَأَىٰ غاراً ، فَقَالَ: أَبِيْتُ اللَّيْلَ فِيْ هٰذَا الْغَارِ وَأَخْرُجُ فِي الصَّبَاحِ.

وَدَخَلَ الْغَارَ لِيَبِيْتَ ، فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِ الْغَارَ. فَدَعَا اللهَ بِهٰذَا الْعَمَلِ الصَّالِحِ ، وَقَالَ:

اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّيْ فَعَلْتُ ذٰلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَاكْشِفْ هٰذِهِ الصَّخْرَةَ ، فَأَجَابَ اللهُ دَعْوَةَ هٰذَا الرَّجُلِ الصَّالِحِ وَأَعَانَهُ.

* * *

(١٧)

فَضِيْلَةُ الشُّغْلِ

إِنَّ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ أَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ يَسْأَلُهُ ، فَقَالَ: أَمَا فِيْ بَيْتِكَ شَيْءٌ؟

قَالَ: بَلَىٰ حِلْسٌ نَلْبَسُ بَعْضَهُ ، وَنَبْسُطُ بَعْضَهُ وَقَعْبٌ نَشْرَبُ فِيْهِ مِنَ الْمَاءِ.

قَالَ: ائْتِنِيْ بِهِمَا.

فَأَخَذَهُمَا رَسُوْلُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ وَقَالَ: مَنْ يَشْتَرِيْ هٰذَيْنِ؟

قال رجلٌ : أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمٍ.

قال : مَنْ يَزِيْدُ عَلَىٰ دِرْهَمٍ ؟ مَنْ يَزِيْدُ عَلَىٰ دِرْهَمٍ ؟

قَالَ رَجُلٌ: أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمَيْنِ.

فَأَعْطَاهُمَا إِيَّاهُ وَأَخَذَ الدِّرْهَمَيْنِ فَأَعْطَاهُمَا الأَنْصَارِيَّ وَقَالَ:

اشْتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَاماً فَانْبِذْهُ إِلَىٰ أَهْلِكَ ، وَاشْتَرِ بِالآخَرِ قَدُوْماً فَائتِنِيْ بِهِ.

فَأَتَاهُ بِهِ فَشَدَّ فِيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ عُوْداً بِيَدِهِ.

ثُمَّ قَالَ لَهُ: اذْهَبْ فَاحْتَطِبْ وَبعْ وَلاَ أَرَيَنَّكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْماً.

فَذَهَبَ الرَّجُلُ يَحْتَطِبُ وَيَبِيْعُ ، فَجَاءَ وَقَدْ أَصَابَ عَشَرَةَ دَرَاهِمَ ، فَاشْتَرَىٰ بِبَعْضِهَا ثَوْباً وَبِبَعْضِهَا طَعَاماً.

فَقَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: هٰذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجِيْءَ الْمَسْأَلَةُ نُكْتَةً فِيْ وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

* * *

(١٨)

تَرْنِيْمَةُ الْوَلَدِ فِي الصَّبَاحِ

أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ وَقَدْ وَلَّىٰ الظَّلَامُ هَارِبَا
فَالشُّكْرُ للهِ الأَحَدْ شُكْراً عظِيْماً وَاجِبَا
مَا أَحْسَنَ النُّوْرَ أَرَىٰ فِيْهِ الأُمُوْرَ بِاسِمَهْ
وَالطَّيْرُ تَشْدُوْ سَحَراً عَلَىٰ الغُصُونِ قَائِمَهْ
مَا أَحْسَنَ النُّوْرَ الْبَهِي فِيْهِ أَجِدُّ عَامِلَا
إِنِّي أَوَدُّ دَائِماً أَلَّا أَكُونَ خَامِلا
اللهُ قَدْ أَجَارَنِيْ مِنْ كُلِّ شَرٍّ فِي الظَّلَامِ
شُكْراً لَهُ قَدْ صَانَنِيْ شُكْراً لَهُ عَلَىٰ الدَّوَامِ

(مَدَارِجُ الْقِرَاءَةِ)

* * *

(١٩)
أَصْـدِقَـائِـــي

لِيْ أَرْبَعَةُ أَصْدِقَاءَ: حَسَنٌ ، وَقَاسِمٌ ، وَعُمَرُ ، وَمُحَمَّدٌ.

أَمَّا حَسَنٌ فَوَلَدٌ مُهَذَّبٌ حَلِيمٌ ، لا يَكْذِبُ وَلاَ يَغْضَبُ ، أُحِبُّـهُ لأَدَبِهِ وَحِلْمِهِ ، وَهُوَ رَفِيْقِي فِي الْمَدْرَسَةِ ، وَجَارِيْ فِي الْحَيِّ ، وَصَدِيْقِيْ مُنْذُ أَرْبَعِ سِنِيْنَ.

وَهُوَ يَسْكُنُ فِيْ حَيِّنَا مِنْ سِنِيْنَ ، وَبَـيْـتُهُ قَرِيْبٌ مِنْ بَيْتِيْ ، وَلَيْسَ بَيْنَ بُيُوتِنَا إِلاَّ بَيْتٌ وَاحِدٌ.

وَلَمْ نَـتَخَاصَمْ فِيْ هٰذِهِ الْمُدَّةِ مَعَ أَنَّا نَسْكُنُ فِيْ حَيٍّ وَاحِدٍ ، وَنَقْرَأُ فِيْ صَفٍّ وَاحِدٍ ، وَنَذْهَبُ جَمِيعاً إِلَىٰ الْمَدْرَسَةِ وَنَرْجِعُ جَمِيْعاً ، وَقَدْ تَخَاصَمَ كَثِيرٌ مِنَ الأَصْدِقَاءِ ، وَأَرَىٰ كُلَّ يَوْمٍ بَعْضَ الأَوْلاَدِ يَتَخَاصَمُوْنَ.

وَيُحِبُّ أَبِيْ وَأُمِّيْ حَسَناً وَيَفْرَحَانِ بِرِفَاقَتِهِ ، لأَنَّهُ وَلَدٌ لَيْسَ فِيهِ شَرٌّ ، وَيُحِبُّنِيْ أَبُوحَسَنٍ وَيَرَانِيْ كَوَلَدِهِ.

أَمَّا قَاسِمٌ فَوَلَـدٌ ذَكِيٌّ نَـشِيْطٌ تَـرَاهُ دَائِماً مَسْرُوراً ، لاَ أَذْكُرُ أَنِّي رَأَيْتُهُ قَطُّ مَحْزُوْناً ، وَهُوَ ذُوْ أَخْبَارٍ وَحِكَايَاتٍ يَسُرُّ أَصْدِقَاءَهُ بِأَحَادِيْثِهِ ، وَحِكَايَاتِهِ ، وَيُحِبُّـهُ أَصْدِقَاؤُهُ ، وَهُوَ مُجْتَهِدٌ فِي الدُّرُوْسِ لَمْ يَرْسُبْ فِي امْتِحَانٍ.

أَمَّا عُمَرُ فَوَلَـدٌ يَتِيْمٌ يَسْكُنُ فِيْ حَيِّنَا أَيْضاً ، أُمُّهُ عَجُوزٌ تَكْتَسِبُ بِالخِيَاطَةِ وَتُنْفِقُ عَلَىٰ وَلَدِهَا ، وَلٰكِنَّ عُمَرَ وَلَدٌ كَبِيْرُ الـنَّـفْسِ لاَ يَـقْبَـلُ مِنْهَـا شَيْئاً، ثِيَابُهُ رَخِيْصَةٌ وَلٰكِنَّها دَائِماً نَظِيْفَةٌ ، يُحِبُّهُ جَمِيْعُ الْمُعَلِّمِيْنَ لِصَلاَحِهِ وَأَدَبِهِ وَاجْتِهَادِهِ وَمُوَاظَبَتِهِ.

وَلَمْ يَرْسُبْ عُمَرُ فِي الامْتِحَانِ إِلاَّ مَرَّةً وَحَزِنَ كَثِيْراً ، وَحَزِنَتْ أُمُّـهُ لَمَّـا رَسَـبَ عُمَـرُ فِـي الاِمْتِحَـانِ ، وَأَرَادَ عُمَـرُ أَنْ يَتْـرُكَ الْمَدْرَسَةَ ، وَلٰكِنْ شَجَّعَتْهُ أُمُّهُ وَقَالَتْ: أَنَا أَكْتَسِبُ بِالْخِيَاطَةِ وَأُنْفِقُ عَلَيْكَ ، وَرَجَعَ عُمَرُ إِلَىٰ الْمَدْرَسَةِ وَاجْتَهَدَ كَثِيْراً ، وَنَجَحَ فِي الاِمْتِحَانِ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ وَبَرَّزَ فِي الاِمْتِحَانِ.

أَمَّا مُحَمَّدٌ فَتِلْمِيْذٌ نَجِيْبٌ مُجْتَهِدٌ جِدّاً يُبَرِّزُ فِي الاِمْتِحَانِ كُلَّ سَنَةٍ ، وَوَلَدٌ كَاتِبٌ جَيِّدُ الْخَطِّ يَعْرِفُ كِتَابَـةَ الرَّسَائِلِ ، وَهُوَ مُتَـقَدِّمٌ فِي الصَّفِّ وَمُوَاظِبٌ عَلَى الدَّرْسِ ، وَجَمِيْعُ أَصْدِقَائِي مُحَافِظُونَ عَلَىٰ الصَّلَوَاتِ ، مُوَاظِبُوْنَ عَلَىٰ الدُّرُوْسِ ، وَلَمْ نَتَخَاصَمْ قَطُّ وَلَمْ نَغْضَبْ ، وَأَرْجُوْ أَلاَّ أَكُوْنَ شَرَّ الأَصْدِقَاءِ.

* * *

(٢٠)

قـرْيَـتِـــيْ

قَرْيَـتِيْ جَمِيْلَـةٌ فِيْ وَسَطِ حُقُولٍ وَبَسَاتِيْنَ كَأَنَّهَـا جَزِيْرَةٌ فِي بَحْرٍ أَخْضَرَ ، لاَ تَرَىٰ فِيْهَا إِلاَّ خُضْرَةً وَمَاءً ، فَالأَرْضُ خَضْرَاءُ وَالْحُقُولُ خَضْرَاءُ ، وَالدُّنْيَـا كُلُّهَا خَضْرَاءُ فِيْ قَرْيَتِيْ ، وَيَجْرِيْ مِنْ تَحْتِ الْقَرْيَةِ نَهْرٌ مَاؤُهُ نَقِيٌّ شَفَّافٌ ، لأَنَّهُ يَجْرِيْ عَلَىٰ الرَّمْلِ ، نَغْتَسِلُ فِيْ هذَا النَّهْرِ وَنَسْبَحُ وَنَلْعَبُ وَنَشْرَبُ مِنْ مَائِهِ النَّقِيِّ ، وَنَرَىٰ السَّمَكَ يَجْرِيْ مِنْ هُنَـا وَهُنَـا ، وَنَرَىٰ الصَّدَفَ فِيْ قَعْرِ النَّهْرِ لأَنَّ الْمَاءَ نَقِيٌّ شَـفَّافٌ ، وَقَدْ تَعَلَّمْنَا السِّبَاحَةَ وَنَحْنُ صِغَارٌ ، فَإِذا كَانَتْ أَيَّامُ الْمَطَرِ فَاضَ النَّهْرُ ، وَكَانَ عَرْضٌ كَبِيْرٌ عَبَرْنَا هذَا النَّهْرَ وَتَسَابَـقْنَا فِي السِّبَاحَةِ .

وَأَرَىٰ كَثِيْراً مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ لاَ يَعْرِفُوْنَ السِّبَاحَةَ وَهُمْ كِبَارٌ وَيَخَافُوْنَ الْمَاءَ جِدّاً ، وَلاَ يَدْخُلُونَ النَّهْرَ .

جَاءَ مَرَّةً صَدِيْقٌ لِيْ مِنَ الْبَلَدِ وَدَخَلْنَا النَّهْرَ وَقُلْنَا لَهُ: تَعَالَ

يَا أَخِيْ وَاغْتَسِلْ وَاسْبَحْ ، فَقَالَ: إِنِّيْ أَخَافُ الْمَاءَ وَلاَ أَعْرِفُ السِّبَاحَةَ ، فَشَجَّعْنَاهُ وَقُلْنَا: لاَ تَخَفْ وَنَحْنُ مَعَكَ ، فَتَشَجَّعَ وَدَخَلَ الْمَاءَ وَأَرَادَ أَنْ يَسْبَحَ ، وَلٰكِنْ ذَهَبَ إِلَى الْقَعْرِ ، فَأَخَذْنَا بِيَدِهِ وَرَفَعْنَاهُ فَخَرَجَ وَقَدْ شَرِبَ الْمَاءَ.

وَكَانَ يَغْتَسِلُ مَعَنَا كُلَّ يَوْمٍ ، وَيَتَعَلَّمُ السِّبَاحَةَ حَتّٰى تَعَلَّمَهَا وَعَبَرَ النَّهْرَ فَتَشَجَّعَ وَعَبَرَ مَرَّتَيْنِ.

وَإِذَا نَـزَلَتْ أَمْطَارٌ كَثِيْرَةٌ وَفَاضَ النَّهْرُ أَصْبَحَتْ قَرْيَتِيْ شِبْهَ جَزِيْرَةٍ يُحِيْطُ بِهَا الْمَاءُ مِنْ ثَلاَثِ جِهَاتٍ ، وَتَبْقَىٰ جِهَةٌ وَاحِدَةٌ نَذْهَبُ مِنْهَا إِلَىٰ الْبَلَدِ وَنَشْتَرِي الْحَوَائِجَ مِنَ السُّوْقِ.

وَفِي سَنَةٍ كَانَ فَيَضَانٌ عَظِيمٌ ، فَاضَ الْمَاءُ وَدَخَلَ الْبُيُوتَ وَخَافَ النَّاسُ الْغَرَقَ وَتَرَكْنَا قَرْيَتَنَا وَذَهَبْنَا إِلَىٰ الْبَلَدِ وَلَمْ نَرْجِعْ إِلاَّ بَعْدَ شَهْرٍ.

وَيَزُوْرُ قَرْيَتِيْ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَالْعُلَمَاءِ لأَنَّهَا قَرْيَةٌ مَشْهُوْرَةٌ وُلِدَ فِيْهَا كَثِيْرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالصَّالِحِيْنَ.

وَعَلَىٰ شَاطِىءِ النَّهْرِ مَسْجِدٌ قَدِيْمٌ بَنَاهُ جَدُّنَا الْكَبِيْرُ مَضَىٰ عَلَيْهِ ثَلاَثُمِئَةِ سَنَةٍ ، وَيَدْخُلُ فِيْهِ الْمَاءُ فِيْ كُلِّ فَيضَانٍ وَيَمْكُثُ فِيْهِ الْمَاءُ أَيَّاماً طَوِيْلَةً ، وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَضْعُفْ.

* * *

(٢١)

تـرْنِـيْـمَـةُ الـلَّـيْـلِ

إنَّ الْفِــرَاشَ النَّــاعِمَــا فِيْـــهِ تَـنَـــامُ دَائِمَـــا
نَــمْ يَــا حبِيْبِــيْ آمِنــا نَــمْ آمِنــاً نَــمْ آمِنَــا
رَاحَ النَّهَــارُ وَاحْتَجَــبْ مَعَـــهُ الْعَنَـــاءُ وَالتَّعَـــبْ
وَاللَّيْــلُ بِــالأَمْــنِ اقْتَــرَبْ نَــمْ آمِنــاً نَــمْ آمِنــا
بَــاتَــتْ عَصَــافِيْــرُ الْغَــرَدْ فِــيْ حِفْـظِ مَـوْلاَنَـا الصَّمَـدْ
مَـنْ لَيْـسَ يَغْفُـلُ عَـنْ أَحَـدْ نَــمْ فِــيْ حِمَـــاهُ آمِنَــا
نَـمْ آمِنـاً حَتَّــى السَّحَـر مِــنْ كُـــلِّ ضَيْــمٍ أَوْ كَــدَرْ
نَـمْ فِـيْ حِمَـىٰ بـارِي البَشَـرْ نَــمْ فِـــيْ حِمَـــاهُ آمِنَــا

(مَدَارِجُ الْقِرَاءَةِ)

* * *

(٢٢)

مسَـابَـقَـةٌ بَـيْـنَ شَـقِـيْـقَـيْـنِ

قَالَ سَيِّـدُنَا عَبْدُ الرَّحْمٰنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: كُنْتُ وَاقِفاً يَوْمَ بَدْرٍ وَغُلَامَانِ مِنَ الأَنْصَارِ مُعَاذُ بْنُ عَفْرَاءَ وَمُعَوَّذُ بْنُ عَفْرَاءَ عَنْ يَمِيْنِيْ وَشِمَالِيْ.

وَالْتَفَتَ إِلَيَّ أَحَدُهُمَا، وَقَالَ لِيْ سِرّاً مِنْ صَاحِبِهِ: «أَيْ عَمِّ! هَلْ تَعْرِفُ أَبَا جَهْلٍ»؟

فَقُلْتُ: نَعَمْ! وَمَاذَا تُرِيْدُ مِنْهُ يَا بْنَ أَخِيْ؟

قَالَ: أُخْبِرْتُ أَنَّهُ يَسُبُّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ، أَرِنِيْهِ يَا عَمِّ! فَإِنِّي أَعْطَيْتُ اللهَ عَهْداً إِنْ رَأَيْتُهُ أَنْ أَقْتُلَهُ أَوْ أَمُوْتَ دُوْنَهُ.

وَقَـالَ لِيَ الآخَرُ سِـرّاً مِنْ صَاحِبِـهِ: أَرِنِيْـهِ يَا عَـمِّ! فَـإِنِّـيْ عَاهَدْتُ اللهَ إِنْ عَايَنْتُهُ أَنْ أَضْرِبَـهُ بِسَيْفِيْ حَتَّىٰ أَقْتُلَهُ.

فَبَيْنَا أَنَا كَذٰلِكَ إِذْ بَرَزَ أَبُوْ جَهْلٍ، فَقُلْتُ: أَلَا تَرَيَانِ؟ هذَا

أَبُوْ جَهْلٍ ، هٰذَا صَاحِبُكُمْ ، فَشَدَّا عَلَيْهِ مِثْلَ الصَّقْرَيْنِ حَتَّىٰ ضَرَبَاهُ .

ثُمَّ انْصَرَفَا إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرَاهُ .

فَقَالَ : «أَيُّكُمَا قَتَلَهُ ؟» .

قال كلٌّ منهما : أَنَا قَتَلْتُهُ .

قَالَ : «هَلْ مَسَحْتُمَا سَيْفَيْكُمَا»؟

قَالاَ : لاَ!

فَنَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ فِي السَّيْفَيْنِ .

فَقَالَ : «كِلاَهُمَا قَتَلَهُ» .

* * *

(٢٣)

جـزَاءُ الـوَالِـدَيْـنِ

وُلِدْتُّ صَغِيْراً ضَعِيْفاً لَا أَقْدِرُ عَلَىٰ عَمَلٍ ، لَا آكُلُ بِنَفْسِيْ وَلَا أَشْرَبُ بِنَفْسِيْ ، وَلَا أَتَكَلَّمُ وَلَا أَفْهَمُ ، فَحَنَتْ عَلَيَّ أُمِّيْ وَأَرْضَعَتْنِيْ وَنَسِيَتْ نَفْسَهَا لِنَفْسِيْ ، وَهَجَرَتْ رَاحَتَهَا لِرَاحَتِيْ ، فَكَمْ سَهِرَتِ اللَّيَالِيَ ، وَكَمْ تَعِبَتْ فِي النَّهَارِ ، وَكُنْتُ لَهَا شُغْلاً وَحَدِيْثاً ، وَإِذَا مَرِضْتُ طَارَ عَنْهَا النَّوْمُ ، وَمَا ذَاقَتْ طَعَاماً وَلَا شَرَاباً ، وَإِذَا سَكَتُّ اهْتَمَّتْ وَقَالَتْ : مَا بَالُكَ يَا بُنَيَّ! مَاذَا أَسْكَتَكَ؟ لِمَاذَا لَا تَـتَـكَلَّمُ ، أَتَشْكُوْ وَجَعاً أَوْ أَغْضَبَكَ أَحَدٌ؟ وَإِذَا بَكَيْتُ جَاءَتْ تَجْرِيْ ، وَفِيْ اللَّيْلِ تَـتَـكَلَّمُ مَعِيْ وَتُضَاحِكُنِيْ .

وَلَمَّا دَخَلْتُ فِي السَّنَةِ الْخَامِسَةِ كَانَتْ تَـتَحَدَّثُ مَعِيْ فِي اللَّيْلِ ، وَقَدْ عَرَفْتُ اللهَ وَرَسُوْلَهُ فِيْ حَدِيْثِهَا ، وَسَمِعْتُ قِصَصاً كَثِيْرَةً ، سَمِعْتُ مِنْهَا وَأَنَا عَلَىٰ فِرَاشِيْ قِصَّةَ إِبْرَاهِيْمَ ، وَكَيْفَ

أُلْقِيَ فِي النَّارِ ، فَصَارَتْ بَرْداً وَسَلاَماً ، وَكَيْفَ نَشَأَ مُوْسَىٰ فِيْ قَصْرِ فِرْعَوْنَ ، وَسَمِعْتُ قِصَّةَ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ وَقِصَّةَ حَلِيْمَةَ السَّعْدِيَّةِ وَقِصَصاً جَمِيْلَةً ، وَحَفِظْتُ آيَةَ الْكُرْسِيِّ وَالآيَاتِ الأَخِيْرَةَ مِنْ سُوْرَةِ الْبَقَرَةِ وَأَدْعِيَةً كَثِيْرَةً ، فَكُنْتُ عَالِمَ الأَطْفَالِ. وَكَانَ أَبِيْ يُحِبُّنِيْ كَثِيْراً ، وَكُنْتُ أَصْغَرَ إِخْوَتِيْ أَبِيْتُ مَعَهُ وَآكُلُ مَعَهُ ، وَإِذَا جَاءَ مِنْ سَفَرٍ اشْتَرَىٰ لِيْ هَدِيَّةً جَمِيْلَةً ، وَكَانَ النَّاسُ يُحِبُّوْنَنِيْ وَيُقَرِّبُوْنَنِيْ إِلَيْهِمْ لِمَكَانِيْ مِنْ أَبِيْ ، وَقَدْ قَرَأْتُ عَلَىٰ أَبِيْ أَيْضاً ، فَهُوَ لِيْ أَبٌ ومُعَلِّمٌ.

وَكَانَ يُوْصِيْ أُمِّي أَنْ تَكْسُوَنِيَ يَوْمَ الْعِيدِ لِبَاساً جَدِيْدَاً ، وَإِذَا مَرِضْتُ أَوْ سَقَطْتُ مِنْ مَكَانٍ أَوْ أَصَابَنِيْ ضَرَرٌ أَوْ أَلَمٌ وَجَاءَهُ الْخَبَرُ طَارَ نَوْمُهُ ، وَسَهِرَ اللَّيْلَ هَمّاً وَحُزْناً ، كَيْفَ أُجَازِيْ هذِهِ النِّعَمَ؟ هَلْ يُمْكِنُ أَنْ أُجَازِيَهُمَا بِمَالٍ؟ كَلاَّ! فَأَنَا ومَالِيْ لِوَالِدَيَّ ، نَعَمْ! أَنَا أَخْدِمُهُمَا بِالْمَالِ والْبَدَنِ ، بَل أَصِلُ أَصْدِقَاءَهُمَا وَأَقَارِبَهُمَا بِالْبِرِّ وَالْمَعْرُوفِ ، وَلٰكِنِّي سَأَدْعُوْ لَهُمَا ، وَأَقُوْلُ دَائِماً فِيْ دُعَائِيْ: «رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِيْ صَغِيْراً».

وَسَأَجْتَهِدُ إِنْ شَاءَ اللهُ أَنْ يَغْتَبِطا بِيْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمَامَ النَّاسِ وَأَمَامَ الآبَاءِ وَالأُمَّهَاتِ وَيَغْبِطُهُمَا أَصْحَابُ الأَوْلاَدِ وَيَقُوْلُوْنَ: يَا لَيْتَ لَنَا مِنَ الأَوْلاَدِ مِثْلَ مَا أُوْتِيَ فُلاَنٌ ، إِنَّهُ لَسَعِيْدٌ.

وَسَأَجْتَهِدُ أَنْ أَعْمَلَ عَمَلاً يُنَادِيْ بِيْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ رُؤُوسِ

الأَشْهَادِ فَيَقُوْلُ النَّاسُ: مَنْ هُوَ؟ فَيُقَالُ: ابْنُ فُلاَنٍ وَفُلاَنَةٍ ، فَيَغْتَبِطُ وَالِدَايَ وَيَنْعَمُ بَالِيْ.

وقَدْ سَمِعْتُ أَنَّ الوَلَدَ إِذَا حَفِظَ الْقُرْآنَ يُتَوَّج وَالِدَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَسَأَجْتَهِدُ فِيْ حِفْظِ الْقُرْآنِ لِيُتَوَّجَ وَالِدَايَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَقَدْ سَمِعْتُ أَنَّ الشَّهِيْدَ يَشْفَعُ لِسَبْعِيْنَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ ، وَلَعَلَّ اللهَ يَرْزُقُنِي الشَّهَادَةَ ، فَأَشْفَعُ لِوَالِدَيَّ قَبْلَ النَّاسِ ، وَبِذٰلِكَ أُجَازِيْ بَعْضَ نِعَمِهِمَا.

* * *

(٢٤)

أَدَبُ الأَكْـلِ وَالشُّرْبِ

كَانَ عُمَرُ بْنُ أَبِيْ سَلَمَةَ غُلَاماً صَغِيْراً وَكَانَ مَعَ أُمِّهِ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ، وَكَانَتْ أُمُّ سَلَمَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ تَـزَوَّجَهَا بَعْدَ وَفَاةِ أَبِيْ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، فَكَانَ عُمَرُ فِيْ حِجْرِ النَّبِيِّ ﷺ .

وَكَانَ عُمَرُ يَأْكُلُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ كَمَا يَأْكُلُ الْوَلَدُ الصَّغِيْرُ مَعَ أَبِيْهِ ، وَكَمَا تَأْكُلُ أَنْتَ مَعَ أَبِيْكَ وَأُمِّكَ .

وَكَانَ عُمَرُ غُلَاماً يَتِيْماً مَاتَ أَبُوْهُ وَهُوَ صَغِيْرٌ فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحِبُّهُ وَيُعَلِّمُهُ الأَدَبَ .

فَكَانَ يَأْكُلُ مَرَّةً مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَكَانَتْ يَدُهُ تَدُوْرُ فِي الصَّحْفَةِ وَكَانَ يَأْكُلُ مِنْ هُنَا وَهُنَا كَمَا يَأْكُلُ كَثِيْرٌ مِنَ الأَوْلَادِ .

فَعَلَّمَهُ النَّبِيُّ ﷺ كَيْفَ يَأْكُلُ وَقَالَ لَهُ: «سَمِّ اللهَ وَكُلْ مِمَّا يَلِيْكَ» .

وَهٰكَذَا يَنْبَغِيْ أَنْ يَأْكُلَ الْمُسْلِمُ ، فَيُسَمِّي اللهَ وَيَأْكُلُ بِيَمِيْنِهِ وَيَأْكُلُ مِمَّا يَلِيْهِ.

وَهٰكَذَا عَلَّمَ النَّبِيُّ ﷺ أُمَّتَهُ أَدَبَ الأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَأَدَبَ كُلِّ شَيْءٍ ، كَمَا عَلَّمَ عُمَرَ بْنَ أَبِيْ سَلَمَةَ الصَّغِيْرَ وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّماً».

وَقَدْ أَدَّبَ اللهُ النَّبِيَّ ﷺ وَعَلَّمَهُ أَدَبَ كُلِّ شَيءٍ فَقَالَ: «أَدَّبَنِيْ رَبِّيْ فَأَحْسَنَ تَأْدِيْبِيْ».

وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: مَا عَابَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ طَعَاماً قَطُّ ، إِنِ اشْتَهَاهُ أَكَلَهُ وَإِنْ كَرِهَهُ تَرَكَهُ.

وَقَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: «أَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ وَآكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ ، وَقَالَ: لَا آكُلُ مُتَّكِئاً».

وَعَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ يَأْكُلُ بِثَلَاثَةِ أَصَابِعَ وَإِذَا فَرَغَ لَعِقَهَا.

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ إِذَا أَكَلَ طَعَاماً لَعِقَ أَصَابِعَهُ الثَّلَاثَ ، وَقَالَ: «إِذَا سَقَطَتْ لُقْمَةُ أَحَدِكُمْ فَلْيَأْخُذْهَا وَلْيُمِطْ عَنْهَا الأَذَىٰ وَلْيَأْكُلْهَا ، وَلَا يَدَعْهَا لِلشَّيْطَانِ ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَسْلُتَ الْقَصْعَةَ ، وَقَالَ: إِنَّكُمْ لَا تَدْرُوْنَ فِيْ أَيِّ طَعَامِكُمُ البَـرَكَةُ».

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ كَانَ يَتَنَفَّسُ فِي الشَّرَابِ ثَلاَثاً.

وَعَن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَىٰ أَنْ يُتَنَفَّسَ فِي الإِنَاءِ أَوْ يُنْفَخَ فِيْهِ.

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ نَهَىٰ عَنِ الشُّرْبِ قَائِماً.

وَعَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَانَا عَنِ الْحَرِيْرِ وَالدِّيْبَاجِ وَالشُّرْبِ فِيْ آنِيَةِ الذَّهَبِ والْفِضَّةِ، وَقَالَ: «هِيَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَهِيَ لَكُمْ فِي الآخِرَةِ».

* * *

(٢٥)

شـــرٌّ وَخَـيْـــرٌ

شـــرُّ الْمَقَـــالِ الْكَـــذِبُ ... خَيْـــرُ الْخِصَـــالِ الأَدَبُ
الْبُخْـــلُ عَيْـــبٌ فَـــاضِـــحُ ... وَالْجُـــوْدُ سِتْـــرٌ صَـــالِـــحُ
الْعَقْـــلُ قَـــاضٍ عَـــادِلُ ... وَالْعُجْـــبُ دَاءٌ قَـــاتِـــلُ
الْعُمْـــرُ ضَيْـــفٌ رَاحِـــلُ ... والْمَـــالُ ظِـــلٌّ زَائِـــلُ
الْبِـــرُّ لِلْحُـــبِّ سَبَـــبْ ... إِنَّ الْبَخِيْـــلَ لاَ يُحَـــب
طَهَـــارَةُ الأَخْـــلاَقِ ... مِـــنْ كَـــرَمِ الأَعْـــرَاقِ
الْكِـــذْبُ وَالنَّمِيْمَـــةْ ... وَالْغَـــدْرُ شَـــرُّ شِيْمَـــةْ
تَـــأَنَّ فِـــي الأُمُـــوْرِ ... لاَ سِيَّمَـــا السُّـــرُوْرِ
وَاعْجَـــلْ إِلَـــى الْخَيْـــرَاتِ ... مِـــنْ حَـــذَرِ الْفَـــوَاتِ
مَـــالَـــكَ غَيْـــرُ نَفْسِكَـــا ... لاَ تَـــكُ عَنْهَـــا مُمْسِكَـــا

(أَبو الـعَتَـاهِيَـةِ)

* * *

(٢٦)
يــوْمٌ مَـطِيْـــرٌ

نَـزَلَ الْمَطَرُ فِي اللَّيْلِ وَسَالَتِ الطُّرُقُ وَالشَّوَارِعُ ونَشَأَ وَحْلٌ كَثِيْرٌ زَلِقَ بِهِ النَّاسُ وَتَوَسَّخَتِ الثِّـيَـابُ ، وَإِذَا سَارَتْ سَيَّارَةٌ تَطَايَـرَ الْمَاءُ .

انْقَطَعَ الْمَطَرُ فِي الصَّبَاحِ وَأَمِنَ النَّاسُ ، خَرَجُوْا يَمْشُوْنَ عَلَى الشَّوَارِعِ وَقَدْ تَوَسَّخَتْ ثِيَابُهُمْ بِالْوَحَلِ ، وَزَلَقَ بَعْضُ النَّاسِ عَلَى الشَّارِعِ وَسَقَطَ فِي الْوَحْلِ وَضَحِكَ النَّاسُ وَضَحِكَ الرَّجُلُ وَتَوَسَّخَتْ ثِيَابُهُ جِدًّا .

وَكَانَ النَّاسُ يَمْشُوْنَ مُطْمَئِنِّيْنَ إِذْ جَاءَ الْمَطَرُ عَلَىٰ غَفْلَةٍ فَابْتَلَّتِ الـثِّـيَابُ ، وَكَانَ بَعْضُ الْعُقَلَاءِ قَدْ أَخَذُوْا مَعَهُمُ الْمَطَرِيَّاتِ فَـنَشَرُوْهَا ، وَكُنْتُ تَرَكْتُ مَطَرِيَّـتِي فِي الْبَيْتِ وَظَنَنْتُ أَنَّ المَطَرَ قَدِ انْقَطَعَ فَتَأَسَّفْتُ جِدًّا وَجَرَيْتُ وَرَجَعْتُ إِلَىٰ الْبَيْتِ وَقَدِ ابْتَلَّتْ ثِيَابِيْ .

وَلَمْ تَطْلُع الشَّمْسُ طُوْلَ النَّهَارِ وَلَمْ يَـزَلْ فِي السَّمَاءِ غَيْمٌ وَلَمْ يَخْرُجْ مِنَ الْبَيْتِ إِلاَّ ذُو حَاجَةٍ ، وَسَئِمْتُ الْجُلُوْسَ فِي الْبَيْتِ فَخَرَجْتُ فِي الْعَصْرِ وَأَخَذْتُ الْمَطْرِيَّـةَ مَعِيْ وَذَهَبْتُ إِلَىٰ صَدِيْقِيْ مَسْعُوْدٍ ، فَوَجَدْتُـهُ يُطَالِعُ كِتَاباً.

قُلْتُ لَهُ: أَلاَ تَخْرُجُ يَا أَخِيْ نَـتَـنَـزَّهُ وَنَمْشِيْ قَلِيْلاً ، أَمَا سَئِمْتَ الْجُلُوْسَ؟

قَالَ مَسْعُوْدٌ: أَلاَ تَرَىٰ إِلَىٰ السَّمَاءِ وَإِلَىٰ الأَرْضِ؟ أَلاَ تَرَىٰ إِلَىٰ الْوَحَلِ؟ هذَا لَيْسَ يَوْمَ الْخُرُوْجِ مِنَ الْبَيْتِ ، فَـتَـفَضَّلْ وَتَعَشَّ مَعِيْ.

قُلْتُ: أَمَّا الْجُلُوسُ فَـنَـعَمْ! وَأَمَّا الْعَشَاءُ فَلاَ ، فَإِنِّي أُرِيْدُ أَنْ أَرْجِعَ إِلَىٰ الْبَيْتِ سَرِيْعاً فَلَسْنَا نَدْرِيْ مَتَىٰ تُمْطِرُ السَّمَاءُ.

وَجَلَسْتُ مَعَ صَدِيْقِيْ مَسْعُودٍ قَلِيْلاً ، ثُمَّ سَئِمْتُ الْجُلُوْسَ وَالْغَيْمَ ، فَاسْتَـأْذَنْـتُهُ وَخَرَجْتُ إِلَىٰ الشَّـارِعِ وَجَاءَتْ سَيَّـارَةٌ فَمَرَّتْ بِيْ وَتَطَايَـرَ الْمَاءُ وَالْوَحْلُ وَتَوَسَّخَتْ ثِيَابِيْ ، وَمَشَيْتُ قَلِيْلاً وَرَجَعْتُ إِلَـىٰ الْبَيْتِ ، ومَا دَخَلْتُ الْبَيْتَ وَمَا وَضَعْـتُ الْمَطْرِيَّةَ حَتَّىٰ جَاءَ الْمَطَرُ ، فَحَمِدْتُّ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ وَصَلْتُ إِلَـىٰ الْبَيْتِ.

وَتَعَشَّيْتُ وَصَلَّيْتُ الْعِشَاءَ وَنِمْتُ وَمَا عَلِمْتُ مَتَىٰ انْقَطَعَ الْمَطَرُ .

وَكَانَتِ الأَمْطَارُ فِيْ هذِهِ السَّنَةِ كَثِيْرَةً وَقَدْ فَاضَتْ أَنْهَارٌ وَجَاءَ السَّيْلُ وَتَهَدَّمَتْ بُيُوْتٌ كَثِيْرَةٌ .

* * *

(٢٧)

البَرِيْدُ

(١)

خَالِدٌ: مَاذَا تَكْتُبُ يَا طَارِقُ؟

طَارِقٌ: أَنَا أَكْتُبُ كِتَاباً إِلَىٰ أَخِيْ عَامِرٍ.

خَالِدٌ: سَمِعْتُ أَنَّهُ فِيْ دِهْلِي فَهَلْ أَحَدٌ مُسَافِرٌ؟

طَارِقٌ: لَا بَلْ يُسَافِرُ كِتَابِيْ.

خَالِدٌ: كَيْفَ يُسَافِرُ كِتَابُكَ يَا طَارِقُ؟

طَارِقٌ: أَنَا أَكْتُبُ الْكِتَابَ ثُمَّ أَضَعُهُ فِي الْغِلَافِ وَأَكْتُبُ عَلَىٰ الْغِلَافِ عُنْوَانَ أَخِيْ ثُمَّ أُرْسِلُهُ، اُنْظُرْ هٰذَا غِلَافُ الْبَرِيْدِ.

خَالِدٌ: وَمَا هٰذَا الشَّكْلُ فِيْ جَانِبِ الْغِلَافِ يَا طَارِقُ؟

طَارِقٌ: هٰذَا طَابِعُ الْبَرِيْدِ، وَإِذَا أَرَدتُّ أَنْ أَكْتُبَ بِطَاقَةً أَكْتُبُ

الْعُنْوَانَ عَلَىٰ وَجْهِ الْبِطَاقَةِ . أُنْـظُـرْ هٰذِهِ بِطَاقَةٌ وَفِيْ جَانِبِهَا طَابِعُ الْبَرِيْدِ.

خَالِدٌ: وَمَا هٰذِهِ الصُّوْرَةُ يَا طَارِقُ! هٰذِهِ صُوْرَةُ إِنْسَانٍ وَقَدْ سَمِعْتُ أَنَّ صُوْرَةَ ذِيْ رُوْحٍ لاَ تَجُوْزُ فِي الإِسْلاَمِ.

طارِقٌ: نَعَمْ! إِذَا كَانَتْ حُكُوْمَةٌ إِسْلاَمِيَّةٌ صَحِيْحَةٌ لَمْ تكُنْ صُوْرَةٌ عَلَىٰ غِلاَفِ الْبَرِيْدِ وَالْبِطَاقَةِ.

خَالِدٌ: ثُم مَاذَا تَفْعَلُ يَا أَخِيْ إِذَا كَتَبْتَ الْعُنْوَانَ؟

طَارِقٌ: أَضَعُ الْكِتَابَ فِيْ صُنْدُوْقِ الْبَرِيْدِ.

خَالِدٌ: وَمَا صُنْدُوْقُ الْبَرِيْدِ؟

طَارِقٌ: هَلْ رَأَيْتَ صُنْدُوْقاً أَحْمَرَ لَهُ فَمٌ فِيْ مَكْتَبِ الْبَرِيْدِ وَعَلَىٰ الشَّوَارِعِ؟

خَالِدٌ: نَعَمْ! رَأَيْتُهُ كَثِيْراً. وَمَنْ يَأْخُذُ هذَا الْكِتَابَ مِنْ صُنْدُوْقِ الْبَرِيْدِ وَكَيْفَ يَـصْنَعُ؟

طَارِقٌ: يَحْمِلُ السَّاعِيْ الْكُتُبَ إِلَىٰ مَكْتَبِ الْبَرِيْدِ فَيُفْرِزُهَا رَجُلٌ مِنْ رِجَالِ الْبَرِيْدِ ، هٰذَا إِلَىٰ دِهْلِيْ وَذٰلِكَ إِلَىٰ كَلْكُتَّا ، وَهٰذَا إِلَىٰ الشَّرْقِ وَذٰلِكَ إِلَىٰ الْغَرْبِ وَيَخْتِمُهَا.

خالد: ثُمَّ مَاذَا؟

طارِقٌ: ثُمَّ تُحْمَلُ هٰذِهِ الْكُتُبُ إِلَى الْمَحَطَّةِ ثُمَّ تُوْضَعُ عَلَىٰ

الْقِطَارِ ، وَيَحْمِلُهَا الْقطَارُ إِلَىٰ مَكَانِهَا ، فَكِتَابُ دِهْلِيْ يُسَافِرُ بِهِ قِطَارُ دِهْلِيْ إِلَىٰ دِهْلِيْ ، وَكِتَابُ كَلْكُتَّا يُسَافِرُ بِهِ قِطَارُ كَلْكُتَّـا إِلَىٰ كَلْكُتَّـا .

خَالِدٌ: وَهَلْ يَحْضُرُ أَخُوْكَ إِلَىٰ مَحَطَّةِ دِهْلِيْ وَيَأْخُذُ كِتَابَهُ؟ وَهَلْ يَعْرِفُهُ نَاظِرُ الْمَحَطَّةِ؟

طَارِقٌ: لاَ يَحْتَاجُ أَخِيْ إِلَىٰ هٰذَا التَّعَبِ ، بَلْ إِذَا وَصَلَ الْكِتَابُ إِلَىٰ مَحَطَّةِ دِهْلِيْ يُنْقَلُ مِنَ الْمَحَطَّةِ إِلَىٰ مَكْتَبِ الْبَرِيْدِ.

خَالِدٌ: فَيَحْضُرُ أَخُوْكَ إِلَىٰ مَكْتَبِ الْبَرِيْدِ وَيَأْخُذُ رِسَالَتَهُ مِنْ مُدِيْرِ الْبَرِيْدِ؟

طَارِقٌ: لاَ تَعْجَلْ يَا أَخِيْ! أَنَا أُخْبِرُكَ بِخَبَرِ الْكِتَابِ ، إِذَا وَصَلَ الْكِتَابُ إِلَىٰ مَكْتَبِ الْبَرِيْدِ يُفْرَزُ وَيُخْتَمُ هُنَالكَ أَيْضاً حَتَّى يُعْرَفَ مَتَىٰ وَصَلَ الْكِتَابُ إِلَىٰ دِهْلِيْ ، وَبَعْدَ ذٰلِكَ يَأْخُذُهُ السَّاعِيْ وَيَحْمِلُهُ إِلَىٰ أَخِيْ.

* * *

(٢٨)

البريد

(٢)

خَالِدٌ: وَكَيْفَ يَكُوْنُ السَّاعِيْ يَا طَارِقُ؟ أَنَا مَا رَأَيْتُهُ قَطُّ؟

طَارِقٌ: أَمَا رَأَيْتَ رَجُلاً يَرْتَدِيْ حُلَّةً لَوْنُهَا رَمَادِيٌّ فِيْهَا أَزْرَارٌ نُحَاسِيَّةٌ وعَلَىٰ رَأْسِهِ عِمَامَةٌ يَحْمِلُ حَقِيْبَةً مِنْ جِلْدٍ؟

خَالِدٌ: نَعَمْ! قَدْ رَأَيْتُهُ وَرَأَيْتُ حَقِيْبَةً وَهِيَ مَلآنَةٌ بالأَوْرَاقِ، وَأَزْرَارُهُ النُّحَاسِيَّةُ تَلْمَعُ وَعِمَامَتُهُ تَظْهَرُ مِنْ بَعِيدٍ.

طَارِقٌ: ذٰلِكَ هُوَ سَاعِي الْبَرِيْدِ يَا خَالِدُ! وَالنَّاسُ يَنْتَظِرُوْنَهُ جِدّاً وَيَشْتَاقُوْنَ إِلَيْهِ خُصُوْصاً فِي الْقُرَىٰ، وَأَنْتَ تَنْتَظِرُهُ أَيْضاً إِذَا كَتَبْتَ كِتَاباً وَانْتَظَرْتَ جَوَابَهُ وَإِذا طَلَبْتَ كِتَاباً مِنْ تَاجِرِ كُتُبٍ.

خَالِدٌ: وَرَأَيْتُ يَا طَارِقُ رَجُلاً آخَرَ يَرْتَدِيْ مِثْلَ حُلَّةِ السَّاعِيْ وَلَهُ أَزْرَارٌ نُحَاسِيَّةٌ وَعَلَىٰ رَأْسِهِ عِمَامَةٌ أَيْضاً وَلٰكِنْ لَيْسَ عِنْدَهُ

حَقِيْبَةٌ مِنْ جِلْدٍ ، وَهُوَ عَلَىٰ دَرَّاجَةٍ حَمْرَاءَ أَرَاهُ يَذْهَبُ بِسُرْعَةٍ كَأَنَّهُ مُسْتَعْجِلٌ.

طَارِقٌ: هَوَ أَيْضاً سَاعِي الْبَرِيْدِ وَلٰكِنَّهُ لاَ يُوَزِّعُ الْكُتُبَ بَلْ يُوَزِّعُ الْبَرْقِيَّاتِ وَيَذْهَبُ عَلَىٰ دَرَّاجَةٍ حَمْرَاءَ مِنْ مَكَانٍ إِلَىٰ مَكَانٍ لِيَصِلَ سَرِيْعاً ، فَإِنَّ النَّاسَ لاَ يُرْسِلُونَ الْبَرْقِيَّةَ إِلاَّ لِتَصِلَ سَرِيْعَةً ، وَالنَّاسُ يَعْرِفُوْنَهُ بِدَرَّاجَتِهِ الْحَمْرَاءِ.

خَالِدٌ: وَلٰكِنْ كَيْفَ يَقْدِرُ رَجُلٌ وَاحِدٌ أَنْ يُوَزِّعَ الْكُتُبَ فِيْ جَمِيْعِ أَنْحَاءِ الْمَدِيْنَـةِ ؟

طَارِقٌ: لاَ! فِيْ مَكْتَبِ الْبَرِيْدِ رِجَالٌ كَثِيْرٌ وَلِكُلِّ نَاحِيَةٍ مِنْ أَنْحَاءِ الْمَدِيْنَةِ وَلِكُلِّ حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْبَلَدِ سَاعٍ.

خَالِدٌ: وَكَيْفَ يُنْفِقُ مَكْتَبُ الْبَرِيْدِ الأَمْوَالَ الْكَثِيْرَةَ وَكَيْفَ يَخْدِمُ مَجَّاناً؟ وَرِجَالُ الْبَرِيْدِ يَرْتَدُوْنَ حُلَلاً وَيَحْمِلُوْنَ حَقَائِبَ وَيَرْكَبُونَ دَرَّاجَاتٍ ، فَمِنْ أَيْنَ تَأْتِيْ هٰذِهِ الأَمْوَالُ؟

طَارِقٌ: إِنَّ مَكْتَبَ الْبَرِيْدِ يَأْخُذُ أُجْرَةً مِنَ كُلِّ مَنْ يُرْسِلُ كِتَاباً بِالبَرِيْدِ.

خَالِدٌ: وَمَا هٰذِهِ الأُجْرَةُ وَمَتَىٰ تَدْفَعُهَا يَا أَخِيْ؟

طَارِقٌ: قَدِ اشْتَرَيْتُ هٰذَا الطَّابِعَ مِنْ مَكْتَبِ الْبَرِيدِ وَهٰذِهِ هِيَ أُجْرَةُ الْبَرِيْدِ.

خَالِدٌ: أَشْكُرُكَ عَلَىٰ هٰذَا الْحَدِيْثِ الْمُفِيْدِ ، وَسَأَكْتُبُ إِلَىٰ أخِيْ وَصَدِيْقِيْ جَمِيْل ، وَسَأُرْسِلُ الْكِتَابَ بِالْبَرِيْدِ ، وَإِذَا كَتَبْتُ الْكِتَابَ جِئْتُكَ بِهِ فَتَرَاهُ وَتُصْلِحُهُ.

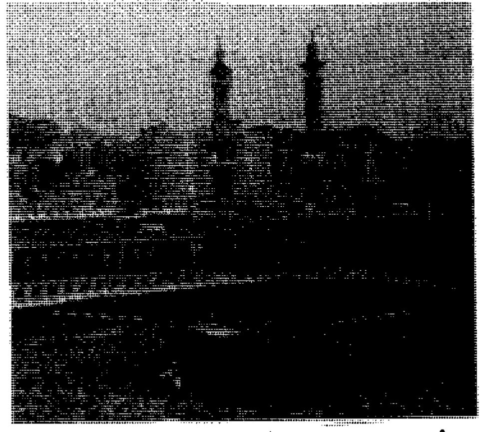
طَارِقٌ: حُبّاً وَكَرَامَةً ، يَسُرُّنِيْ أَنْ أُسَاعِدَكَ.

❊ ❊ ❊

(٢٩)

مَنْ يَضَعُ الْحَجَرَ؟

(١)



إِنَّكُمْ لَتَعْرِفُوْنَ هذَا الْبِنَاءَ ، وَمَنْ فِي الدُّنْيَا لاَ يَعْرِفُ هذَا الْبِنَاءَ؟ إِنَّكُمْ تَتَوَجَّهُوْنَ إِلَيْهِ فِي الصَّلاَةِ ، وَيُسَافِرُ إِلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَيَطُوْفُوْنَ فِي الْحَجِّ.

الْكَعْبَةُ أَوَّلُ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لِعِبَادَةِ اللهِ ، بَنَاهَا إِبْرَاهِيْمُ

خَلِيْلُ اللهِ فِيْ مَكَّةَ وَفِيْهَا حَجَرٌ أَسْوَدُ يُقَبِّلُهُ النَّاسُ فِي الْحَجِّ وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُـقَبِّلُهُ.

وَبَعْدَ زَمَنٍ طَوِيْلٍ أَرَادَ أَوْلاَدُ إِبْرَاهِيْمَ وَهُمْ قُرَيْشٌ أَنْ يَبْنُوْا بِنَاءَ الْكَعْبَةِ مِنْ جَدِيْدٍ فَإِنَّهُ كَانَ بِنَاءً قَدِيْماً قَدْ سَقَطَ سَقْفُهُ ، وَضَعُفَتْ جِدْرَانُهُ ، فَجَمَعَتْ قُرَيْشٌ الْحِجَارَةَ وَالْخَشَبَ لِبِنَائِهَا وَبَنَتْ قُرَيْشٌ بِنَاءَ الْكَعْبَةِ مِنْ جَدِيْدٍ.

وَلَمَّا تَـمَّ بِنَـاءُ الْكَعْبَـةِ أَرَادَتْ قُرَيْشٌ أَنْ تَضَـعَ الْحَجَـرَ الأَسْوَدَ فِيْ مَحَلِّـهِ فَاخْتَصَمَتْ قُرَيْشٌ فِـيْ وَضْـعِ الْحَجَرِ الأَسْـوَدِ فِيْ مَحَلِّـهِ ، كُلُّ قَبِيْلَـةٍ تُرِيْدُ أَنْ تَرْفَعَـهُ إِلَـىٰ مَوْضِعِهِ لأَنَّـهُ شَرَفٌ عَظِيْمٌ ، كُلُّ قَبِيْلَةٍ حَرِيْصَةٌ عَلَىٰ أَنْ تَـنَـالَ هٰذَا الشَّرَفَ.

كُلُّ قَبِيْلَةٍ حَرِيْصَة عَلَىٰ أَنْ تَـنَـالَ هٰذَا الشَّرَفَ وَلٰكِنَّ ذٰلِكَ لاَ يُمْكِنُ لأَنَّ الْحَجَرَ وَاحِدٌ وَالْقَبَائِلَ كَثِيْرَةٌ.

وَاخْتَلَفَتْ قُرَيْشٌ كَثِيْراً وَتَـنَـازَعَتْ وَكَانَ الْعَرَبُ يُقَاتِلُوْنَ لأَدْنَىٰ شَيْءٍ وَلِغَيْرِ شَيْءٍ ، يَتَقَدَّمُ فَرَسٌ فَيُقَاتِلُوْنَ ، وَيَسْبِقُ أَحَدٌ فَيَسْقِيْ فَرَسَهُ أَوْ بَعِيْرَهُ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُوْنَ ، وَلاَ يَزَالُوْنَ يُقَاتِلُوْنَ أَرْبَعِيْنَ سَنَةً وَخَمْسِيْنَ سَنَةً ، فَلِمَاذا لاَ يُقَاتِلُوْنَ عَلَىٰ هٰذَا الشَّرَفِ؟ وَإِنَّهُ لَشَرَفٌ عَظِيْمٌ.

وَقَرَّبَتْ قَبِيْلَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ جَفْنَةً مَمْلُوءَةً دَماً ثُمَّ تَحَالَفَتْ مَعَ قَبِيْلَةٍ

أُخْرَىٰ عَلَىٰ الْمَوْتِ وَأَدْخَلُوْا أَيْدِيَهُمْ فِيْ ذٰلِكَ الدَّمِ وَقَالُوا: لا نَتْرُكُ هٰذَا الشَّرَفَ أَوْ نَمُوْتَ.

وَكَانَ هٰـذَا شَرّاً كَبِيْراً وَخَطَـراً عَظِيْمـاً وَالْمَوْتُ شَيْءٌ هَيِّـنٌ لِلْعَرَبِ فِيْ سَبِيْلِ الْحَقِّ وَالشَّرَفِ.

إِذاً لا بُدَّ مِنَ الْحَرْبِ، وَالْحَرْبُ مَشْؤُومَةٌ جِدّاً.

* * *

(٣٠)

مَـنْ يَـضَـعُ الْـحَجَـرَ؟

(٢)

وَمَكَثَتْ قُرَيْشٌ عَلَىٰ ذٰلِكَ أَرْبَعَ لَيَالٍ أَوْ خَمْساً ثُمَّ إِنَّهُمُ اجْتَمَعُوا فِي الْمَسْجِدِ وَتَشَاوَرُوا.

تَشَاوَرُوا وَقَالُوا: مَنْ يَضَعُ الْحَجَرَ الأَسْوَدَ فِيْ مَحَلِّه؟ كُلُّ قَبِيْلَةٍ حَرِيْصَةٌ عَلَىٰ أَنْ تَنَالَ هٰذَا الشَّرَفَ، وَالْحَجَرُ وَاحِدٌ، وَالْقَبَائِلُ كَثِيْرَةٌ.

إِذاً لاَ بُدَّ مِنَ الْحَرْبِ وَالْحَرْبُ مَشْؤُومَةٌ جِدّاً.

قَالَ بَعْضُ النَّاسِ: لاَ بَأْسَ بِالْحَرْبِ فَالْمَوْتُ شَيْءٌ هَيِّنٌ لِلْعَرَبِ فِيْ سَبِيْلِ الْحَقِّ والشَّرَفِ.

قَالَ العُقَلاَءُ: نَعَمْ! لاَ بَأْسَ بِالْحَرْبِ وَلٰكِنْ لاَ حَاجَةَ إِلَىٰ الحَرْبِ فِي هذَا الْوَقْتِ.

ولٰكِنْ مَا هُوَ الطَّرِيْقُ؟ وَكَيْفَ يُوْضَعُ الْحجَرُ الأَسْوَدُ فِي مَحَلِّه بِغَيْرِ قِتَالٍ؟

تَشَاوَرُوْا وَتَشَاوَرُوْا وَتَشَاوَرُوْا كَثِيراً وَوَجَدُوْا الطَّرِيْقَ.

قَالَ شَيْخٌ وَكَانَ أَكْبَرَهُمْ سِنّاً: أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ مِنْ بَابِ هٰذَا الْمَسْجِدِ يَقْضِيْ بَيْنكُمْ، فَقَبِلُوْا وَرَضُوْا بِذٰلِكَ.

تَعْرِفُوْنَ مَنْ كَانَ أَوَّلَ دَاخِلٍ؟ كَانَ أَوَّلَ دَاخِلٍ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا: هذَا الأَمِيْنُ رَضِيْنَا، هٰذَا مُحَمَّدٌ!

فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهِمْ وَأَخْبَرُوْهُ الْخَبَرَ طَلَبَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ ثَوْباً فَأُتِيَ بِهِ، فَأَخَذَ الْحَجَرَ الأَسْوَدَ فَوَضَعَهُ فِيْهِ بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ:

لِتَأْخُذْ كُلُّ قَبِيْلَةٍ بِنَاحِيَةٍ مِنَ الثَّوْبِ ثُمَّ ارْفَعُوْهُ جَمِيْعاً، فَفَعَلُوْا حَتَّى إِذا بَلَغُوا مَوْضِعَهُ وَضَعَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ الْحَجَرَ الأَسْوَدَ فِيْ مَحَلِّهِ بِيدِهِ، وَهٰكَذَا دَفَعَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ هٰذَا الشَّرَّ وَمَنَعَ الْحَرْبَ.

* * *

(٣١)

يـوْمُ الْـعِيْــدِ

كانَ أَمْسِ يَوْمُ الْعِيْدِ ، اجْتَمَعَ النَّاسُ وَالأَطْفالُ عِنْدَ الْغُرُوبِ يَتَراءَوْنَ الْهِلاَلَ ، وَصَعِدُوا عَلَىٰ سُقُوفِ الْبُيُوتِ وَالسُّطُوحِ وَعَلَىٰ المَنَارَاتِ .

ظَهَرَ الْهِلاَلُ فَهَتَفَ الأَوْلاَدُ: «الْهِلاَلُ ، الْهِلاَلُ» وَجَرَوْا إِلَىٰ بُـيُوْتِهِمْ وَسَلَّمُوْا عَلَىٰ آبائِهِمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ وَعَلَىٰ الأَقَارِبِ ، فَدَعَوْا لَهُمْ بِالْبَرَكَةِ وَطُوْلِ الْعُمُرِ .

وَنَامَ الأَطْفَالُ لَيْلَـةَ الْعِيْدِ قَلِيْـلاً ، وَاسْتَيْقَظُوْا مُبَكِّرِيْنَ وَقَـدْ نَظَرُوْا إِلَىٰ مَلاَبِسِهِـمْ وَأَحْذِيَتِهِمْ وَقَلاَنِسِهِمْ مِراراً عَدِيْدَةً .

وَلَمَّا كَـانَ صَبَاحُ الْعِيْدِ قَامُـوا مِنْ فُرُشِهِمْ وَصَلَّـوُا الصُّبْـحَ وَاغْتَسَلُوْا وَغَيَّـرُوْا مَلاَبِسَهُمْ ، وَلَبِسَ كَثِيْـرٌ مِنْهُمْ مَلاَبِـسَ جَدِيْدَةً وَأَحْذِيَـةً جَدِيْدَةً وَقَلاَنِسَ جَمِيْلَـةً ، وَرَأَتْهُـمْ أُمَّهَاتُهُمْ فَفَرِحْـنَ

بِهِمْ ، وَقَدَّمَ لَهُمْ آبَاؤُهُمْ وَأَقَارِبُهُمْ جَائِزَةَ الْعِيْدِ.

وَكَانَ وَلَدٌ يَتِيْمٌ تَخْدِمُ أُمُّهُ فِيْ بَيْتٍ سَعِيدٍ وَلَيْسَ عِنْدَهُ لِبَاسٌ جَدِيْدٌ وَلاَ حِذَاءٌ جَدِيْدٌ وَلاَ قَلَنْسُوَةٌ نَظِيْفَةٌ ، فَاغْتَسَلَ وَلَبِسَ لِبَاسَهُ الْقَدِيْمَ وَقَدْ تَشَقَّقَ ، وَلَبِسَ قَلَنْسُوَتَهُ الْقَدِيْمَةَ وَقَدْ تَوَسَّخَتْ ، وَكَانَ يَنْظُرُ إِلَىٰ أَتْرَابِهِ وَإِلَىٰ أَوْلاَدِ الأَغْنِيَاءِ بِغِبْطَةٍ وَخَجَلٍ ، وَكَانَتْ أُمُّهُ مَحْزُونَةً تَذْكُرُ أَبَاهُ.

حَزِنَ سَعِيدٌ بِهذَا الْمَنْظَرِ وَاسْتَحَىٰ فِيْ نَفْسِهِ فَأَسْرَعَ إِلَىٰ صُنْدوْقِهِ وَأَهْدَىٰ إِلَيْهِ مَلْبُوساً نَظِيْفاً وَقَلَنْسُوَةً نَظِيْفَةً ، فَذَهَبَ الْيَتِيْمُ وَغَيَّرَ اللِّبَاسَ وَفَرِحَ كَثِيْراً وَفَرِحَتْ أُمُّهُ ، وَدَعَتْ لِسَعِيْدٍ بِالبَرَكَةِ وَطُوْلِ الْعُمُرِ.

وَلَمَّا ارْتَفَعَتِ الشَّمْسُ خَرَجَ النَّاسُ إِلَىٰ الْمُصَلَّىٰ وَكَانَ مَنْظَراً جَمِيْلاً يَقُوْلُوْنَ: «اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ ، لاَ إِلٰهَ إِلَّا اللهُ ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ ، وللهِ الْحَمْدُ».

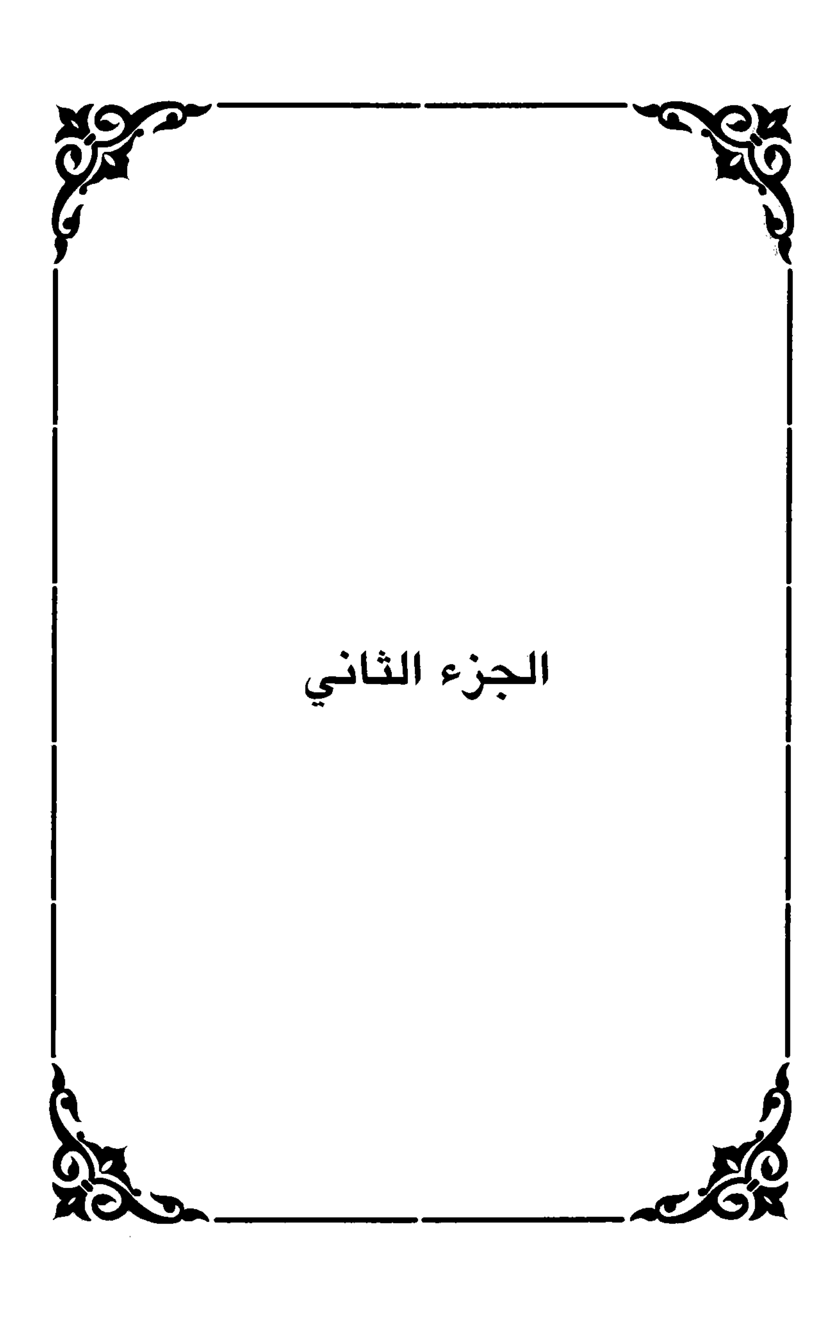
وَصَلَّىٰ الإِمَامُ بِالنَّاسِ ، ثُمَّ خَطَبَ ، وَرَجَعَ النَّاسُ مِنَ الْمُصَلَّىٰ بِطَرِيْقٍ آخَرَ ، وَزَارَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً وَضَيَّفَ بَعْضُهُمْ أَصْدِقَاءَهُمْ ، وَهَنَّأَ كُلُّ مُسْلِمٍ صَدِيْقَهُ وَقَالَ: «عِيْدٌ سَعِيْدٌ» كُلَّ عَامٍ وَأَنْتُمْ بِخَيْرٍ.

وَكَانَ صَبَاحُ الْعِيْدِ جَمِيْلاً ، وَفِي الْعَصْرِ ذَكَرَ النَّاسُ رَمَضَانَ

وَفُطُوْرَهُ ، وَفِي اللَّيْلَ ذَكَرُوا التَّرَاوِيحَ ، وَشَعَرَوْا كَأَنَّهُمْ فَقَدُوْا شَيْئاً أَوْ ضَاعَ مِنْهُمْ شَيْءٌ ، وَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ :

«الْعِيْدُ سَاعَاتٌ وَرَمَضَانُ كُلُّهُ عِيْدٌ» .

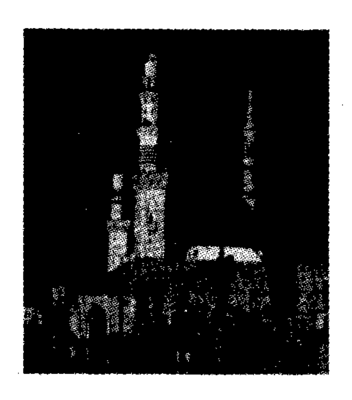
* * *



الجزء الثاني

(٣٢)

شَهَامَةُ الْيَتِيْمِ



تَـرَوْنَ أَمَامَكُمْ صُوْرَةَ مَسْجِدٍ ، هٰذَا مَسْجِدُ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْمَدِيْنَةِ الْمُنَوَّرَةِ ، هَلْ تَعْرِفُوْنَ مِنْ خَبَرِ هٰذَا الْمَسْجِدِ شَيْئاً؟ إِنَّ لَهُ تَارِيْخاً يَغْتَبِطُ بِهِ كُلُّ طِفْلٍ مُسْلِمٍ.

لَمَّا دَعَا رَسُوْلُ اللهِ ﷺ النَّاسَ إِلَىٰ اللهِ فِيْ مَكَّةَ ، وَنَادَىٰ فِي النَّاسِ «لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُوْلُ اللهِ» غَضِبَتْ قُرَيْشٌ وَكَانَتْ

تَعْبُدُ الأَصْنَامَ ، وَكَانَتْ فِي الْكَعْبَةِ الَّتِيْ بَنَاهَا إِبْرَاهِيْمُ وَإِسْمَاعِيْلُ «عَلَيْهِمَا الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ» لِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ: كَانَ فِيْ تلْكَ الْكَعْبَةِ ثَلاَثُمِئَةٍ وَسِتُّوْنَ صَنَماً ، فَاشْتَعَلَتْ قُرَيْشٌ غَضَباً وَآذَوْا رَسُوْلَ اللهِ ﷺ وَعَذَّبُوا الْمُسْلِمِيْنَ ، فَصَبَرَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ وَصَبَرَ الْمُسْلِمُوْنَ وَثَبَتُوْا لَهُمْ كَالْجِبَالِ.

وَلٰكِنَّ قُرَيْشاً كَانُوْا يَمْنَعُونَ النَّاسَ عَنِ الإِسْلاَمِ وَيَحُوْلُوْنَ بَيْنَ الْمُسْلِمِيْنَ وَعِبَادَةِ اللهِ ، فَأَذِنَ اللهُ لِرَسُوْلِ اللهِ ﷺ بِالْهِجْرَةِ ، فَهَاجَرَ إِلَىٰ الْمَدِيْنَةِ وَهَاجَرَ الْمُسْلِمُونَ ، وَكَانَتِ الْمَدِيْنَةُ أَرْضاً طَيِّبَةً للإِسْلاَمِ ، فِيْ أَهْلِهَا لِيْنٌ وَرِقَّةٌ ، قَدْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ كَثِيْرٌ قَبْلَ الْهِجْرَةِ.

وَلَمَّا انْتَقَلَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ مَكَّةَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ وَسَكَنَ هُنَالِكَ أَحَبَّ أَنْ يَبْنِيَ مَسْجِداً ، لأَنَّ الْمَسْجِدَ لاَزِمٌ لِلْمُسْلِمِيْنَ ، وَهُوَ قُطْبٌ يَدُوْرُ حَوْلَهُ رَحَى الْحَيَاةِ الإِسْلاَمِيَّةِ.

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ نَازِلاً فِيْ بَيْتِ أَبِيْ أَيُّوْبَ الأَنْصَارِيِّ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) وَكَانَ ضَيْفاً عَلَيْهِ ، وَكَانَ قَرِيْباً مِنْ بَيْتِهِ مِرْبَدٌ ، فَأَرَادَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ أَنْ يَبْنِيَ الْمَسْجِدَ فِيْ ذٰلِكَ الْمَكَانِ ، قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: لِمَنْ هذَا الْمِرْبَدُ؟

قَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ اسْمُهُ مُعَاذُ بْنُ عَفْرَاءَ: هُوَ

يَـا رَسُـوْلَ اللهِ ! لِيَتِيْمَيْـنِ ، اسْمُ أَحَدِهِمَـا سَهْـلٌ واسمُ الثَّانِـيْ سُهَيْلٌ.

طَلَبَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ سَهْلاً وَسُهَيْلاً ، وَهُمَا وَلَدَانِ يَتِيْمَانِ ، فَلَمَّا حضَرَا ، كَلَّمَهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِيْ أَمْرِ الْمِرْبدِ وَثَمَنِهِ.

قَـالَ سَهْلٌ وَسُهَيْلٌ: هُـوَ يَا رَسُوْلَ اللهِ! للهِ ، لاَ نَشْتَـرِيْ بِـهِ ثَمَنَـاً ، فَـابْـنِ الْمَسْجِـدَ ، وَقَـدْ طَـابَـتْ بِـهِ أَنْفُسُنَـا ، وَلٰكِـنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَبىٰ وَاشْتَرَىٰ مِنْهُمَا الْمَكَانَ ، وَدَفَعَ الثَّمَنَ.

وَبَنَىٰ الْمُسْلِمُوْنَ الْمَسْجِدَ ، وَرَسُوْلُ اللهِ ﷺ يَعْمَلُ بِيَدِهِ وَيَنْقُلُ اللَّبِنَ ، فَقَالَ قائِلٌ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ:

لَئِـنْ قَعَـدْنَـا وَالنَّبِـيُّ يَعْمَـلُ   لَـذَاكَ مِنَّـا الْعَمَـلُ الْمُضَلِّـلُ

وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يَبْنُوْنَهُ وَيَقُوْلُوْنَ:

اللهُمَّ لاَ عَيْشَ إِلاَّ عَيْش الآخِرَة   فَـارْحَـمِ الأَنْصَـارَ وَالْمُهَـاجِـرَة

وَقَدْ زَادَ فِيْ هذَا الْمَسْجِدِ أَمِيْرُ الْمُؤْمِنِيْنَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) وَالْمُلُوْكُ بَعْدَهُ ، حَتَّىٰ تَرَوْنَهُ فِيْ هذَا الشَّكْلِ.

* * *

(٣٣)

كِسْـرَةٌ مِـنَ الْـخُبْـزِ

مَرَّةً أَخَذْتُ كِسْرَةً مِنَ الْخُبْزِ لآكُلَهَا فَقَالَتْ: مَهْلاً يَا سَيِّدِي! إِنَّكَ غَيْرُ جَائِعٍ، وَقَدْ أَكَلْتَ أَخَوَاتِيْ، أَفَلا تُحِبُّ أَنْ أَقُصَّ عَلَيْكَ قِصَّتِيْ، فَإِنَّهَا غَرِيْبَةٌ وَإِنَّهَا لَذِيْذَةٌ.

قُلْتُ: بَلَىٰ! أُرِيْدُ أَنْ أَسْمَعَ قِصَّتَكِ، فَلاَ آكُلُكِ حَتَّىٰ أَسْمَعَ مِنْكِ.

قَالَتْ: هَلْ تَظُنُّ يَا سَيِّدِيْ! أَنِّي خُلِقْتُ هكَذَا؟ هَلْ سَمِعْتَ أَنَّ الْخُبْزَ يَنْبُتُ فِي الْحَقْلِ أَوْ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ؟ إِنَّكَ تَأْكُلُ مُسْتَرِيْحاً يَأْتِيْكَ رِزْقُكَ رَغَداً، وَلٰكِنِّيْ لَمْ أَزَلْ أَتَحَمَّلُ الْمَشَاقَّ لأَجْلِكَ، وَأَخْرُجُ مِنْ مُصِيْبَةٍ إِلَىٰ مُصِيْبَةٍ وَمِنْ مَحْبِسٍ إِلَىٰ مَحْبِسٍ حَتَّىٰ وَصَلْتُ إِلَىٰ يَدِكَ.

كَانَ مِنْ خَبَرِيْ أَنِّيْ كُنْتُ حَبَّةَ حِنْطَةٍ مَعَ شَقِيْقَاتِيْ فِيْ غِرَارَةٍ ، فَجَاءَ إِلَيْنَا رَجُلٌ ، فَأَخَذَنِيْ مَعَ رَفِيْقَاتِيْ ، فَبَذَرَنَا فِي التُّرَابِ.

هُنَالِكَ فِي الْحَقْلِ أَبْصَرْتُ الدُّنْيَا وَأَصَابَتْنِي الشَّمْسُ وَكُنْتُ مَسْرُوْرَةً جِدّاً ، وَلٰكِنْ نَزَلَ الْمَطَرُ ، وَدَخَلْتُ إِلىٰ بَاطِنِ التُّرْبَةِ ، وَبَقِيْتُ مَدْفُوْنَةً أَيَّاماً ، وَأَخَذَ جِسْمِيْ يَكْبُرُ وَجِلْدِي يَضِيْقُ عَلَيَّ ، حَتَّىٰ انْشَقَّ جِلْدِي ، وَخَرَجَ مِنْهُ جُذَيْرَاتٌ كَالشَّعْرِ ، ثُمَّ خَرَجَتْ وُرَيْقَاتٌ شَقَّتِ التُّرْبَةَ ، وَظَهَرَتْ فَوْقَ الأَرْضِ ، فَكُنْتُ يَا سَيِّدِيْ! سُنْبُلَةً قَائِمَةً عَلَىٰ سَاقٍ.

ثُمَّ أَصْبَحْتُ سُنْبُلَةً صَفْرَاءَ فِيْ حَرَارَةِ الشَّمْسِ ، وَكُنْتُ أَرَى صَدِيْقَاتِيْ وَكُنَّا نَتَحَدَّثُ وَنَهْتَزُّ طَرَباً ، وَكَانَتْ أَيَّاماً جَمِيْلَةً.

وَمَا طَالَتْ تِلْكَ الْمُدَّةُ فَقَدْ جَاءَ رِجَالٌ يَحْمِلُوْنَ الْمَنَاجِلَ ، فَحَصَدُوْا وَحَمَلُوْا ، وَانْتَقَلْتُ إِلَىٰ بَيْدَرٍ وَمَكَثْتُ أَيَّاماً.

وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ الأَيَّامِ فَقَدْ جَاءَ ثِيْرَانٌ فَدَاسَتْنَا بِأَقْدَامِهَا ، وَفَارَقْتُ السُّنْبُلَةَ ، وَكُنْتُ طَرِيْحاً ذَلِيْلاً.

ثُمَّ أَخَذَنَا رِجَالٌ وَذَرَوْنَا فِي الرِّيْحِ، فَطَارَ الْقِشْرُ وَبَقِيَ الْقَمْحُ.

وَكَانَ أَشَدَّ مِنْ ذٰلِكَ كُلِّهِ: أَنَّ رَجُلاً حَمَلَنِيْ إِلَىٰ شَيْءٍ مُدَوَّرٍ مِنَ الْحَجَرِ ، فِيْهِ ثَقْبٌ ، وَكُنْتُ أَسْمَعُ لَهُ صَوْتاً شَدِيْداً

كَرِيْهاً وَجَعْجَعَةً ، فَأَلْقَانِيْ فِيْهِ فَطَحَنَنِيْ طَحْناً ، هَلْ تَعْرِفُ اسمَهُ يَا سَيِّدِي؟ . ذٰلِكَ هُوَ الطَّاحُوْنُ أَوِ الرَّحَىٰ.

فَلَمَّا صِرْتُ دَقِيْقاً أَخَذَنِي الْخَبَّازُ وَوَضَعَنِيْ فِيْ مِعْجَنَةٍ ، وَغَمَرَنِيْ بِالْمَاءِ النَّقِيِّ ، وَغَمَزَنِيْ ، حَتَّىٰ صِرْتُ عَجِيْناً ، فَصَنَعَ مِنِّيْ كُرَةً.

هُنَالِكَ جَاءَتِ الْمُصِيْبَةُ ، فَقَدْ دَحَانِيْ عَلَىٰ حَدِيْدٍ مُحَمّىً تُسَمُّوْنَهُ الطَّابقَ ، لاَ تَسْأَلْ يَاسَيِّدِيْ! عَنْ أَلَمِيْ وَاحْتِرَاقِيْ فَقَدْ الْتَوَيْتُ وَانْكَمَشْتُ ، وَلٰكِنَّ الْخَبَّازَ لَمْ يَرْحَمْنِيْ وَلَمْ يَرِقَّ لِيْ ، حَتَّىٰ كُنْتُ رِقَاقاً.

كُلُّ ذٰلِكَ فِيْ سَبِيْلِكَ يَا سَيِّدِيْ ، كُنْتُ أَشْقَىٰ لِنَعِيْمِكَ وَأَتْعَبُ لِلَذَّتِكَ ، وَأَنْتَقِلُ مِنْ طَوْرٍ إِلَىٰ طَوْرٍ ، لِتَأْكُلَ هَنِيْئاً وَتَشْبَعَ ، أَفَلاَ يَحْسُنُ بِكَ أَنْ تَقُوْلَ:

«الْحَمْدُ لله الَّذِيْ أَطْعَمَنِيْ وَسَقَانِيْ وَجَعَلَنِيْ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ»؟!



(٣٤)

عِيَادَةُ الْمَرِيْضِ

ذَهَبَ حَامِدٌ إِلَىٰ الْمَدْرَسَةِ يَوْمَ السَّبْتِ فَوَجَدَ أَنَّ صَدِيْقَهُ حُسَيْناً مَا حَضَرَ فِي الْمَدْرَسَةِ ، فَسَأَلَ أَخَاهُ عَلِيّاً عَنِ السَّبَبِ ، فَقَالَ: إِنَّهُ مَحْمُوْمٌ مِنْ يَوْمِ الْخَمِيْسِ ، فَعَزَمَ حَامِدٌ عَلَىٰ أَنْ يَعُوْدَهُ فِي الرُّجُوْعِ مِنَ الْمَدْرَسَةِ.

ذَهَبَ حَامِدٌ إِلَىٰ بَيْتِ حُسَيْنٍ فَسَلَّمَ وَاسْتَأْذَنَ ، فَخَرَجَ أَبُوْ حُسَيْنٍ ، قَال حَامِدٌ: إِنِّي أُرِيْدُ أَنْ أَعُوْدَ صَدِيْقِيْ حُسَيْناً فَقَدْ أَخْبَرَنِيْ عَلِيٌّ أَنَّهُ مَرِيْضٌ ، قَالَ أَبُوْهُ: نَعَمْ! إِنَّهُ أَصَابَتْهُ الْحُمَّىٰ يَوْمَ الْخَمِيْسِ ، وَيُمْكِنُكَ أَنْ تَعُوْدَهُ.

صَعِدَ حَامِدٌ إِلَىٰ السَّطْحِ ، وَدَخَلَ غُرْفَةَ حُسَيْنٍ ، فَرَأَىٰ حُسَيْناً مُضْطَجِعاً ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ بِلُطْفٍ ، وَدَنَا مِنْهُ ، وَقَالَ لَهُ: كَيْفَ حَالُكَ يَا أَخِيْ! عَافَاكَ اللهُ.

قَالَ حُسَيْنٌ: قَدْ أَصَابَتْنِيْ الْحُمَّىٰ يَوْمَ الْخَمِيْسِ ، وَكَانَتْ شَدِيْدَةً يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، وَخَفَّتْ فِيْ اللَّيْلِ ، وَلٰكِنِّي أَشْكُو الصُّدَاعَ وَالدُّوَارَ ، وَقَدْ ضَعُفْتُ كَثِيْراً ، كَأَنِّيْ مَرِيْضٌ مُنْذُ أَيَّامٍ ، وَلاَ أَشْتَهِي الطَّعَامَ.

قَالَ حَامِدٌ: لاَ بَأْسَ طَهُوْرٌ إِنْ شَاءَ اللهُ ، وَهَلْ عَادَكَ طَبِيْبٌ؟

قَالَ حُسَيْنٌ: نَعَمْ! قَدْ عَادَنِيْ طَبِيْبٌ أَمْسِ ، وَمَوْعِدُهُ الآنَ.

وَلَمْ يَجْلِسْ حَامِدٌ إِلاَّ قَلِيْلاً ، حَتَّىٰ حَضَرَ الطَّبِيْبُ فَجَسَّ يَدَ حُسَيْنٍ ، وَقَاسَ الْحَرَارَةَ ، وَامْتَحَنَ الصَّدْرَ بِالسَّمَّاعَةِ ، وَأَبْدَىٰ الارْتِيَاحَ ، وَغَيَّرَ فِي الْوَصْفَةِ قَلِيْلاً ، وَقَالَ: إِنَّهُ بَارِىءٌ بِحَمْدِ اللهِ ، وَأَوْصَىٰ أَبَاهُ بِأَنْ يَحْمِيَ حُسَيْناً الْمَاءَ الْبَارِدَ وَالزَّيْتَ وَالْخُرُوْجَ فِي الْهَوَاءِ والتَّعَب ، وَيَسْقِيَهُ اللَّبَنَ وَمَاءَ الشَّعِيْرِ وَمَاءَ الْفَوَاكِهِ.

وَجَلَسَ حَامِدٌ قَلِيْلاً ، وَقَالَ: إِنَّ الْعَائِدَ إِذَا أَطَالَ الْجُلُوْسَ عِنْدَ الْمَرِيْضِ ، شَقَّ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ أَهْلِ بَيْتِهِ ، فَأَسْتَأْذِنُ وَأَنْصَرِفُ ، وَأَعُوْد إِنْ شَاءَ اللهُ غَداً.

* * *

(٣٥)

الْكِيْـمِيْــاء

كَانَ الأَوْلاَدُ يَتَحَدَّثُوْنَ فِي اللَّيْلِ وَيَتَسَامَرُوْنَ ، وَكَانَ أَكْثَرُ حَدِيْثِهِمْ عَنِ الْكِيْمِيَاءِ ، وَكَانَ إِسْمَاعِيْلُ يَقُوْلُ: سَمِعْتُ أَنَّ شَيْخاً يُحَوِّلُ التُّرَابَ ذَهَباً ، وَيَجْعَلُ نُقُوْدَ النِّيْكَلِ وَالرَّصَاصِ: دَنَانِيْرَ ذَهَبِيَّةً وَجُنَيْهَاتٍ.

وَصَدَّقَهُ مَحْمُوْدٌ وَقَالَ: نَعَمْ! إِنَّهُ فَنٌّ كَانَ النَّاسُ يَعْرِفُوْنَهُ ، وَلٰكِنِ انْقَرَضَ عُلَمَاءُ هٰذَا الفَنِّ ، وَطُوِيَ ذٰلِكَ الْبِسَاطُ.

فَتَأَسَّفَ الأَوْلاَدُ كَثِيْراً ، وَحَزِنُوْا ، وَقَالُوْا: لَوْ وَجَدْنَا أَحَداً يَعْرِفُ هٰذِهِ الصِّنَاعَةَ ، لَتَعَلَّمْنَاهَا مِنْهُ ، وَصِرْنَا أَغْنِيَاءَ بِدُوْنِ تَعَبٍ وَمَشَقَّةٍ.

وَكَانَ أَبُوْهُ بِمَسْمَعٍ مِنْهُمْ ، فَقَالَ: لاَ تَتَأَسَّفُوْا يَا أَوْلاَدِيْ! فَإِنِّيْ

أَعْرِفُ الْكِيْمِيَاءَ ، وَأَنْتُمْ أَعَزُّ النَّاسِ عِنْدِيْ ، فَأَنَا أُعَلِّمُكُمْ غَداً ، وَأُخْبِرُكُمْ بِصِنَاعَةِ الْكِيْمِيَاءِ.

فَرِحَ الأَوْلَادُ كَثِيْراً ، وَنَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ، وَشَقَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَـنْـتَظِرُوْا إِلَىٰ الصَّبَاحِ ، فَاسْتَطَالُوا اللَّيْلَ ، وَلٰكِنَّ وَالِدَهُمْ قَالَ لَهُمْ: «لَا يُمْكِنُ تَعْلِيْمُ الْكِيْمِيَاءِ إِلَّا فِي النَّهَارِ ، فَإِنَّ ذٰلِكَ فَنٌّ دَقِيْقٌ.

نَامَ الأَوْلَادُ ، وَانْتَبَهُوْا مُبَكِّرِيْنَ ، وَلَمْ يَزَلْ إِسْمَاعِيْلُ وَمَحْمُوْدٌ يَرَيَانِ الْكِيْمِيَاءَ فِي الْمَنَامِ ، رَأَىٰ هَاشِمٌ أَنَّهُ فِيْ قَصْرٍ شَامِخٍ وَلِبَاسٍ فَاخِرٍ ، وَقَدْ بَنَىٰ الْقَصْرَ ، وَصَنَعَ اللِّبَاسَ بِالْمَالِ الَّذِي حَصَلَ لَهُ بِالْكِيْمِيَاءِ.

فَصَلَّوْا الصُّبْحَ ، وَجَلَسُوْا حَـوْلَ أَبِيْهِمْ يَنْتَظِرُوْنَ فَرَاغَـهُ مِنْ تِلَاوَةِ الْقُـرْآنِ ، وَأَتَمَّ أَبُوْهُمْ حِزْبَـهُ ، وَقَالَ: هَلُمُّوْا يَا أَبْنَائِـيْ! فَخَرَجُوْا مَعَـهُ ، وَقَدْ أَعْجَلَهُمُ الاشْتِيَاقُ إِلَـىٰ الْكِيْمِيَاءِ مِـنْ أَنْ يُـفْطِرُوْا.

لَمْ يَزَلْ أَبُوْهُمْ يَسِيْرُ بِهِمْ طَرِيْقاً بَعْدَ طَرِيْقٍ ، حَتَّىٰ وَقَفَ بِهِمْ عَلَىٰ حَقْلٍ يَحْرُثُهُ الْفَلَّاحُ ، وَفِيْ يَدِهِ السِّكَّةُ ، فَقَالَ الْوَالِدُ: الْكِيْمِيَاءُ يَا أَوْلَادِيْ! تَحْتَ سِكَّةِ الْمِحْرَاثِ.

فَتَعَجَّبَ الأَوْلَادُ ، فَاسْتَفْسَرُوَا أَبَاهُمْ ، فَقَالَ الْوَالِدُ: أَلَمْ

أَسْمَعْكُمْ تَقُوْلُوْنَ: الْكِيْمِيَاءُ يُحَوِّلُ التُّرَابَ ذَهَباً؟ أَلَا يَتَحَوَّلُ هٰذَا التُّرَابُ ذَهَباً بَعْدَ أَيَّامٍ بَلْ أَغْلَىٰ مِنَ الذَّهَبِ؟ وَمَا يُغْنِي الذَّهَبُ إِذَا لَمْ يَكُنْ مَا يَأْكُلُهُ النَّاسُ؟ فَهٰذِهِ الْبُذُوْرُ الَّتِي بَذَرَهَا الْفَلَّاحُ، وَاجْتَهَدَ فِيْهَا أَيَّاماً سَتَأْتِيْ بِحَاصِلٍ كَبِيْرٍ، وَسَيَرُدُّ اللهُ إِلَيْهِ بِهٰذَا الْعَمَلِ أَضْعَافَ مَا بَذَلَ.

ثُمَّ مَرَّ بِهِمْ أَبُوْهُمْ عَلَىٰ مَصْنَعٍ كَانَ النَّاسُ فِيْهِ عَاكِفِيْنَ عَلَىٰ أَعْمَالِهِمْ، وَالْعَرَقُ يَسِيْلُ مِنْ جِبَاهِهِمْ، وَصَنَعُوْا أَشْيَاءَ مُفِيْدَةً جِدّاً تُثْمِرُ لَهُمْ مَالاً كَثِيْراً، وَتَقْضِيْ لِلنَّاسِ حَاجَاتٍ كَبِيْرَةً، فَقَالَ الْوَالِدُ: الْكِيْمِيَاءُ يَا أَوْلَادِيْ! عَرَقُ الْجَبِيْنِ، وَكَدُّ الْيَمِيْنِ، ثُمَّ مَالَ بِهِمْ إِلَىٰ حَلْقَةِ مُعَلِّمٍ، وَإِلَىٰ مَجْلِسِ وَاعِظٍ، وَقَالَ: يَا أَوْلَادِيْ! الإِنْسَانُ أَغْلَىٰ شَيْءٍ فِي الوُجُوْدِ، وَتَثْقِيْفُهُ وَإِصْلَاحُهُ أَفْضَلُ مِنْ تَحْوِيْلِ التُّرَابِ ذَهَباً.

فَإِذَا تَعَلَّمَ هٰؤُلَاءِ الأَوْلَادُ، وَإِذَا اهْتَدَىٰ هٰؤُلَاءِ النَّاسُ، كَانَ لِلْمُعَلِّمِ وَالْوَاعِظِ صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، لَهُ أَجْرُ كُلِّ مَا يَعْمَلُ هٰؤُلَاءِ مِنْ خَيْرٍ وَبِرٍّ، وَلِذٰلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِسَيِّدِنَا عَلِيٍّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ:

«يَا عَلِيُّ! لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ».

فَاقْتَنَعَ الأَوْلَادُ، وَشَكَرُوْا أَبَاهُمْ، وَرَجَعُوْا، وَقَدْ تَعَلَّمُوا الْكِيْمِيَاءَ.

* * *

(٣٦)

يـوْمٌ صَـائِـفٌ

مَا أَشَدَّ الْحَرَّ! يَا لَطِيْفُ! النَّاسُ فِيْ بُيُوْتِهِمْ لاَ يَخْرُجُوْنَ خَوْفَ السَّمُوْمِ ، وَقَدِ اتَّخَذُوْا سُتُوْراً مِنَ الْحَشِيْشِ يَـرُشُّوْنَ عَلَيْهَا الْمَاءَ ، وَيُحَرِّكُوْنَ الْمَرَاوِحَ ، وَقَدْ سَدُّوا النَّوَافِذَ ، لِئَلاَّ تَدْخُلَ مِنْهَا السَّمُوْمُ ، وَمَعَ ذٰلِكَ يَتَقَلَّبُوْنَ عَلَىٰ مِثْلِ الْجَمْرِ ، هٰذَا ، وَأَهْلُ الأَكْوَاخِ الْحَقِيْـرَةِ وَالْخُصَصِ والْبُيُوْتِ الْمَبْنِيَّـةِ مِنَ اللَّبِنِ أَنْعَمُ فِي الصَّيْفِ مِنْ أَهْلِ الْقُصُوْرِ الْمَبْنِـيَّـةِ مِنَ الْجِصِّ وَالآجُرِّ ، فَإِذَا رَشُّوا الْمَاءَ عَلَىٰ الأَرْضِ وَالْجُدْرَانِ ، وَهَبَّتْ لَفْحَةٌ مِنْ سَمُوْمٍ تَحَوَّلَتْ نَفْحَةً مِنْ نَسِيْمٍ ، وَحَسِبُوْا أَنَّهُمْ فِيْ جَنَّةٍ وَنَعِيْمٍ.

اِرْتَفَعَتْ دَرَجَةُ الْحَرَارَةِ إِلَىٰ مِئَـةٍ وَثَمَانِيَ عَشَرَةَ نُقْطَةً ، فَعِيْلَ صَبْرُ النَّاسِ ، وَسَافَرَ الأَغْنِيَاءُ إِلَىٰ قُلَلِ الْجِبَالِ حَيْثُ يَصْطَافُوْنَ وَيَقْضُونَ شَهْرَيْ مَايُوْ وَيُوْنِيَهْ حَتَّىٰ إِذَا نَـزَلَتِ الأَمْطَارُ ، وَلَطُفَ الْحَرُّ هَبَطُوْا إِلَىٰ الْمُدُنِ وَالسُّهُوْلِ.

وَبَقِيَ أَوْسَاطُ النَّاسِ ، وَأَهْلُ الأَشْغَالِ يَتَحَمَّلُوْنَ الْحَرَّ ، وَيَصْبِرُوْنَ لِلسَّمُوْمِ.

الآنَ رَكَدَتِ السَّمُوْمُ ، وَمَالَتِ الشَّمْسُ، وَطَابَ الْخُرُوْجُ، وَانْتَشَرَ النَّاسُ فِي الْبَسَاتِيْنِ وَالمَيَادِيْنِ وَشَوَاطِىءِ الأَنْهَارِ يَتَرَوَّحُوْنَ وَيَتَنَزَّهُوْنَ ، فَلاَ تَجِدُ فِي الْبَيْتِ إِلَّا شَيْخاً هَرِماً أَوِ امْرَأَةً أَوْ عَاجِزاً ، وَمَنْ حَبَسَهُ شُغْلٌ أَوْ مَرَضٌ أَوْ حَاجَةٌ ، وَقَدْ تَسْتَمِرُّ السَّمُوْمُ إِلَىٰ اللَّيْلِ ، فَلاَ يَسْتَرِيْحُ النَّاسُ وَيَتَقَلَّبُوْنَ عَلَىٰ الْفِرَاشِ ، وَقَدْ يَحْتَبِسُ الْهَوَاءُ ، فَيَسِيْلُ الْعَرَقُ ، وَتَتَحَرَّكُ الْمَرَاوِحُ ، وَيَطِيْرُ النَّوْمُ.

* * *

(٣٧)

النَّظَافَةُ

طَاهِرٌ ابْنُ فَلاَّحٍ ، يَسْكُنُ أَبُوْهُ فِي الْقَرْيَةِ وَيُرْسِلُ إِلَىٰ طَاهِرٍ قَلِيْلاً مِنَ النُّقُوْدِ كُلَّ شَهْرٍ .

وَلٰكِنَّ طَاهِراً وَلَدٌ مُدَبِّرٌ عَاقِلٌ ، ثِيَابُهُ مُتَوَاضِعَةٌ ، وَلٰكِنَّهَا دَائِماً نَظِيْفَةٌ مُرَتَّبَةٌ لا تَرَىٰ فِيْهَا وَسَخاً ، يَغْسِلُهَا بِيدِهِ كُل جُمُعَةٍ ، وَعِنْدَهُ إِبْرَةٌ وَخَيْطٌ ، فَإِذَا تَخَرَّقَ ثَوْبٌ خَاطَهُ بِالإِبْرَةِ أَوْ رَقَعَهُ بِنَفْسِهِ .

وَلاَ يَخْجَلُ إِذَا خَرَجَ فِيْ ثَوْبٍ مَرْقُوْعٍ ، وَلٰكِنَّهُ يَخْجَلُ إِذَا خَرَجَ فِيْ ثَوْبٍ وَسِخٍ ، وَمَا رَآهُ أَصْدِقَاؤُهُ فِيْ ثِيَابٍ وَسِخَةٍ أَبَداً ، فَيَحْسَبُوْنَ أَنَّهُ غَنِيٌّ ، عِنْدَهُ ثِيَابٌ كَثِيْرَةٌ ، وَلاَ يَمْلِكُ إِلاَّ أَرْبَعَ بِذْلاَتٍ .

وَإِذَا دَخَلْتَ فِيْ حُجْرَتِهِ رَأَيْتَهَا نَظِيْفَةً مُنْتَظِمَةً ، وَرَأَيْتَ كُلَّ شَيْءٍ فِيْ مَحَلِّهِ ، فَلاَ يَضِيْعُ وَقْتُهُ فِيْ تَفَقُّدِ الأَشْيَاءِ وَالْتِمَاسِهَا ، وَإِذَا دَخَلَ فِي الظَّلاَمِ قَدَرَ عَلَىٰ أَنْ يَأْخُذَ مَا يُرِيْدُهُ لأَنَّهُ فِيْ مَحَلِّهِ .

وَكُتُبُهُ فِيْ نِظَامٍ دَائِمَاً ، وَهِيَ نَظِيْفَةٌ لاَ تَرَىٰ عَلَيْهَا غُبَاراً وَلاَ تُرَاباً، وَلاَ تَرَىٰ فِيْهَا أَثَرَ دُهْنٍ وَمِسْحَةَ يَدٍ، وَلاَ كِتَابَةً وَتَمْرِيْناً، كَأَنَّهُ اشْتَرَاهَا الْيَوْمَ ، وَلاَ يَكْتُبُ اسْمَهُ إِلَّا فِيْ مَكَانٍ وَاحِدٍ بِخَطٍ جَيِّدٍ.

وَإِذَا قَامَ طَاهِرٌ فِي الصَّبَاحِ تَوَضَّأَ لِصَلاَةِ الصُّبْحِ وَاسْتَاكَ ، وَنَظَّفَ أَسْنَانَهُ.

وَيَغْتَسِلُ طَاهِرٌ كُلَّ يَوْمٍ فِي الصَّيْفِ، وَأَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ فِيْ أُسْبُوْعٍ فِي الشِّتَاءِ ، لِذٰلِكَ تَرَاهُ يَمْرَضُ قَلِيْلاً ، وَهُوَ قَوِيٌّ نَشِيْطٌ.

وَفِيْ فَصْلِ طَاهِرٍ وَلَدٌ غَنِيٌّ اسْمُهُ شَاهِدٌ ، وَهُوَ ضِدُّ طَاهِرٍ فِي النَّظَافَةِ وَالنِّظَامِ ، فَثِيَابُهُ غَالِيَةٌ جَمِيْلَةٌ وَلٰكِنَّهَا فِي الْغَالِبِ وَسِخَةٌ دَنِسَةٌ ، وَهُوَ يُغَيِّرُ مَلاَبِسَهُ سَرِيْعاً ، وَلٰكِنَّهُ يُوَسِّخُهَا سَرِيْعاً.

وَكَذٰلِكَ كُتُبُهُ دَائِماً فَجِلْدُهَا مَشْقُوْقٌ ، وَوَرَقُهَا مَخْرُوْقٌ ، كَأَنَّ طِفْلاً عَبَثَ بِهَا أَوْ مَشَتْ عَلَيْهَا سِكَّةُ الْفَلَّاحِ أَوْ دَاسَتْهَا مَرْكَبَةٌ.

وَكُتُبُهُ وَدَفَاتِرُهُ مَعْرِضٌ ، أَوْ مُتْحَفٌ ، تَرَىٰ فِيْهَا رُسُوْماً وَصُوَراً ، وَتَوْقِيْعَاتٍ وَتَمْرِيْنَاتٍ ، وَأَشْكَالاً رِيَاضِيَّةً وَخَرَائِطَ جُغْرَافِيَّةً.

وَإِذَا قُلْتَ لِشَاهِدٍ: لِمَاذَا لاَ تُحَافِظُ عَلَىٰ النَّظَافَةِ وَالنِّظَامِ؟ قَالَ: إِنَّهُ يَضِيْعُ فِيْ ذٰلِكَ وَقْتٌ كَثِيْرٌ ، وَالْوَقْتُ شَيْءٌ غَالٍ.

وَتَرَاهُ يُضَيِّعُ وَقْتاً طَوِيْلاً فِيْ تَفَقُّدِ الأَشْيَاءِ وَتَغْيِيْرِ الْمَلاَبِسِ بِسُرْعَةٍ ، وَلاَ يَفْطَنُ لِذٰلِكَ.

* * *

(٣٨)
الْـحَنِـيْـنُ إِلَـىٰ الـشَّهَـادَةِ
(١)

لمَّا أَرَادَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ الْخُرُوجَ إِلَىٰ بَدْرٍ لِيُقَاتِلَ الْمُشْرِكِيْنَ وَخَرَجَ غُلَامٌ اسْمُهُ عُمَيْرُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ عُمُرُهُ سِتَّ عَشَرَةَ سَنَةً.

وَكَانَ عُمَيْرٌ يَخَافُ أَلَّا يَقْبَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ ، لأَنَّهُ صَغِيْرٌ ، فَكَانَ يَجْتَهِدُ أَلَّا يَرَاهُ أَحَدٌ ، وَكَانَ يَتَوَارَىٰ.

وَلٰكِنْ رَآهُ أَخُوْهُ الأَكْبَرُ سَعْدُ بْنُ أَبِيْ وَقَّاصٍ فَقَالَ لَهُ: مَالَكَ يَا أَخِيْ؟ لأَيِّ شَيْءٍ تَتَوَارَىٰ؟

قَالَ عُمَيْرٌ: أَخَافُ أَنْ يَرُدَّنِيْ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ فَإِنِّي صَغِيْرٌ ، وَأَنَا أُحِبُّ الْخُرُوْجَ ، لَعَلَّ اللهَ يَرْزُقُنِيَ الشَّهَادَةَ.

وَكَانَ كَمَا خَافَ عُمَيْرٌ ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ رَأَىٰ

أَنَّهُ صَغِيْرٌ ، وَالْحَرْبُ لَيْسَتْ مِنْ شُغْلِ الأَطْفَالِ وَالْغِلْمَانِ ، وَمَا يَصْنَعُوْنَ فِي الْحَرْبِ ، وَإِنَّهَا لَكَبِيْرَةٌ عَلَىٰ الرِّجَالِ؟

وَلٰكِنَّ عُمَيْراً مَا أَحَبَّ أَنْ يَنْصَرِفَ ، وَيَقْعُدَ فِي الْبَيْتِ ، أَوْ يَلْعَبَ مَعَ أَتْرَابِهِ ، وَأَصْدِقَائِهِ فِي الْمَدِيْنَةِ ، وَإِنَّهُ لَيُرِيْدُ الشَّهَادَةَ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ!

وَلٰكِنَّ عُمَيْراً لاَ يَعْصِيْ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ ، وَلاَ يُعَانِدُ ، فَإِنَّهُ لاَ يُرِيْدُ إِلاَّ رِضَاءَ اللهِ ، وَهَلْ يَنَالُ رِضَاءَ اللهِ إِذَا عَصَىٰ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ؟ أَبَداً!

كَانَ عُمَيْرٌ فِيْ حَيْرَةٍ وَحُزْنٍ شَدِيْدٍ ، هُوَ لَمْ يَبْلُغْ سِنَّ الْقِتَالِ ، وَلٰكِنَّهُ يَحِنُّ إِلَىٰ الشَّهَادَةِ ، وَإِلَىٰ الْمَوْتِ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ ، وَيَحِنُّ إِلَىٰ الْجَنَّةِ ، وَيَرَاهَا غَيْرَ بَعِيْدَةٍ ، وَلٰكِنْ كَيْفَ يَصِلُ إِلَيْهَا ، وَهُوَ لَمْ يَبْلُغْ سِنَّ الْقِتَالِ؟!

كُلُّ ذٰلِكَ ثَقُلَ عَلَىٰ عُمَيْرٍ ، وَكَانَ قَلْبُهُ صَغِيْراً فَبَكَىٰ ، وَلَمَّا بَكَىٰ عُمَيْرٌ رَقَّ لَهُ قَلْبُ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ وَكَانَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ رَقِيْقاً رَفِيْقاً فَأَجَازَهُ.

لاَ تَسْأَلُوْا عَنْ فَرَحِ عُمَيرٍ وَسُرُوْرِهِ لَمَّا أَجَازَهُ النَّبِيُّ ﷺ ، فَكَأَنَّمَا نَالَ تَذْكِرَةَ الْجَنَّةِ.

وَخَرَجَ عُمَيْرٌ مَعَ أَخِيْهِ وَمَعَ الْمُسْلِمِيْنَ ، وَكُلُّهُمْ كِبَارٌ

وَأَقْوِيَاءُ ، وَكَانَ كَمَا أَرَادَ ، فَقَدْ قُتِلَ شَهِيْداً فِي الْغَزْوَةِ ، وَسَبَقَ كَثِيْراً مِنَ الشُّبَّانِ وَالشُّيُوْخِ .

رَضِيَ اللهُ عَنْ عُمَيْرٍ وَأَرْضَاهُ .

❋ ❋ ❋

(٣٩)

الْحَـنِـيْـنُ إِلَـىٰ الـشَّهَـادَةِ

(٢)

وَلَمَّا خَرَجَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ إِلىٰ أُحُدٍ لِقِتَالِ قُـرَيْشٍ خَرَجَ مَعَهُ مِنَ الْمَدِيْـنَـةِ غِلْمَانٌ يُحِبُّوْنَ الْجِهَادَ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ ، وَكَانُوا صِغَاراً ، لَمْ يَـتَجَاوَزُوا الْخَامِسَةَ عَشَرَةَ مِنْ عُمُرِهِمْ ، فَرَدَّهُمْ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ ، لأَنَّهُمْ صِغَارٌ لَمْ يَبْلُغُوْا سِنَّ الْقِتَالِ ، فَيَكُوْنُوْنَ كَالْمَتَاعِ ، وَيَشْغُلُوْنَ الْكِبَارَ أَيْضاً يُـرَاقِبُوْنَهُمْ وَيَحْرِسُوْنَـهُمْ.

وَكَانَ فِيْ هَؤُلَاءِ الْغِلْمَانِ وَلَدٌ ، اسْمُهُ رَافِعُ بنُ خَدِيْجٍ ، وَهُوَ دُوْنَ الْخَامِسَةَ عَشَرَةَ مِنْ سِنِّهِ ، وَكَانَ يَتَطَاوَلُ مِنْ شِدَّةِ الشَّوْقِ ، لِيَظُنَّ النَّاسُ أَنَّهُ كَبِيْرٌ ، قَدْ بَلَغَ سِنَّ الْقِتَالِ ، فَلَا يُفْطَنُ لِصِغَرِ سِنِّهِ وَضَعْفِهِ.

وَلٰكِـنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ رَدَّهُ ، لأَنَّـهُ عَـرَفَ أَنَّـهُ صَغِيْـرٌ ، وَأَنَّـهُ

يتَطَاوَلُ، فشَفعَ لَهُ أَبُوْهُ، وَقَالَ: يَا رَسُوْلَ اللهِ! إِنَّ ابْنِي رَافِعاً رَامٍ، فَأَذِنَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ.

فَفَرِحَ رَافِعٌ كَثِيْراً لَمَّا أَذِنَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ، وَخَرَجَ مَعَ الْمُجَاهِدِيْنَ، وَهُوَ أَكْثَرُ سُرُوْراً مِنْ غِلْمَانٍ يَخْرُجُوْنَ إِلَىٰ الْمُصَلَّىٰ يَوْمَ الْعِيْدِ فِيْ لِبَاسٍ جَدِيْدٍ.

وَكَانَ وَلَدٌ آخَرُ اسْمُهُ سَمُرَةُ بْنُ جُنْدُبٍ فِيْ سِنِّ رَافِعٍ، فَعُرِضَ عَلَىٰ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ بَعْدَ رَافِعٍ فَرَدَّهُ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ لِصِغَرِهِ أَيْضاً، فَقَالَ سَمُرَةُ: لَقَدْ أَجزْتَ رَافِعاً وَرَدَدْتَنِيْ، وَلَوْ صَارَعْتُهُ لَصَرَعْتُهُ.

فَأَمَرَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ سَمُرَةَ وَرَافِعاً بِالْمُصَارَعَةِ فَصَرَعَ سَمُرَةُ رَافِعاً كَمَا قَالَ، وَاسْتَحَقَّ أَنْ يُسْمَحَ لَهُ بالدُّخُوْلِ فِي صَفِّ الْمُجَاهِدِيْنَ.

فَأَجَازَ رَسُوْلُ اللهِ سَمُرَةَ لِلْخُرُوجِ، فَخَرَجَ سَمُرَةُ وَقَاتَلَ يَوْمَ أُحُدٍ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ.

رَضِيَ اللهُ عَنْ رَافِعٍ وَسَمُرَةَ، وَرَزَقَنَا اتِّبَاعَهُمَا.

* * *

(٤٠)

كُـنْ أَحَـدَ الـسَّبْعَــةِ

(١)

كَانَ الْيَوْمُ الْخَامِسَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ يُوْنِيُوْ يَوْماً شَدِيْدَ الْحَرِّ ، وَكَانَ يَوْمَ عُطْلَةٍ ، فَكَانَ مَحْمُوْدٌ وَأَحْمَدُ وَعُثْمَانُ فِي الْبَيْتِ ، وَكَانُوْا مَعَ أَبِيْهِمْ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ فِي النَّهَارِ ، وَكَانُوْا يَتَأَفَّفُوْنَ مِنَ الْحَرِّ ، وَيَتَقَلَّبُوْنَ عَلَىٰ الْفِرَاشِ كَأَنَّهُمْ عَلَىٰ الْجَمْرِ .

قَالَ مَحْمُوْدٌ: يَا لَطِيْفُ! مَا أَشَدَّ الْحَرَّ! .

قَالَ أَبُوْهُمْ سُلَيْمَانُ: أَتَعْرِفُ يَا مَحْمُوْدُ! كَمْ تَبْعُدُ الشَّمْسُ مِنَ الأَرْضِ؟ .

مَحْمُوْدٌ: لاَ يَا أَبِيْ ! وَلٰكِنِّيْ أَعْرِفُ أَنَّـهَا بَعِيْدَةٌ جِدّاً .

سُلَيْمَانُ: سَتَقْرَأُ فِي الْمَدْرَسَةِ أَنَّ الشَّمْسَ تَبْعُدُ مِنَ الأَرْضِ

أَكْثَرَ مِنْ تِسْعِيْنَ مَلْيُوْناً مِنَ الأَمْيَالِ ، وَالْحرُّ كَمَا تَرَىٰ ، فَكَيْفَ إِذَا دَنَتِ الشَّمْسُ حَتَّىٰ تكُوْنَ مِقْدَارَ مِيْلٍ ؟ !

مَحْمُوْدٌ: الْعِيَاذُ بِاللهِ! وَمَتَىٰ هٰذَا يَا أَبِيْ؟

سُلَيْمَانُ: ذٰلِكَ يَا بُنَيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، يَوْمَ يَقُوْمُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِيْن.

أَحْمَدُ: وَكَيْفَ النَّاسُ يَوْمَئِذٍ يَا أَبَتِ؟.

سُلَيْمَانُ: يَكُوْنُ النَّاسُ عَلَىٰ قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُوْنُ إِلَىٰ كَعْبَيْهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُوْنُ إِلَىٰ رُكْبَتَيْهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُوْنُ إِلَىٰ حَقْوَيْهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلْجَاماً.

عُثْمَانُ: أَوَلَيْسَ هُنَالِكَ ظِلٌّ أَوْ مَكَانٌ يَسْتَظِلُّ بِهِ النَّاسُ؟

سُلَيْمَانُ: بَلَىٰ يَا وَلَدِيْ! فَهُنَالِكَ ظِلٌّ لاَ يَنْعَمُ بِهِ إِلاَّ سَبْعَةٌ مِنَ الرِّجَالِ.

الأَوْلاَدُ: وَمَنْ أُوْلٰئِكَ السُّعَدَاءُ يَا أَبَانَا؟ لَعَلَّنَا نَجْتَهِدُ أَنْ نَكُوْنَ مِنْهُمْ.

سُلَيْمَانُ: يَا أَوْلاَدِيْ! يَنْبَغِيْ لِكُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَجْتَهِدَ أَنْ يَكُوْنَ أَحَدَ السَّبْعَةِ ، وَأَنَا أَعُدُّ لَكُمْ أُوْلٰئِكَ السَّبْعَةَ:

(١) إِمَامٌ عَادِلٌ.

وَقطَعَ عَلَيْهِ أَحَدُ الأَوْلاَدِ ، وَقَالَ: وَمَنْ هُوَ الإِمَامُ ، أَهٰذَا الَّذِي يُصَلِّيْ بِالنَّاسِ؟

سُلَيْمَانُ: هُوَ أَيْضاً عَلىٰ خَيْرٍ ، لٰكِنَّ الْمُرَادُ هُنَا أَمِيْرُ الْمُسْلِمِيْنَ.

وَابْتَدرَ الأَوْلاَدُ ، وَقَالُوْا: قَدْ فَهِمْنَا ، هٰذَا كَالخُلَفَاءِ الأَرْبَعَةِ ، وَعُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيْزِ ، وَقَدْ سَمِعْنَا كَثِيْراً مِنْ حِكَايَاتِهِمْ مِنْ أُمِّنَا.

* * *

(٤١)

كُنْ أَحَدَ السَّبْعَةِ

(٢)

(٢) قَالَ سُلَيْمَانُ: وَالثَّانِيْ يَا أَوْلَادِيْ! شَابٌّ نَشَأَ فِيْ عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَىٰ.

هُنَالِكَ وَقَفَ الشَّيْخُ، وَقَالَ: يُمْكِنُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ يَا أَوْلَادِيْ! أَنْ يَكُوْنَ ذٰلِكَ الشَّابَّ السَّعِيْدَ، وَلٰكِنْ إِذَا ضَيَّعْتُمْ فُرْصَةَ الشَّبَابِ، فَلَيْسَ لَكُمْ إِلَّا الْحَسْرَةُ وَالنَّدَامَةُ.

(٣) رَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ.

قَالَ الأَوْلَادُ: هُوَ كَالشَّيْخ عَبْدِ الْغَنِيِّ فِيْ حَيِّنَا، فَإِنَّهُ لَا يَرْتَاحُ إِلَّا إِلَىٰ الْمَسْجِدِ، وَلَا تَفُوْتُهُ جَمَاعَةٌ، وَلَا نَظُنَّهُ يَبِيْتُ إِلَّا فِي الْمَسْجِدِ.

قَالَ سُلَيْمَانُ: لاَ يَا أَوْلاَدِيْ! وَلٰكِنَّـهُ مُحَافِظٌ عَلَـىٰ الصَّـلاَةِ وَالْجَمَاعَةِ ، وَقَدْ أَخْبَرَنِيْ أَنَّهُ مَا فَاتَتْهُ صَلاَةٌ فِيْ جَمَاعَةٍ مُنْذُ عَشْرِ سَنَوَاتٍ أَوْ أَكْثَرَ.

(٤) رَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللهِ ، اجْتَمَعَا عَلَيْهِ ، وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ.

وَإِذَا أَرَدْتُّمْ أَنْ تَـرَوْهُمَا ، فَانْظُرُوا إِلَىٰ الشَّيْخِ صَالِحٍ وَالشَّيْخِ حَمْـزَةَ ، فَهٰذَا مِنَ الْهِنْـدِ ، وَذٰلِكَ مِنْ بُخَارى ، وَهُـمَا أَخَوَانِ فِي اللهِ.

وَيُمْكِنُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ أَنْ يَنَالَ هٰذِهِ الْفَضِيْلَةَ ، وَذٰلِكَ بِأَنْ يَخْتَارَ مِنْ صَفِّهِ وَرُفْقَتِهِ الصَّالِحَ مِنْ الأَوْلاَدِ فَيُصَادِقَهُ ، وَيَجْتَهِدَ أَنْ تَكُوْنَ صَدَاقَتُهُ لِلدِّيْنِ.

(٥) وَرَجُلٌ اقْتَدَىٰ بِيُوْسُفَ (عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ) فِي العِفَّةِ وَالأَمَانَةِ ، وَقَدْ سَمِعْتُمْ قِصَّتَهُ.

قَالَ الأَوْلاَدُ: نَعَمْ!

(٦) وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَـةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّىٰ لاَ تَعْلَـمَ شِمَالُـهُ مَا تُنْفِقُ يَمِيْنُهُ.

وَذٰلِكَ مِثْلُ جَدِّكُمْ ، فَإِنَّا لَمْ نَعْرِفْ بِرَّهُ وَإِحْسَانَهُ إِلَىٰ الْمَسَاكِيْنِ وَالضَّعَفَةِ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ إِلاَّ بَعْدَ وَفَاتِهِ ، فَقَدْ جَاءَتِ الْعَجَائِزُ وَالأَرَامِلُ يَبْكِيْنَهُ ، وَيَذْكُرْنَ خَيْرَهُ وَبِرَّهُ ، وَقَدْ أَخْبَرَنِي

أَشْرَافٌ مِنْ أَهْلِ هذَا الْحَيِّ أَنَّهُ كَانَ يُوَاسِيْهِمْ ، وَيَصِلُهُمْ بِمَعْرُوْفٍ كُلَّ شَهْرٍ ، وَلَمْ نَعْلَمْ ذَلِكَ أَهْلَ الْبَيْتِ.

(٧) وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ.

قَالَ الأَوْلاَدُ: أَمَّا نَحْنُ فَنَجْتَهِدُ جَمِيْعاً أَنْ نَكُوْنَ شُبَّاناً نَشَؤُوْا فِيْ عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَىٰ ، وَنَجْتَهِدُ فِي غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ الْفَضَائِلِ أَيْضاً ، وَلَعَلَّنَا يَا أَبَانَا إِذَا جَمَعْنَا مِنْهَا خِصَالاً نَنَالُ بِهَا مَكَاناً خَاصَّاً فِيْ ذٰلِكَ الظِّلِّ أَيْضاً ، فَفَرْقٌ بَيْنَ مَنْ يَأْتِيْ بِفَضِيْلَةٍ ، وَبَيْنَ مَنْ يَأْتِي بِفَضَائِلَ.

سُلَيْمَانُ: هُوَ كَذٰلِكَ «إِنَّ اللهَ لاَ يُضِيْعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِيْنَ ، وَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً».

* * *

(٤٢)
الْـعَـيْــنُ

(١)

الْعَيْنُ مِنْ عَجَائِبِ صُنْعِ اللهِ تَعَالَىٰ ، فَقَدْ خَلَقَهَا اللهُ تَعَالَىٰ مِرْآةً صَافِيَةً تَتَحَرَّكُ يَمِيْناً وَشِمَالاً ، وَفَوْقَ وَتَحْتَ ، يَنْظُرُ بِهَا الإِنْسَانُ إِلَىٰ جَمِيْعِ الْجِهَاتِ ، ثُمَّ وَضَعَهَا فِيْ مِحْجَرٍ صُلْبٍ مِنَ الْعَظْمِ ، وَجَعَلَ عَلَيْهَا مِنَ الْجُفُوْنِ غِطَاءً يَحْفَظُهَا مِنَ الأَذَىٰ ، وَحَاطَهَا بِأَهْدَابٍ مِنَ الشَّعْرِ لِتَكُوْنَ سِيَاجاً يَذُبُّ عَنْهَا الذُّبَابَ وَالْبَعُوْضَ وَالْغُبَارَ الَّتِي تَدْخُلُ الْعَيْنَ ، فَتُسَبِّبُ لَهَا الأَلَمَ وَالْمَرَضَ ، وَسَلَّطَ عَلَيْهَا مَاءً جَارِياً يَغْسِلُ مَا يَدْخُلُ فِيْهَا مِنَ الأَوْسَاخِ.

وَالْعَيْنُ عُرْضَةٌ لِكَثِيْرٍ مِنَ الأَمْرَاضِ ، كَالرَّمَدِ وَقِصَرِ النَّظَرِ ، وَقَدْ عَمَّ هٰذَا الْمَرَضُ الأَخِيْرُ فِيْ هٰذَا الزَّمَانِ ، فَلَجَأَ النَّاسُ حَتَّىٰ الأَطْفَالُ إِلَىٰ اسْتِعْمَالِ مِنْظَرَةٍ ، وَلِلاِجْتِنَابِ عَنْ هٰذِهِ الأَمْرَاضِ

يَحْسُنُ الاِعْتِزَالُ عَنِ الْغُبَارِ وَالأَتْرِبَةِ، وَيَحْسُنُ التَّجَوُّلُ فِي الأَمَاكِنِ الْفَسِيْحَةِ ، وَكَثْرَةُ غَسْلِ الْوَجْهِ بِالْمَاءِ الصَّافِيْ ، فَإِنَّهُ يَجْلُوْ الْعَيْنَ ، وَيُنَقِّيْهَا مِنَ الأَوْسَاخِ وَالْقَذَىٰ ، وَلِذٰلِكَ كَانَ الْوُضُوْءُ خَمْسَ مَرَّاتٍ كُلَّ يَوْمٍ ـ خُصُوصاً فِي الصَّبَاحِ عِنْدَ الْقِيَامِ ـ نَافِعاً جِدّاً.

وَمُوَاصَلَةُ الْقِرَاءَةِ لَيْلاً فِي النُّوْرِ الضَّعِيْفِ تُـؤَثِّـرُ فِي النَّظَرِ تَأْثِيْراً كَبِيْراً ، وَتَضُرُّ بِهِ ضَرَراً عَظِيْماً ، فَعَلىٰ مَنْ أَلْجَأَتْهُ الضَّرُوْرَةُ إِلَىٰ ذٰلِكَ أَنْ يَسْتَعْمِلَ مِنَ الْمَصَابِيْحِ مَا كَانَ ذَا نُوْرٍ رَائِقٍ مُعْتَدِلٍ غَيْرِ سَاطِعٍ وَلاَ ضَعِيْفٍ.

وَالْعَيْنُ جَوْهَرَةٌ غَالِيَةٌ لاَ يُمْكِنُ أَنْ تُشْتَرَىٰ بِالْمَالِ ، وَبِهَا يَتَمَتَّعُ الإِنْسَانُ بِجَمَالِ الطَّبِيْعَةِ ، وَيَقْضِيْ بِهَا حَاجَاتٍ فِيْ نَفْسِهِ ، وَيَكُوْنُ عُضْواً عَامِلاً مُفِيْداً مِنْ أَعْضَاءِ الأُسْرَةِ الإِنْسَانِيَّةِ ، وَإِذَا فَقَدَ الإِنْسَانُ بَصَرَهُ حُرِمَ شَيْئاً كَثِيْراً مِنْ نِعَمِ الدُّنْيَا وَمَحَاسِنِهَا ، فَكَأَنَّمَا أَظْلَمَ لَهُ الْعَالَمُ ، وَكَانَ كَلاًّ عَلَىٰ غَيْرِهِ ، وَرُبَّمَا كَانَ عِيَالاً عَلَىٰ عَصاً حَقِيْرَةٍ لا يَمْشِيْ بِغَيْرِهَا.

* * *

(٤٣)

العيـــن

(٢)

وَلِذٰلِكَ كَانَتِ الْعَيْنُ ثَمِيْنَةً غَالِيَةً وَنِعْمَةً جَلِيْلَةً ، حَتَّىٰ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِيْ بِحَبِيبَتَيْهِ فَصَبَرَ ، عَوَّضْتُهُ مِنْهُما الجَنَّـةَ ، يُرِيْـدُ عَيْنَـيْهِ.

وَلاَ يَـلْـزَمُ أَنْ يَكُوْنَ الإِنْسَانُ إِذَا فَقَدَ بَصَرَهُ عَاطِلاً ضَائِعاً ، فَلَقَدْ فَاقَ كَثِيْرٌ مِنَ الْعُمْيَانِ كَثِيْراً مِنْ أَهْلِ الْبَصَرِ فِي الْعِلْمِ ، وَأَقَرَّتْ لَهُمُ الدُّنْيَا بِالفَضْلِ ، كَالْمُفَسِّر قَتَادَةَ ، وَالْمُحَدِّثِ حَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ ، وَالْفَقِيْهِ زُبَيْرٍ الْبَصْرِيِّ؛ وَالنَّحْوِيِّ أَبِي جَعْفَرٍ ، وَالأَدِيْبِ أَبِي الْعَلاَءِ الْمَعَرِّيْ ، وَالشَّاعِرِ بَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ ، وَإِمَامِ التَّجْوِيْدِ الإِمَامِ الشَّاطِبِيِّ.

وَمِنْ حَقِّ هٰذِهِ النِّعْمَةِ أَنْ يُحَافِظَ عَلَيْهَا الإِنْسَانُ وَأَنْ يَضِنَّ بِهَا

عَنْ مَحَارِمِ اللهِ ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ «يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ ، وَمَا تُخْفِي الصُّدُوْرُ» .

وَمِنْ حَقِّها أَنْ يَسْتَعْمِلَهَا فِيْ طَاعَةِ اللهِ ، وَأَنْ يُرِيْقَ دَمْعَهَا فِيْ خَشْيَةِ اللهِ ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيْثِ الشَّرِيْفِ: «لَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَىٰ اللهِ مِنْ قَطْرَتَيْنِ وَأَثَرَيْنِ: قَطْرَةِ دُمُوعٍ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، وَقَطْرَةِ دَمٍ تُهْرَاقُ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ ، وَأَمَّا الأَثَرَانِ: فَأَثَرٌ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ ، وَأَثَرٌ فِيْ فَرِيْضَةٍ مِنْ فَرَائِضِ اللهِ» .

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُوْلُ فِيْ دُعَائِهِ: اللهُمَّ إِنِّيْ أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ ، وَمِنْ عَيْنٍ لَا تَدْمَعُ ، وَمِنْ دُعَاءٍ لَا يُسْمَعُ ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَها .

* * *

(٤٤)

أَدَبُ الْمُعَاشَرَة

أُسْلُـكْ مَـعَ النَّـاسِ الأَدَبْ تَـرَ مِـنَ الـدَّهْـرِ الْعَجَـبْ

وَلاَ تُطَـاوِلْ بِنَشَـبْ وَلاَ تُفَـاخِـرْ بِنَسَـبْ

الْعِـزُّ فِـي الأَمَـانَـةْ وَالْكَيْـسُ فِـي الْفَطَـانَـةْ

لاَ تُغْضِـبِ الْجَلِيْسَـا لاَ تُـوْحِـشِ الأَنِيْسَـا

لاَ تُكْثِـرِ الْعِتَـابَـا تنَفِّـرِ الأَصْحَـابَـا

فَكَثْـرَةُ الْمُعَـاتَبَـةْ تَـدْعُـوْ إِلَـىٰ الْمُجَـانَبَـةْ

وَإِنْ حَلَلْـتَ مَجْلِسـا بَيْـنَ سَـرَاةٍ رُؤَسَـا

فَـاقْصِـدْ رِضَـا الْجَمَـاعَـة وَكُـنْ غُـلاَمَ الطَّـاعَـة

وَقُـلْ مِـنَ الْكَـلاَمِ مَـا رَاقَ بِـالْمَقَـامِ

كَـرَائِـقِ الأَشْعَـارِ وَطَيِّـبِ الأَخْبَـارِ

وَاتْـــرُكْ كَـــلاَمَ السَّفَلَـــة   وَالنُّكـــتَ الْمُبْتَـــذَلَـــة
وَلاَ تكُـــنْ مِلْحَـــاحـــا   وَاجْتَنِـــبِ الْمِـــزَاحَـــا
فَكَثْـــرَةُ الْمُجُـــوْنِ   نَـــوْعٌ مِـــنَ الْجُنُـــونِ

* * *

(٤٥)

عِـيْـدُ الأَضْـحَـىٰ

كَانَ الْيَوْمُ الأَخِيْرُ مِنْ شَهْـرِ ذِي الْقَعْدَةِ ، وَكَـانَ الْيَوْمُ التَّاسِعُ وَالْعِشْرُوْنَ مِنَ الشَّهْرِ ، رَأَىٰ وَالِدِي الْهِلاَلَ ، وَكَانَ دَقِيْقاً جِدّاً ، وَمَا رَأَيْتُهُ إِلاَّ بِاجْتِهَادٍ وَبَحْثٍ ، وَرَأَيْتُ وَالِدِيْ يَقُوْلُ وَيَدْعُوْ ، قُلْتُ لَهُ: مَاذَا تَقُوْلُ فِيْ دُعَائِكَ يَا أَبِيْ؟ قَالَ وَالِدِيْ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا رَأَىٰ الْهِلاَلَ قَالَ:

«اللهُمَّ أَهِلَّهُ عَلَيْنَا بِالأَمْنِ وَالإِيْمَانِ وَالسَّلاَمَةِ وَالإِسْلاَمِ ، رَبِّيْ وَرَبُّكَ اللهُ ، هِلاَلَ رُشْدٍ وَخَيْرٍ».

فَتَعَلَّمْتُهُ مِنْ وَالِدِيْ وَحَفِظْتُهُ.

وَظَنَنْتُ أَنَّ الْعِيْدَ غَداً ، فَأَخْبَرَنِيْ أَبِيْ أَنَّ الْعِيْدَ بَعْدَ تِسْعَةِ أَيَّامٍ ، فَإِنَّ عِيْدَ الأَضْحَىٰ الْيَوْمُ الْعَاشِرُ مِنْ شَهْرِ ذِي الْحِجَّةِ.

وَفِي الْيَوْمِ الثَّـامِنِ مِنَ الشَّهْرِ عُطِّلَتِ الْمَدْرَسَـةُ ، وَأَخْبَرَنِـيَ

الْمُعَلِّمُ أَنَّ الْحُجَّاجَ يَذْهَبُوْنَ الْيَوْمَ إِلَىٰ مِنَىٰ حَيْثُ يَبِيْتُوْنَ ، وَهٰذَا الْيَوْمُ يُسَمَّىٰ يَوْمَ التَّرْوِيَةِ .

وَفِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّاسِعِ ، وَهُوَ يَوْمُ عَرَفَةَ ، يَذْهَبُ الْحُجَّاجُ إِلَىٰ عَرَفَاتٍ ، وَيَظَلُّوْنَ هُنَالِكَ يَدْعُوْنَ وَيَذْكُرُوْنَ اللهَ ، وَيَذْهَبُوْنَ مِنْهَا إِلَىٰ الْمُزْدَلِفَةِ وَيَبِيْتُوْنَ هُنَالِكَ ، وَفِيْ صَبَاحِ الْيَوْمِ الْعَاشِرِ يَرْجِعُوْنَ إِلىٰ مِنَىٰ وَيَنْحَرُوْنَ ، وَذٰلِكَ يَوْمُ النَّحْرِ وَهُوَ يَوْمُ الْعِيْدِ .

وَكَانَ أَبِي اشْتَرَىٰ بَقَرَةً سَمِيْنَةً لِلذَّبْحِ ، قَالَ: فِيْهَا سَبْعَةُ سِهَامٍ: اثْنَانِ لِيْ وَلأُمِّكَ ، وَوَاحِدٌ لَكَ ، وَأَرْبَعَةٌ لأَخَوَيْكَ وَأُخْتَيْكَ .

وَكَانَ أَبِيْ يَعْلِفُهَا وَيَسْقِيْهَا بِنَفْسِهِ ، وَقَالَ: فِيْ ذٰلِكَ فَضِيْلَةٌ وَأَجْرٌ .

وَالْيَوْمَ الْعَاشِرَ غَيَّرْنَا اللِّبَاسَ ، وَكَانَ أَبِيْ قَدْ أَعَدَّ لِيْ لِبَاساً جَدِيْداً ، أَمَّا الْحِذَاءُ ، فَكَانَ حِذَاءَ الْعِيْدِ ، وَكَانَ نَظِيْفاً لَمْ يَتَوَسَّخْ ، كَأَنَّهُ جَدِيْدٌ ، لأَنِّيْ مَا كُنْتُ أَلْبَسُهُ إِلاَّ قَلِيْلاً ، وَتَطَيَّبَ أَبِيْ وَغَيَّرَ اللِّبَاسَ ، وَخَرَجْنَا مَعَ الْجَمَاعَةِ إِلَىٰ الْمُصَلَّىٰ ، فَكَبَّرَ وَهَلَّلَ جَهْراً ، وَصَلَّىٰ الإِمَامُ بِالنَّاسِ وَخَطَبَ ، وَذَكَرَ أَحْكَامَ الأُضْحِيَّةِ ، وَرَجَعْنَا مِنَ الْمُصَلَّىٰ بِطَرِيْقٍ آخَرَ ، وَذَبَحَ أَبِي الْبَقَرَةَ ، وَسَمَّىٰ اللهَ وَكَبَّرَ .

وَوَزَّعَتْ أمِّي اللَّحْمَ عَلَىٰ الْمَسَاكِيْنِ وَالأَقَارِبِ وَالأَصْدِقَاءِ ، وَطَبَخَتْ لَنَا أَيْضاً ، فَمَا تَغَدَّيْنَا إِلاَّ بِلَحْمِ أُضْحِيَّتِنَا .

وَتَوَفَّرَ كَثِيْرٌ مِنَ اللَّحْمِ ، فَاحْتَفَظَتْ بِهِ أُمِّيْ وَأَيْبَسَتْهُ ، وَلَمْ نَـزَلْ نَأْكُلُ مِنْ هَذَا الْقَدِيْد مُدَّةً طَوِيْلَةً .

وَكَانَتْ فِيْ أَيَّام الْعِيْدِ الثَّلاَثَةِ مَآدِبُ كَثِيْرَةٌ ، وَكَانَتْ أَيَّامَ أَكْلٍ وَشُرْبٍ ، وَقَدْ دَعَا أَبِيْ لَيْلَةَ يَوْم الْعِيْدِ جَمَاعَةً مِنْ أَصْدِقَائِهِ وَجِيْرَانِهِ ، وَصَنَعَتْ أُمِّيْ طَعَاماً مُلَوَّناً ، فَأَكْثَرَتْ وَأَطَابَتْ .

وَالْيَوْمَ الثَّانِي كُنَّا ضُيُوْفاً عِنْدَ جَارِنَا الْكَرِيْمِ: السَّيِّدِ حُسَيْنِ الطَّبِيْبِ ، وَكَانَتْ مَأْدُبَةً عَظِيْمَةً ، وَلَمْ آكُلْ مِنَ اللَّحْمِ فِيْ طُوْلِ الشَّهْرِ مَا أَكَلْتُ فِيْ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ وَلَمْ يَضُرَّ شَيئاً .

وَكُنْتُ أَسْمَعُ الإِمَامَ مِنْ فَجْرِ يَوْم عَرَفَةَ إِلَىٰ عَصْرِ الْيَوْم الأَخِيْرِ مِنْ أَيَّام التَّشْرِيْقِ يَعْنِيْ الثَّالِثَ عَشَرَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ يُكَبِّرُ وَيُهَلِّلُ دُبُرَ كُلِّ صَلاَةٍ مَكْتُوْبَةٍ .

* * *

(٤٦)

تَـارِيْخُ الْـقَمِـيْصِ

إنَّكَ لَبِسْتَ قَمِيْصاً جَدِيْداً ، فَأَبْلِ وَأَخْلِقْ! وَلٰكِنْ هَلْ تَعْرِفُ مِنْ تَارِيْخِهِ شَيئاً ، هَلْ تَعْرِفُ كَمْ عَمِلَ فِيْهِ مِنَ الأَيْدِيْ ، وَكَم اشْتَغَلَ بِهِ النَّاسُ ، وَكَمْ تَعِبَ فِيْهِ الْعَامِلُوْنَ ، وَكَيْفَ وَصَلَ إِلَيْكَ؟

كَانَ أَوَّلُ أَمْرِهِ أَنَّ الزَّرَّاعَ زَرَعَ الْقُطْنَ وَتَحَمَّلَ فِيْ زِرَاعَتِهِ عَنَاءً شَدِيْداً ، فَإِنَّ زِرَاعَةَ الْقُطْنِ فِيْهَا تَعَبٌ عَظِيْمٌ ، وَشُغْلٌ طَوِيْلٌ ، حَرَثَ الأَرْضَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ، أَوْ أَكْثَرَ ، وَشَقَّ خُطُوْطاً ، وَمَلأَهَا بِالْمَاءِ ، وَتَرَكَهَا حَتّىٰ جَفَّتْ ، وَحَفَرَ فِيْ جَنْبِهَا حُفَراً ، ثُمَّ بَذَرَ فِيْهَا بُذُوْراً مِنَ الْقُطْنِ قَدْ نَقَعَهَا بِالْمَاءِ لَيْلَةً ، وَلَمَّا نَجَمَ النَّبَاتُ عَزَقَ الْفَلاَّحُ الْخُطُوْطَ ، فَجَعَلَ بَاطِنَهَا ظَاهِرَهَا ، وَقَلَعَ الْحَشَائِشَ الَّتِي تَضُرُّ بِالْقُطْنِ ، وَأَرْوَاهَا مِرَاراً ، وَلَمْ يَزَلِ الْفَلاَّحُ يَخْدُمُ الْحَقْلَ ، وَيَتْعَبُ وَلاَ يَسْتَرِيْحُ شُهُوْراً ، حَتّىٰ ظَهَرَ فِيْهَا الْقُطْنُ ،

فَانْبَثَّ الأَوْلاَدُ مِنَ الْبَنِيْنَ وَالْبَنَاتِ فِي الْحَقْلِ ، وَجَنَوُا الْقُطْنَ .

وَلَمَّا جُمِعَ الْقُطْنُ أُرْسِلَ إِلَىٰ الْحَلاَّج ، فَحَلَجَهُ ، ثُمَّ نُقِلُ إِلَىٰ بَعْضِ الْمَصَانِعِ فَغُزِلَ ، ثُمَّ أَخَذَهُ الْحَائِكُ ، وَمَدَّهُ خُيُوطاً مُتَقَارِبَـةً ، وَلَمْ يَزَلْ يَشْتَغِلُ وَيَتْعَبُ أَيَّاماً ، حَتَّىٰ نَسَجَهُ ثَوْباً نَاعِماً مَتِيْناً ، وَاشْتَرَىٰ تَاجِرٌ ذٰلِكَ الثَّوْبَ وَوَضَعَهُ فِيْ دُكَّانِهِ ، فَذَهَبَ إِلَيْهِ أَبُوْكَ بِمَالِهِ الَّذِيْ اكْتَسَبَهُ بِعَرَقِ الْجَبِيْنِ وَتَعِبَ فِيْهِ أَيَّاماً ، وأَنْتَ مُسْتَرِيْحٌ فِي الْبَيْتِ تَأْكُلُ وَتَـنَـامُ ، وَذَهَبَ ذٰلِكَ الثَّوْبُ إِلَىٰ خَيَّاطٍ فَفَصَّلَ مِنْهُ لَكَ قَمِيْصاً ، ثُمَّ خَاطَهُ لَيْلَةَ الْعِيْدِ وَهُوَ سَاهِرٌ ، وَأَنْتَ فِيْ فِرَاشِكَ نَائِمٌ.

وَجَاءَ إِلَيْكَ الْقَمِيْصُ مِنْ غَيْرِ تَعَبٍ مِنْكَ وَشُغْلٍ ، أَفَلاَ يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَقُوْلَ إِذَا لَبِسْتَهُ:

«اللَّهُـمَّ أَنْـتَ كَسَـوْتَنِيْـهِ ، وَأَلْبَستَنِيْـهِ مِـنْ غَيْـرِ حَـوْلٍ مِنِّـيْ وَلاَ قُوَّةٍ ، أَسَأَلُكَ خَيْرَهُ ، وَخَيْرَ مَا صُنِعَ لَهُ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهِ ، وَشَرِّ مَا صُنِعَ لَهُ» .

* * *

(٤٧)

الأَسَـــدُ

الأَسَدُ مَلِكُ الْغَابَةِ ، وَسَيِّدُ السِّبَاعِ ، وَهَيْـئَتُهُ تَدُلُّ عَلَىٰ ذٰلِكَ ، فَلَهُ مَنْظَرٌ مَهِيْبٌ ، وَزَئِيْرٌ تَدْوِيْ لَهُ الْغَابَاتُ ، وَيَطِيْرُ لَهُ قَلْبُ الشُّجَاعِ؛ قَوِيُّ الْبَأْسِ ، كَبِيْرُ الْجِسْمِ ، يُحِيْطُ بِرَأْسِهِ شَعْرٌ كَبِيْرٌ يَكَادُ يَحْجُبُ رُكْبَتَيْهِ ، إِذَا غَضِبَ تَجَعَّدَتْ جَبْهَتُهُ وَخَدَّاهُ ، وَكَشَّرَ عَنْ أَنْيَابِهِ وَأَبْرَقَتْ عَيْنَاهُ ، وَاخْتَلَجَ حَاجِبَاهُ ، وَوَقَفَ شَعْرُ بَدَنِهِ ، وَضَرَبَ بِذَنَبِهِ جَنْبَيْهِ ، وَأَطْبَقَ عَيْنَيْهِ ، وَمَالَ إِلَىٰ الأَرْضِ ، وَوَثَبَ عَلَىٰ فَرِيْسَتِهِ كَالصَّاعِقَةِ ، حَتَّىٰ إِذَا ظَفِرَ بِهَا أَخَذَ فِيْ مُلاَعَبَتِها ، ثُمَّ مَزَّقَهَا بِأَنْيَابِهِ تَمْزِيْقاً.

وَإِذَا كَانَ الأَسَدُ مُقَيَّداً دَلَّتْ هَيْئَتُهُ عَلَىٰ الْهُدُوْءِ ، فَإِذَا أُفْلِتَ وَهُيِّجَ انْدَفَعَ مِنْ عَرِيْنِهِ ، وَهُوَ أَكْثَرُ شَجَاعَةً فِي اللَّيْلِ مِنْهُ فِي النَّهَارِ ، وَيَمُرُّ بِالإِنْسَانِ ، وَلاَ يَتَعَرَّضُ لَهُ إِلاَّ إِذَا كَانَ ضَارِياً أَوْ هاجَهُ إِنْسَانٌ.

وَيَهْجُمُ عَلَىٰ الْحَيْوَانَاتِ كَالْخَيْلِ وَالْجِمَالِ وَالْبَقَرِ وَغَيْرِهَا ، وَيَصِيْدُ الظَّبْيَ وَيَأْكُلُهُ بِرَغْبَةٍ ، وَتَدْفَعُهُ الْجَرَاءَةُ إِلَىٰ اخْتِطَافِ الإِنْسَانِ مِنْ بَيْنِ قَوْمِهِ.

وَأُنْثَىٰ الأَسَدِ تُعْرَفُ بِاللَّبُؤَةِ ، وَهِيَ أَصْغَرُ جُثَّةً ، وَأَخَفُّ حَرَكَةً ، وَأَشَدُّ غَضَباً مِنْهُ ، وَجَرْوُهَا يُعْرَفُ بِالشِّبْلِ ، وَيَبْدَأُ فِي الافْتِرَاسِ ، وَيَهْتَمُّ بِقُوَّتِهِ إِذَا بَلَغَ الثَّانِيَةَ مِنْ عُمُرِه.

وَمُعَدَّل طُوْلِ الأَسَدِ ثَلاَثُ أَذْرُعٍ ، وَعُلُوُّهُ ذِرَاعٌ وَرُبْعٌ ، وَمُعَدَّلُ مَا يَعِيْشُ خَمْسٌ وَعِشْرُوْنَ سَنَةً ، وَقَدْ يَبْلُغُ فِيْ قَفَصِهِ مِئَةَ سَنَةٍ أَوْ أَكْثَرَ.

* * *

(٤٨)

غُـرُوْرُ الـدُّنْـيَـا

تقُـوْلُ لَيْـسَ الْمَـاجِـدُ ... إِلاَّ الْقَنُـوْعُ الـزَّاهِـدُ
فَمَـا أَعَـزَّ مَـنْ قَنِـعْ ... وَمَـا أَذَلَّ مَـنْ طَمِـعْ
دُنْيَـاكُـمُ حَبِيْبَـةْ ... بِحُسْنِهَـا وَالطِّيْبَـةْ
لٰكِنَّهَـا غَـدَّارَةْ ... خَـدَّاعَـةٌ غَـرَّارَةْ
لَيْـسَ لَهَـا حَبِيْـبُ ... زَوَالُهَـا قَـرِيْـبُ
مَلُـوْلَـةٌ خَـوَّانَـةْ ... لَيْـسَ لَهَـا أَمَـانَـةْ
تُفَـرِّقُ الأَحْبَـابَـا ... تُشَتِّـتُ الأَتْـرَابَـا
حَـرْبُ لِمَـنْ سَـالَمَهَـا ... تَمَـلُّ مَـنْ لاَزَمَهَـا
عَـزِيْـزُهَـا ذَلِيْـلُ ... كَثِيْـرُهَـا قَلِيْـلُ
وصَـالُهَـا عَنَـاءُ ... صُـدُوْدُهَـا بَـلاَءُ
يَحْظَـىٰ بِهَـا الْجُهَّـالُ ... وَيَنْعَـمُ الأَنْـذَالُ
يَشْقَـىٰ بِهَـا اللَّبِيْـبُ ... وَيَتْعَـبُ الأَدِيْـبُ

(أبو العتاهية)

* * *

(٤٩)

رِسَالَـةٌ إِلَـىٰ رَسُـوْل الله ﷺ

إِذَا جَاءَكَ قَرِيْبٌ أَوْ صَدِيْقٌ ، وَقَالَ: إِنِّيْ مُسَافِرٌ إِلَىٰ الْوَطَنِ ، وَسَأُقَابِلُ أَبَاكَ ، فَهَلْ تُوْصِيْ بِشَيْءٍ؟ وَهَلْ لَكَ رِسَالَةٌ إِلَيْهِ أَحْمِلُهَا مِنْكَ ، وَأُبَلِّغُهَا إِلَيْهِ؟ فَلا تَشُكُّ أَنَّهُ سَيَجْتَمِعُ بِأَبِيْكَ ، وَرُبَّمَا يَسْأَلُ أَبُوْكَ عَنْكَ خَبَراً سَارّاً ، وَبُشْرَىٰ صِحَّتِكَ. فَتَقُوْلُ: تقْرَأ عَلَىٰ وَالِدِيْ مِنِّيْ السَّلاَمَ ، وَقُلْ لَهُ: إِنَّ ابْنَكَ بِخَيْرٍ ، وَكَمَا تُحِبُّ مِنْ صِحَّةٍ وَسُرُورٍ.

كَـذٰلِـكَ كَـانَ الْمُسْلِمُـوْنَ يَعْتَقِـدُوْنَ أَنَّ الْمَـوْتَ جِسْـرٌ إِلَـىٰ الآخِرَةِ ، وَكُلُّ مَنْ عَبَرَ هٰذَا الْجِسْرَ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ وَصَلَ إِلَىٰ الآخِرَةِ ، وَاجْتَمَعَ هُنَالِكَ بِرَسُوْلِ اللهِ ﷺ ، وَتَشَرَّفَ بِزِيَارَتِهِ ، وَلاَ بُـدَّ أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ سَائِلٌ عَنْ أُمَّتِهِ.

وَيُمْكِنُ أَلاَّ يَصِلَ قَرِيْبُكَ أَوْ صَدِيْقُكَ إِلَىٰ الْوَطَنِ لِمَانِعٍ أَوْ

حَادِثَةٍ ، أَوْ يَصِلَ إِلَىٰ الْوَطَنِ ، وَلاَ يَجْتَمِعَ بِأَبِيْكَ ، وَلٰكِنَّ الْمُسْلِمِيْنَ مَا كَانُوْا يَشُكُّوْنَ فِيْ وُصُوْلِ الْمَيِّتِ إِلَىٰ عَالم الآخِرَةِ ، وَاجْتِمَاع الشَّهِيْدِ بِرَسُوْلِ اللهِ ﷺ.

زَحَفَ الْمُسْلِمُوْنَ إِلَىٰ الشَّام ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَخْبَرَهُمْ: «لَتَفْتَحُنَّ كُنُوْزَ كِسْرَىٰ وَقَيْصَرَ» وَقَدْ وَعَدَهُمَا اللهُ بِالنَّصْرِ ، وَقَالَ: «وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْمَنْصُورُوْنَ ، وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُوْنَ» وَكَانُوْا وَاثِقِيْنَ بِالنَّصْرِ وَالْفَتْح ، وَكَذٰلِك كَانَ ، فَقَدْ فَتَحُوْا مَدِيْنَةً بَعْدَ مَدِيْنَةٍ ، وَهَزَمُوَا جُنْداً بَعْدَ جُنْدٍ.

وَجَاءَ رَجُل يَوْمَ الْيَرْمُوْكِ إِلَىٰ أَبِيْ عُبَيْدَةَ ـ رضي الله عَنْهُ ، قَائِدِ الْمُسْلِمِيْنَ ـ فَقَالَ: إِنَّنِيْ قَدْ تَهَيَّأْتُ لأَمْرِيْ أَيْ لِلشَّهَادَةِ ، فَهَلْ لَكَ مِنْ حَاجَةٍ إِلَىٰ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ.

قَالَ أَبُوْ عُبَيْدَةَ: نَعَم! تُقْرِئُهُ عَنِّيْ السَّلاَمَ ، وَتَقُوْلُ: يَا رَسُوْلَ اللهِ ﷺ! إِنَّا قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً.

* * *

(٥٠)

حَـادِثَـــةٌ

زَارَنَا مَرَّةً ضَيْفٌ كَرِيْمٌ، وَبَاتَ عِنْدَنَا لَيْلَةً ، وَفِي الصَّبَاحِ قُلْتُ لَهُ: أَتَسْتَحِمُّ يَاسَيِّدِيْ؟

وَكَانَ يَوْمُ جُمُعَةٍ ، قَالَ: نَعَمْ! قُلْتُ: هٰذَا مُغْتَسَلٌ ، قَالَ: بَلْ أَسْتَحِمُّ فِي النَّهْرِ.

وَكَانَ الشَّيْخُ يَعْرِفُ السِّبَاحَةَ إِلاَّ أَنَّهُ لَمْ يَتَّفِقْ لَهُ أَنْ يَسْبَحَ مِنْ مُــدَّةٍ طَـوِيْلَـةٍ ، وَسَمِعْـتُ أَنَّ الإِنْسَـانَ لاَ يَنْسَـىٰ السِّبَـاحَـةَ إِذَا تَعَلَّمَهَا ، إِلاَّ أَنَّـهُ يَتْعَبُ سَرِيْعَاً.

وَكَانَ النَّهْرُ فَائِضَاً وَكَانَ يَجْرِيْ بِقُوَّةٍ ، فَخَاضَ الشَّيْخُ النَّهْرَ ، وَبَدَأَ يَسْبَحُ ، فَمَا لَبِثَ أَنْ كَلَّتْ عَضُدُهُ ، وَخَارَتْ قُوَاهُ وَأَعْيَا ، وَدَفَعَهُ الْمَاءُ بِقُوَّةٍ ، فَجَعَلَ يَجْرِيْ فِيْ تَيَّارِهِ لاَ يَمْلِكُ مِنْ أَمْرِهِ شَيْئَاً ، وَأَيْقَنَ بِالشَّرِّ.

فَجَعَلَ يَصْرخُ وَيَسْتَغِيْـثُ ، وَيَقُـوْلُ: يَا رَجُلاً! خُـذْ بِيَدِيْ ، وَجَعَلَ يَذْكُرُ ، وَيَقُـوْلُ: اللهُ! اللهُ! كَأَنَّهُ فِـيْ آخِرِ عَهْدِهِ بِالدُّنْيَا ، وَجَعَلَ يَغْطِسُ وَيَطْفُوْ.

فَسُقِطَ فِيْ أَيْدِيْنَا ، وَخِفْنَا عَلَيْهِ الْغَرَقَ ، وَكَانَ أَحَدُ أَقَارِبِنَا مِمَّنْ يُحْسِنُوْنَ السِّبَاحَةَ يَغْتَسِلُ فِي النَّهْرِ فَقُلْنَا: دُوْنَكَ الأُسْتَاذَ ، فَتَـقَدَّمَ إِلَيْهِ بِسُرْعَةٍ ، وَلَمَّا رَأَىٰ الشَّيْخُ مُنْجِداً تَشَجَّعَ قَلِيْلاً ، وَأَرَادَ أَنْ يُمْسِكَهُ.

وَلٰكِنْ كَانَ الرَّجُلُ عَاقِلاً مُجَرِّباً ، وَكَانَ يَعْرِفُ أَنَّ الْغَرِيْقَ يَرْكَبُ مَنْ يُنْجِدُ وَيَأْخُذُ بِتَلاَبِيْبِهِ ، وَيَغْرَقَانِ جَمِيْعاً ، فَلَمْ يُمْكِـنْـهُ مِنْ نَفْسِهِ ، بَلْ غَطَسَ وَدَفَعَهُ مِنْ أَسْفَلَ إِلَىٰ الشَّاطِىءِ ، وَلَمْ يَزَلِ الشَّيْخُ يَجْتَهِدُ أَنْ يُمْسِكَهُ ، وَالرَّجُلُ يَدْفَعُهُ إِلَىٰ الأَمَامِ حَتَّى أَوْصَلَهُ إِلَىٰ الشَّاطِىءِ.

وَكَانَ الشَّيْخُ كَالْمُغْمَىٰ عَلَيْـهِ لاَ يَعْقِلُ شَيْئـاً ، وَكَانَ عَلَـىٰ الشَّاطِىءِ رَجُلٌ يَصِيْدُ السَّمَكَ ، فَأَشَارَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ وَقَـالَ: مُـدَّ عُوْدَكَ لِيُمْسِكَهُ الشَّيْخُ ، فَمَدَّ الصَّيَّادُ عُوْدَهُ ، وَجَعَلَ يَضْرِبُ بِـهِ عَلَىٰ رَأْسِهِ ، وَهُوَ لاَ يَشْعُرُ وَلاَ يُمْسِكُهُ ، وَبَعْدَ حِيْنٍ أَمْسَكَ بِالْعُوْدِ ، وَوَصَلَ إِلَىٰ الشَّاطِىءِ.

وَكَـانَ الشَّيْـخُ قَـدْ شَرِبَ كَثِيْـراً مِنَ الْمَـاءِ ، فَنَكَّسُـوْهُ حَتَّـىٰ

قَـاءَ وَأَفَـاقَ ، وَرَجَـعَ إِلَيْـهِ الـشُّعُـوْرُ وَالْقُـوَّةُ.

وَكَانَ عَلَىٰ شَاطِىءٍ آخَرَ مِنَ النَّهْرِ ، فَصَنَعُوْا لَهُ مَرْكَباً مِنَ الْجِرَارِ ، وَرَكِبَـهُ الشَّيْخُ ، وَأَمْسَكَ بِالْحَبْـلِ ، وَحَوْلَـهُ عَـدَدٌ مِنْ فُرْسَانِ السِّبَاحَـةِ ، وَأَبْطَالِ الْمَـاءِ ، وَرَجَـعَ فِي الْمَوْكِـبِ إِلَىٰ الشَّاطِىءِ ، وَقَدْ ذُعِرَ الأُسْتَاذُ بِهٰذِهِ الْحَادِثَةِ ، فَكَانَ يُوْصِيْ كُلَّ مَنْ يَزُوْرُ قَرْيَتَنَا أَلاَّ يَدْخُلَ النَّهْرَ ، وَكَانَ يَقُوْلُ: إِذَا أَرَدْتَّ أَنْ تَتَمَتَّعَ بِالدُّنْيَا ، فَإِيَّاكَ وَالنَّهْرَ.

وَكَانَ الشَّيْخُ لاَ يَزَالُ يَعْتِبُ عَلَىٰ الرَّجُلِ أَنَّهُ لَمْ يُنْجِدْهُ ، وَلَمْ يَمُدَّ إِلَيْهِ يَدَهُ ، وَلاَ يَرَاهُ مَعْذُوْراً فِيْ هٰذَا الأَمْرِ.

* * *

(٥١)

فَتَىٰ الإِسْلَامِ

هَلْ تَعْرِفُ فِتْيَانَاً هُمْ فِي السَّابِعَةَ عَشَرَةَ ، أَوِ الثَّامِنَةَ عَشَرَةَ مِنْ عُمُرِهِمْ؟ بَلَّغَكَ اللهُ فَوْقَ هٰذِهِ السِّنّ وَعَمَّرَكَ طَوِيْلاً .

إِنَّكَ لَتَعْرِفُ مِنْهُمْ كَثِيْراً! فَهَلْ تَعْرِف عَنْهُمْ غَيْرَ أَنَّهُمْ يَأْكُلُوْنَ وَيَشْرَبُوْنَ ، وَيَرْتَعُوْنَ وَيَلْعَبُوْنَ وَيَتَجَمَّلُوْنَ فِي الْمَلَابِس ، وَيَتَأَنَّقُوْنُ فِيْ الْهِنْدَامِ وَالزِّيْنَةِ .

وَإِذَا امْتَازَ فِيْهِمْ فَتىً ، وَعَلَتْ هِمَّتُهُ ، عَكَفَ عَلَىٰ دِرَاسَتِهِ وَمُطَالَعَتِهِ ، وَجَدَّ فِيْهَا وَاجْتَهَدَ ، حَتَّىٰ بَرَزَ فِي الاِخْتِبَارَاتِ ، وَأَحْرَزَ الْجَوَائِزَ وَالْوِسَامَاتِ .

وَإِذَا طَمَحَ فِيْهِمْ شَابٌّ اجْتَهَدَ لِوَظِيْفَةٍ فِيْ مَصْلَحَةٍ مِنْ مَصَالِحِ الْحُكُوْمَةِ فَصَارَ يَتَقَاضَىٰ رَاتِباً شَهْرِيّاً .

ذٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ، وَتِلْكَ أَقْصَىٰ أَمَانِيْهِمْ فِي الْحَيَاةِ .

وَلٰكِنْ لَمَّا كَانَتْ دَوْلَةُ الإِسْلاَمِ ، وَكَانَتِ الْهِمَمُ عَالِيَةً ، كَانَ الشَّابُّ الْمُسْلِمُ يَطْمَحُ إِلَىٰ إِقَامَةِ الْجِهَادِ ، وَفَتْحِ الْبِلاَدِ ، فَيَفْتَحُ قُطْراً أَوْ يُؤَسِّسُ دَوْلَةً أَوْ يَمُوْتُ شَهِيْداً.

هٰذَا مُحَمَّدُ بْنُ قَاسِمٍ الثَّقَفِيُّ قَدْ غَزَا الْهِنْد ـ وَهِيَ بِلاَدٌ بَعِيْدَةٌ مِنْ بِلاَدِ الْعَرَبِ وَرَاءَ الْبِحَارِ ـ فَهَزَمَ الْجُنُوْدَ ، وَقَتَلَ الْمُلُوْكَ ، وَوَظَّفَ الْخِرَاجَ ، وَسَبَىٰ الذُّرِّيَّةَ ، وَفَتَحَ مُحَمَّدٌ السِّنْدَ ، وَتَوَغَّلَ فِي الْهِنْدِ ، حَتَّىٰ قَطَعَ نَهْرَ بَيَاسَ إِلَىٰ الْمُلْتَانِ ، وَفَتَحَهَا ، وَخَضَعَ أَهْلُ الْهِنْدِ لِمُحَمَّدٍ ، وَأَحَبُّوْهُ لِدِيْنِهِ وَكَرَمِهِ وَعَدْلِهِ ، مَعَ أَنَّ الْعَدُوَّ الْقَاهِرَ لاَ يُحَبُّ ، وَصَنَعُوْا لَهُ تِمْثَالاً عَلَىٰ عَادَةِ أَهْلِ الْهِنْدِ.

وَتِلْكَ الْفُتُوْحُ الْعَظِيْمَةُ كُلُّهَا كَانَتْ فِيْ مُدَّةٍ قَصِيْرَةٍ جِدًّاً.

هٰذَا ، وَفَاتِحُ السِّنْدِ لَمْ يَتَجَاوَزِ السَّابِعَةَ عَشَرَةَ مِنْ عُمُرِهِ ، وَفِيْ ذٰلِكَ قَالَ الشَّاعِرُ:

سَاسَ الرِّجَالَ لِسَبْعَ عَشَرَةَ حِجَّةً
وَلِدَاتُهُ عَنْ ذَاكَ فِيْ أَشْغَالِ

* * *

(٥٢)

الرِّمَايَةُ

سَأَلْتُ أَبِيْ أَنْ يَشْتَرِيَ لِيْ بُنْدُقِيَّةً صَغِيْرَةً ، لأَصِيْدَ الطُّيُوْرَ: كَالْيمام وَالْحَمَامِ وَالْغُرَابِ الَّذِيْ يُؤْذِيْ كَثِيْراً وَيَلِغُ فِي الْمَاءِ ، وَأَتَمَرَّنَ عَلَىٰ الرَّمْيِ ، فَاشْتَرَىٰ لِيْ بُنْدُقِيَّةً وَحُقَّةً مِنَ الرَّشَاشِ.

وَكُنْتُ إِذَا رَجَعْتُ مِنَ الْمَدْرَسَةِ ، أَوْ كَانَ يَوْمُ عُطْلَةٍ أَخَذْتُ الْبُنْدُقِيَّةَ ، وَعَدَداً مِنَ الرَّشَاشِ ، وَذَهَبْتُ إِلَىٰ الْبُسْتَانِ أَرْمِي الطُّيُوْرَ.

وَفِي الأَوَّلِ لاَ أُصِيْبُ طَائِراً ، وَأُخْطِىءُ كُلَّ مَرَّةٍ ، ثُمَّ صِرْتُ أُصِيْبُ مَرَّةً فِيْ ثَلاَثِ طَلَقَاتٍ ، وَأَصِيْدُ بَعْضَ الطُّيُوْرِ ، حَتَّىٰ تَمَرَّنْتُ فِيْ شَهْرَيْنِ ، وَاشْتَدَّ سَاعِدِيْ.

وَرَأَيْتُ عِنْدَ رَجُلٍ مِنَ الأَغْنِيَاءِ شَيْئاً غَرِيْباً ، كَانَتْ عِنْدَهُ

صَفِيْحَةٌ ، وَكَانَ عَلَىٰ وَجْهِ الصَّفِيْحَةِ مِثْلُ فَلْسٍ ، لَهُ لَوْنٌ يَلْمَعُ ، وَيَظْهَرُ مِنْ بَعِيْدٍ .

وَكَانَ بِجَانِبِ هٰذَا الْفَلْسِ مِثْلُ جِرَابٍ ، كَانَ يَشْحَنُهُ بِالْبَارُوْدِ ، وَيَسُدّهُ بِالْقِرْطَاسِ ، وَكَانَ فِيْ هٰذِهِ الصَّفِيْحَةِ رَسْمٌ مِنْ حَدِيْدٍ : جُنْدِيٌّ فِيْ لِبَاسِ جُنْدِيٍّ ، فِيْ يَدِهِ قُبَّعَةٌ .

وَكُنَّا نُبَارِيْ فِي الرَّمْي ، وَنَرْمِيْ هٰذَا الْفَلْسِ بِالرَّشَاشِ ، فَإِذَا أَصَابَ إِنْسَانٌ الْفَلْسَ انْطَلَقَ الْمِدْفَعُ ، وَسَمِعَ النَّاسُ صَوْتَهُ مِنْ بَعِيْدٍ ، وَانْفَتَحَ الْبَابُ ، وَخَرَجَ رَجُلٌ مِنْ حَدِيْدٍ ، فِيْ يَده عَلاَمَةٌ يُشِيْرُ بِهَا إِلَىٰ الْهَدَفِ وَيُخْبِرُ بِالإِصَابَةِ .

وَظَهَرَ الْجُنْدِيُّ رَافِعاً قُبَّعَتَهُ يُسَلِّمُ عَلَىٰ الْمُصِيْبِ ، وَكَأَنَّهُ يُهَنِّئُهُ بِنَجاحِهِ .

وَإِذَا أَخْطَأَ النَّاسُ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ : لَمْ يَنْطَلِقِ الْمِدْفَعُ ، وَلَمْ يَتَحَرَّكِ الْجُنْدِيُّ مِنْ مَكَانِهِ ، وَمِنَ الْغَرِيْبِ أَنِّي كُنْتُ أُصِيْبُ الْفَلْسَ فِي الْمَرَّةِ الثَّالِثَةِ دَائِماً ، وَإِذَ انْطَلَقَ الْمِدْفَعُ سُرِرْتُ سُرُوْراً عَظِيْماً .

وَبَعْدَ أَشْهُرٍ قَدَرْتُ أَنْ أَسْتَعْمِلَ الْبُنْدُقِيَّةَ الْكَبِيْرَةَ ، فَكُنْتُ أَخْرُجُ فِي الصَّيْدِ ، وَأَصِيْدُ الْحَمَامَ الأَخْضَرَ وَالْبَطَّ وَأَنوَاعاً مِنَ الطُّيُوْرِ .

وَسَمِعْتُ الْمُعَلِّمَ يَقُوْلُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ حَثَّ عَلَىٰ الرَّمْيِ كَثِيْراً ، وَشَارَكَ فِي الْمُنَاضَلَةِ ، وَقَالَ: «ارْمُوْا يَا بَنِيْ إِسْمَاعِيْلَ! فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِياً» وَقَالَ: «أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ».

فَسُرِرْتُ كَثِيْراً ، وَعَلِمْتُ أَنَّ عَمَلِي لَمْ يَكُنْ عَبَثاً ، وَأَنِّيْ لَمْ أُضَيِّعْ وَقْتِي.

* * *

(٥٣)

الْــجَمَـــلُ

(١)

انْظُرُوْا إِلَىٰ الإِبِلِ: كَيْفَ خُلِقَتْ ، تَرَوْهَا لاَ مَثِيْلَ لَهَا فِي الْخِلْقَةِ ، فَإِنَّ الْجَمَلَ أَكْبَرُ الْحَيَوَانِ الدَّاجِنِ جِسْماً وَأَطْوَلُهُ سَاقاً ، وَلِذٰلِكَ كَانَتْ رَقَبَتُهُ طَوِيْلَةً ، حَتَّىٰ يُمْكِنَهُ أَنْ يَرْعَىٰ الْكَلأَ مِنَ الأَرْضِ بِدُوْنِ أَنْ يَبْرُكَ ، وَرَأْسُهُ صَغِيْرٌ لِيَكُوْنَ خَفِيْفَ الْحَمْلِ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ ، وَأَرْجُلُهُ فِيْهَا أَخْفَافٌ تَمْنَعُ سَوْخَها فِي رِمَالِ الصَّحْرَاءِ الَّتِيْ كَثِيْراً مَا يَسِيْرُ فِيْهَا ، وَعَلَىٰ ظَهْرِهِ سَنَامٌ كُلُّهُ شَحْمٌ ، يُرَكَّبُ عَلَيْهِ الْقَتَبُ ، وَعَيْنَاهُ سَوْدَاوَانِ وَاسِعَتَانِ ، تَشِفَّانِ عَنْ حِلْمٍ وَدَعَةٍ ، وَلَهُ فِيْ وَسْطِ بَطْنِهِ قُرْصٌ غَلِيْظٌ يُسَمَّىٰ الْكَلْكَل ، يَسْتَنِدُ عَلَيْهِ مَتَىٰ بَرَكَ ، وَلَهُ فِيْ أَرْجُلِهِ قِطَعٌ عَدِيْمَةُ الْحِسِّ فِيْ مَوَاقِعِهَا عَلَىٰ الأَرْضِ.

وَجَوْفُ الْجَمَلِ عَجِيْبٌ فِيْ تَرْكِيْبِهِ ، لأَنَّهُ يَحْتَوِيْ عَلَىٰ جُمْلَةِ كُرُوْشٍ ، يَخْزُنُ فِيْهَا مِقْدَاراً عَظِيْماً مِنَ الْغِذَاءِ ، حَتَّى إِذَا جَاعَ ، وَلَمْ يَجِدْ أَكْلاً ، أَخْرَجَ مِنْ كِرْشِهِ جِرَّةً ، وَاجْتَرَّهَا ، وَلِذَٰلِكَ يُسَمَّىٰ حَيَوَاناً مُجْتَرّاً ، وَإِذَا فَرَغَ مَا خَزَنَـهُ فِيْ جَوْفِهِ ، فَإِنَّ شَحْمَ سَنَامِهِ يَتَحَلَّلُ شَيْئاً فَشَيْئاً لِيَغْذُوَهُ وَيَكْفِيْهِ مُدَّةً طَوِيْلَةً .

وَلِلْجَمَلِ فِيْ جَوْفِهِ جُمْلَةُ أَزْقَاقٍ تَمْتَلِىءُ بِالْمَاءِ عِنْدَمَا يَشْرَبُ ، حَتَّىٰ إِذَا عَطِشَ فِيْ مَكَانٍ قَـفْرٍ لاَ مَاءَ فِيْهِ ، أَغْنَاهُ مَا خَزَنَـهُ عَنِ الشُّرْبِ زَمَناً طَوِيْلاً .

* * *

(٥٤)
الْـجَمَــلُ
(٢)

فِيْ عِدَّةِ جِهَاتٍ مِنَ الدُّنْيَا صَحَارَىٰ قَاحِلَةٌ لاَ حَيَوَانَ فِيْهَا . وَلاَ نَبَاتَ ، أَرْضُهَا رِمَالٌ جَافَّةٌ .

لاَ تَرَىٰ فِيْهَا قَطْرَةَ مَاءٍ ، يَسْلُكُهَا النَّاسُ اضْطِرَاراً ، فَيَحْمِلُوْنَ زَادَهُمْ: مِنْ مَاءٍ وَطَعَامٍ ، عَلَىٰ ظُهُوْرِ الْجِمَالِ ، وَيَسِيْرُوْنَ فِيْ تِلْكَ الْقِفَارِ مُجْتَمِعِيْنَ ، وَإِبِلُهُمْ مُتَتَابِعَةٌ كَالْقِطَارِ ، وَهِيَ تَسِيْرُ بِهِمْ هَادِئَةً سَاكِنَةً ، تَصْبِرُ عَلَىٰ الْجُوْعِ وَالْعَطَشِ مُعْظَمَ الطَّرِيْقِ ، لأَنَّهَا قَدْ خَزَنَتْ مُؤْنَتَـهَا فِيْ جَوْفِهَا قَبْلَ الرَّحِيْلِ ، وَتَحْمِلُ فَوْقَ ذٰلِكَ مِنَ الْمَتَاجِرِ أَحْمَالاً ثِقَالاً ، لاَ تَئِنُّ مِنْهَا وَلاَ تَكِلُّ ، فَتَرَىٰ الْجَمَلَ كَأَنَّهُ مَرْكَبٌ يَشُقُّ تِلْكَ الرِّمَالَ الْوَاسِعَةَ ، وَلِذَا سُمِّيَ «سَفِيْنَةَ الصَّحْرَاءِ» . وَإِنَّ ضَلَّ الْمُسَافِرُوْنَ الطَّرِيْقَ فِي الصَّحْرَاءِ يَأْخُذُهُمْ

الْقَلَقُ عَلَىٰ حَيَاتِهِمْ ، مَخَافَةَ أَنْ يَنْفَدَ زَادُهُمْ فَيَمُوْتُوْنَ جُوْعاً وَعَطَشاً ، وَلٰكِنَّ الْجَمَلَ يُنْقِذُهُمْ أَحْيَاناً مِنْ تِلْكَ الأَخْطَارِ ، لأَنَّهُ يَشُمُّ الْمَاءَ مِنْ بُعْدٍ ، فَيَسِيْرُ نَحْوَهُ بِسُرْعَةٍ غَرِيْبَةٍ ، لِيَسْتَقِيَ صَاحِبُهُ.

وَالْجَمَلُ سَهْلُ الْقِيَادِ ، لَيِّنُ الطِّبَاعِ ، يَتَحَمَّلُ كَثِيْراً مِنَ الأَذَىٰ بِالصَّبْرِ ، وَلٰكِنَّهُ يَثُوْرُ مَتَّىٰ بَلَغَ الأَذَىٰ شِدَّةً عَظِيْمَةً ، فَيَنْتَقِمُ مِمَّنْ آذَاهُ ، وَلاَ يَتْرُكُهُ إِلاَّ إِذَا ثَأَرَ لِنَفْسِهِ وَفَتَكَ بِهِ.

وَإِذَا قَوِيَ الْجَمَلُ اشْتَدَّ بَأْسُهُ وعَافَ الأَكْلَ مَا لَمْ يُوْضَعُ فِيْ فَمِهِ ، وَيَقُوْلُ النَّاسُ عَنْهُ: إِنَّهُ صَائِمٌ ، وَفِيْ هٰذِهِ الْحَالَةِ يُخْرِجُ شِقْشِقَتَهُ مِنْ حَلْقِهِ وَيُشَقْشِقُ مِنَ الْغَضَبِ.

* * *

(٥٥)

أَنَا هُنَا فَاعْرِفُوْنِي!

مَوْلِدِيْ وَوَطَنِيْ مَا تُسَمُّوْنَهُ الْبَحْرَ! أَنَا ابْنُ أُمَّةٍ عظِيْمَةٍ ، قَدِ امْتَدَّتْ عَلَىٰ مَسَافَةِ آلَافٍ مِنَ الأَمْيَالِ ، وَيَقُوْلُوْنَ: إِنَّ أُمَّتِيْ أَعْظَمُ مِنْ أُمَّةِ الْبَرِّ؛ فَقَدْ شَغَلْنَا نَحْنُ ثَلاَثَةَ أَرْبَاعِ الْكُرَةِ ، وَالْيَابِسُ مِنْهَا نَحْوُ رُبْعٍ.

وَقَدْ فَارَقْتُ وَطَنِيْ قَبْلَ شَهْرَيْنِ ، لَمَّا اشْتَدَّ الْحَرُّ فِيْ هٰذَا الصَّيْفِ ، تَكَوَّنَ بُخَارٌ ، وَفَارَقَ الْبَحْرَ ، وَسَارَتْ بِهِ الرِّيَاحُ إِلَىٰ الْجِبَالِ ، وَهُوَ السَّحَابُ الْمُسَخَّرُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، فَلَمَّا جَاءَهُ الأَمْرُ مِنَ اللهِ ، تَحَلَّلَ هٰذَا الْبُخَارُ بِالْحَرَارَةِ ، وَنَـزَلَ قَطَرَاتٍ قَطَرَاتٍ عَلَىٰ الأَرْضِ ، وَقَالَ النَّاسُ: الْمَطَرُ! الْمَطَرُ! وَأَنَا هُنَا ، فَاعْرِفُوْنِيْ.

لَعَلَّكُمْ رَأَيْتُمْ قِدْراً عَلَىٰ النَّارِ فِيْهَا مَاءٌ ، فَإِذَا غَلَتِ الْقِدْرُ ،

تَصَاعَدَ مِنْهَا مِثْلُ دُخَانٍ ، وَهُوَ الْبُخَارُ ، وَأَنَا هُنَا ، فَاعْرِفُوْنِيْ .

وَإِذَا نَـزَلَ الْمَطَرُ ، وَجَمَدَتْ قَطَرَاتِيْ مِنَ الْبَرْدِ ، وَوَقَعَتْ عَلَىٰ الأَرْضِ مِثْلَ الزُّجَاجِ ، قَالَ النَّاسُ: الْـبَـرَدُ! الْبَرَدُ! وَأَنَا هُنَا ، فَاعْرِفُوْنِيْ .

وَقَدْ أَسْقُطُ فِي الْجِبَالِ مِثْلَ الصُّوْفِ الأَبْيَضِ اللاَّمِعِ ، وَأَلْمَعُ فِي الشَّمْسِ مِثْـلَ اللُّجَيْنِ ، فَيَـكُوْنُ مَنْظَراً جَمِيْلاً ، وَيَقُوْلُ النَّاسُ: الثَّلْجُ! الثَّلْجُ! وَأَنَا هُنَا ، فَاعْرِفُوْنِيْ .

وَقَدْ يَشْتَـدُّ الْبَـرْدُ فِي الشِّتَـاءِ ، فَيَجْمُـدُ مَا كَانَ مِنَ الْمَـاءِ ، وَيَقُوْلُ النَّاسُ: الْجَلِيْدُ الْجَلِيْدُ! وَأَنَا هُنَا ، فَاعْرِفُوْنِي! .

وَإِذَا هَبَطْتُ مِنَ الْجِبَالِ إِلَىٰ الأَرْضِ ، وَزَاحَمَنِي صُخُوْرٌ أَوْ أَحْجَارٌ ، كَانَ شَلاَّلٌ يَكُوْنُ لَهُ صَوْتٌ هَائِلٌ وَمَنْظَرٌ جَمِيْلٌ ، وَأَنَا هُنَا ، فَاعْرِفُوْنِيْ !

وَإِذَا اجْتَمَعَتْ شَـلاَّلاَتٌ ، خَـرَجْـتُ مِـنَ الْجِبَـالِ ، فَكُنْتُ نَهْراً ، يَكُوْنُ فِي مَبْدَئِهِ صَغِيْراً ، ثُمَّ يَكُوْنُ عَرِيْضاً عَمِيْقاً ، وَقَالَ النَّاسُ: نَهْرُ السِّنْدِ وَنَهْرُ دِجْلَةَ ، وَالْفُرَاتِ ، وَالنِّيْلِ ، وَأَنَا هُنَا ، فَاعْرِفُوْنِيْ .

لَعَلَّكَ رَأَيْتَ فِي الصَّبَاحِ أَيَّام الشِّتَاءِ مِثْلَ الدُّخَانِ ، وَيُسَمِّيْهِ النَّاسُ الضَّبَابَ ، وَأَنَا هُنَا ، فَاعْرِفُوْنِيْ .

وَلَعَلَّكَ رَأَيْتَ قَطَرَاتٍ عَلَىٰ أَوْرَاقِ الأَشْجَارِ ، وَعَلَىٰ العُشْبِ وَالأَزْهَارِ ، فِيْ أَيَّامِ الشِّتَاءِ ، وَيُسَمِّيْهَا النَّاسُ الطَّلَّ وَالنَّدَىٰ ، وَأَنَا هُنَا ، فَاعْرِفُوْنِيْ.

وَقَدَ أَجْمُدُ بِالصِّنَاعَةِ فِي الْمَصَانِعِ ، وَيَحْرِصُ عَلَيَّ النَّاسُ أَيَّامَ الصَّيْفِ ، فَلاَ يَشْرَبُوْنَ الْمَاءَ بِغَيْرِ هٰذَا الْجَمَدِ ، وَلاَ يَرْوَوْنَ إِلَّا بِهِ ، وَأَنَا هُنَا ، فَاعْرِفُوْنِي.

* * *

(٥٦)

سَفِيْنَـةٌ عَلَـىٰ الْبَـــرِّ

هَلْ سَمِعْتَ بِسَفِيْـنَـةٍ تَسِيْرُ عَلَىٰ الْبَرِّ؟ وَهَلْ تُصَدِّقُ إِذَا أَخْبَرَكَ بِـهِ أَحَدٌ؟!

أَظُنَّكَ تَـقُوْلُ ـ وَلَكَ الْحَقُّ ـ: مَا سَمِعْنَـا بِهٰذَا فِيْ آبَائِنَـا الأَوَّلِيْنَ. وَلٰكِنَّ مُحَمَّداً الثَّانِيَ الْعُثْمَانِيَّ فَاتِحَ الْقُسْطَنْطِيْنِيَّةِ، سَيَّرَ سَبْعِيْنَ سَفِيْنَةً عَلَىٰ الْبَرِّ.

هَلْ تَعْرِفُ كَيْفَ كَانَ ذٰلِكَ؟

غَـزَا الْعَـرَبُ الْقُسْطَنْطِيْنِيَّـةَ الْعُظْمَـىٰ سِـتَّ مَـرَّاتٍ، وَلَـمْ يَفْتَحُوْهَا، وَقَدْ قَدَّرَ اللهُ أَنْ يَكُوْنَ هٰذَا الْفَتْحُ الْعَظِيْمُ بِيَدِ شَابٍّ مُسْلِمٍ مِنْ آلِ عُثْمَانَ، وَهُوَ فِي الرَّابِعَةِ وَالْعِشْرِيْنَ مِنْ عُمُرِهِ، وَذٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيْهِ مَنْ يَشَاءُ.

زَحفَ مُحَمَّدٌ إِلَىٰ الْقُسْطَنْطِيْنِيَّةِ ، وَأَعَدَّ لِذٰلِكَ عُدَّةً عَظِيْمَةً ، فَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ:

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ .

فَكَانَ تَحْتَ قِيَادَتِهِ ثَلاَثُمِئَةِ أَلْفِ مُقَاتِلٍ ، وَمَعَهُ مِدْفَعِيَّةٌ هَائِلَةٌ ، فِيْهَا مِدْفَعٌ لا يُوْجَدُ فِيْ أَوْرُبَّا أَضْخَمُ مِنْهُ ، أَعَدَّهُ لِذٰلِكَ ، مَرْمَاهُ أَكْثَرُ مِنْ مِيْلٍ .

وَكَانَ أُسْطُوْلُهُ مُرَكَّباً مِنْ مِئَةِ سَفِيْنَةٍ حَرْبِيَّةٍ .

وَكَانَ مُحَمَّدٌ رَأَىٰ أَنَّ الْعَدُوَّ قَدْ سَلْسَلَ خَلِيْجَ قَرْنِ الذَّهَبِ ـ وَهُوَ مَدْخَلُ الْقُسْطَنْطِيْنِيَّةِ ـ بِالسَّلاَسِلِ ، فَكَيْفَ يَعْبُرُهُ بِأُسْطُوْلِهِ؟

فَكَّرَ مُحَمَّدٌ ، وَلَمْ يَعْجَزْ وَلَمْ يَيْأَسْ ، وَوَجَدَ حِيْلَةً!

رَأَىٰ أَنَّهُ يُمْكِنُ الْعُبُوْرُ إِلَىٰ الْقُسْطَنْطِيْنِيَّةِ مِنْ جِهَةِ قَاسم بَاشَا .

وَلٰكِنَّ هٰذِهِ الْجِهَةَ بَعِيْدَةٌ مِنْ سُفُنِهِ ، فَمَنْ يَحْمِلُهَا وَمَنْ يَنْقُلُهَا مِنْ هٰذِهِ الْجِهَةِ إِلَىٰ تِلْكَ الْجِهَةِ ، وَالْمَسَافَةُ بَعِيْدَةٌ؟

فَكَّرَ مُحَمَّدٌ ، وَلَمْ يَعْجَزْ وَلَمْ يَيْأَسْ وَوَجَدَ حِيْلَةً!

طَلَىٰ الأَخْشَابَ بِالشَّحْمِ ، فَلَمَّا أَمْلَسَتْ أَزْلَقَ عَلَيْهَا السُّفُنَ ، وَهِيَ سَبْعُوْنَ سَفِيْنَةٍ .

وَمَا رَاعَ أَهْلُ الْقُسْطَنْطِيْنِيَّةِ ، إِلاَّ وَسُفُنُ الْمُسْلِمِيْنَ قَدْ أَرْسَتْ

عَلَىٰ سَاحِلِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ ، وَسُقِطَ فِيْ أَيْدِيْهِمْ .

وَهٰكَذَا أَخَذَ مُحَمَّدٌ الْقُسْطَنْطِينِيَّـةَ ـ عَاصِمَةَ الدَّوْلَةِ الْبِيْزَنْطِيَّةِ ـ وَسَقَطَتْ عَاصِمَةُ النَّصْرَانِيَّةِ الْمَنِيْعَةُ أَمَامَ قَائِدٍ مُسْلِم شَابٍّ .

وَلَا تَـزَالُ هٰذِهِ الْمَدِيْنَةُ الْعَظِيْمَةُ ، وَتُرْكِـيَّا ، فِيْ يَدِ الْمُسْلِمِيْنَ مِنْ سَنَةِ ٨٥٣ هـ ـ يَوْمَ فَتَحَهَا مُحَمَّدُ بْنُ مُرَادٍ ـ إِلَىٰ يَوْمِ النَّاسِ هٰذَا .

و﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ﴾ .

* * *

(٥٧)

الْخَلِيْفَةُ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيْزِ

رحمة الله عليه

(١)

وُلِدَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيْزِ سَنَةَ ٦١ هـ. وَأُمُّهُ أُمُّ عَاصِمٍ بِنْتُ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْن الْخَطَّابِ ، جَمَعَ الْقُرْآنَ ، وَهُوَ صَغِيْرٌ ، وَبَعَثَهُ أَبُوْهُ إِلَىٰ الْمَدِيْنَةِ يَتَأَدَّبُ بِهَا ، وَكَانَ يَأْتِيْ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ كَثِيْراً ، لِمَكَانِ أُمِّهِ مِنْهُ ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَىٰ أُمِّهِ ، فَيَقُوْلُ: يَا أُمَّهْ! أَنَا أُحِبُّ أَنْ أَكُوْنَ مِثْلَ خَالِيْ.

وَكَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيْزِ فِيْ شَبَابِهِ مُتَنَعِّماً ، يُكْثِرُ مِنَ الطِّيْبِ ، حَتَّىٰ تُوْجَدَ رَائِحَتُهُ فِي الْمَكَانِ الَّذِيْ يَمُرُّ بِهِ ، وَيَمْشِيْ مِشْيَةً تُسَمَّىٰ «الْعُمَرِيَّةَ» كَانَ الْجَوَارِيْ يَتَعَلَّمْنَهَا مِنْ حُسْنِهَا ، وَلَمْ

يَـزَلْ عَلَىٰ هٰذَا التَّنَعُّمِ ، حَتَّىٰ وَلِيَ الْخِلاَفَةَ ، فَـزَهِدَ فِي الدُّنْـيَـا وَرَفَضَهَا .

وَكَانَ فِيْ شَبَابِهِ ، وَوِلاَيَتِهِ لِلْمَدِيْنَةِ ، كَثِيْرَ التَّعْظِيْمِ لِلْعُلَمَاءِ ، شَدِيْدَ الإِعْظَامِ لِمَسْجِدِ الرَّسُوْلِ ﷺ ، خَاشِعاً مُتَدَيِّناً .

وَعَهِدَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ إِلَيْهِ بِالْخِلاَفَةِ وَعُمَرُ لاَ يَعْلَمُ ، فَلَمَّا عَلِمَ فَزِعَ .

وَقَالَ : وَاللهِ إِنَّ هٰذَا الأَمْرَ مَا سَأَلْتُ اللهَ قَطُّ .

وَقَدَّمَ إِلَيْهِ صَاحِبُ الْمَرَاكِبِ مَرْكَبَ الْخَلِيْفَةِ فَأَبَىٰ وَقَالَ : ايْتُـوْنِـيْ بِبَغْلَتِـيْ ، وَرَدَّ الْمَـرَاكِـبَ ، وَالسُّـرَادِقَـاتِ وَالْفُـرُشَ ، وَالأَدْهَانَ، وَالثِّيَابَ الْخَاصَّةَ بِالْخَلِيْفَةِ ، إِلَىٰ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِيْنَ .

وَجَلَسَ لِلنَّاسِ بَعْدَ ثَلاَثٍ ، وَحَمَلَهُمْ عَلَىٰ الشَّرِيْعَةِ ، وَرَدَّ الْمَظَالِمَ ، وَأَحْيَا الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ ، وَسَارَ بِالْعَدْلِ ، وَرَفَضَ الدُّنْيا ، وَزَهِدَ فِيْهَا ، وَنَهَىٰ عَنِ الْقِيَامِ ، وَابْتَدَأَ بِالسَّلاَمِ ، وَتَرَكَ أَلْوَانَ الطَّعَامِ ، وَتَرَكَ أَنْ يُخْدَمَ .

كَانَ عِنْدَهُ قَوْمٌ ذَاتَ لَيْلَةٍ ، فَقَامَ إِلَىٰ السِّرَاجِ ، فَأَصْلَحَهُ ، فَقِيْلَ لَهُ : يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ نَكْفِيْكَ ، قَالَ : وَمَا ضَرَّنِيْ؟ قُمْتُ وَأَنَا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيْزِ ، وَرَجَعْتُ وَأَنَا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيْزِ .

وَأُتِيَ ذَاتَ يَوْمٍ مِنَ الْفَيْءِ بِعَنْبَرَةٍ ، فَأَخَذَ بِيَدِهِ فَمَسَحَهَا ، ثُمَّ

أَمَرَ بِهَا فَرُفِعَتْ حَتَّىٰ تُبَاعَ ، ثُمَّ أَمَرَّ يَدَهُ عَلَىٰ أَنْفِهِ ، فَوَجَدَ رِيْحَهَا ، فَدَعَا بِوَضُوْءٍ فَتَوَضَّأَ .

وَكَانَ لَهُ غُلَامٌ يَأْتِيْهِ بِقُمْقُمٍ مِنْ مَاءٍ مُسَخَّنٍ يَتَوَضَّأُ مِنْهُ ، فَقَالَ لِلْغُلَامِ يَوْمَاً : أَتُسَخِّنُ الْمَاءَ فِي مَطْبَخِ الْمُسْلِمِيْنَ؟ قَالَ : نَعَمْ! قَالَ : أَفْسَدْتَّهُ عَلَيْنَا ، ثُمَّ حَاسَبَ تِلْكَ الأَيَّامَ ، وَأَدْخَلَ الْحَطَبَ فِي الْمَطْبَخِ . وَأَبْطَأَ يَوْماً عَنِ الْجُمُعَةِ قَلِيْلاً فَعُوْتِبَ فِيْ ذٰلِكَ فَقَالَ : إِنَّمَا انْتَظَرْتُ قَمِيْصِيْ غَسَلْتُهُ أَنْ يَجِفَّ .

قَالَ أَزْهَرُ : رَأَيْتُ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيْزِ يَخْطُبُ النَّاسَ وَعَلَيْهِ قَمِيْصٌ مَرْقُوْعٌ .

* * *

(٥٨)
الْخَلِيْفَةُ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيْزِ
(٢)

وَلَمْ يُحْدِثْ عُمَرُ مُنْذُ وَلِيَ دَابَّةً وَلاَ امْرَأَةً وَلاَ جَارِيَةً حَتَّىٰ لَحِقَ بِاللهِ ، وَلَمْ يُرَ ضَاحِكاً مُنْذُ وَلِيَ الْخِلاَفَةَ حَتَّىٰ لَقِيَ اللهَ .

وَأَتَتْهُ سَلَّتَا رُطَبٍ مِنَ الأُرْدُنِّ ، فَقَالَ : ما هَذا ؟ قَالُوا : رُطَبٌ مِن الأُرْدُنِّ ، قَالَ: عَلاَمَ جِيْءَ بِهِ؟ قَالُوْا: عَلَىٰ دَوَابِّ الْبَرِيْدِ. قَالَ: فَمَا جَعَلَنِيَ اللهُ أَحَقَّ بِدَوَابِّ الْبَرِيْدِ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ ، أَخْرِجُوْهُمَا فَبِيْعُوْهُمَا ، وَاجْعَلُوْا ثَمَنَهُمَا فِي عَلَفِ دَوَابِّ الْبَرِيْدِ ، وَاشْتَرَاهُمَا فِي السُّوْقِ ابْنُ أَخِيْهِ وَأَهْدَىٰ إِحْدَاهُمَا إِليهِ ، فَأَكَلَ وَقَالَ: الآنَ طَابَ أَكْلُهُ.

وَدَخَلَ عَلَىٰ بَنَاتِهِ ذَاتَ لَيْلَةٍ ، فَوَضَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِنَّ ، فَقَالَ لِلْحَاضِنَةِ: مَا شَأْنُهُنَّ؟ قَالَتْ: لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُنَّ

شَيْءٌ يَتعَشَّيْنَهُ إِلاَّ عَدَسٌ وَبَصَلٌ ، فَكَرِهْنَ أَنْ تَشُمَّ ذٰلِكَ مِنْ أَفْوَاهِهِنَّ ، فَبَكَىٰ عُمَرُ ، ثُمَّ قَالَ لَهُنَّ: يَا بَنَاتِيْ مَا يَنْفَعُكُنَّ أَنْ تَعَشَّيْنَ الأَلْوَانَ وَيُمَرُّ بِأَبِيْكُنَّ إِلَىٰ النَّارِ ، فَبَكَيْنَ حَتَّىٰ عَلَتْ أَصْوَاتُهُنَّ. وَوَضَعَ عُمَرُ حَلْيَ زَوْجَتِهِ فِيْ بَيْتِ الْمَالِ ، وَأَرْجَعَ مَزَارِعَهُ إِلَىٰ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ فِيْ عَهْدِ الرَّسُوْلِ ﷺ.

وَإِذَا كَانَ فِي حَوَائِجِ الْعَامَّةِ كَتَبَ عَلَىٰ الشَّمْعِ ، وَإِذَا صَارَ إِلَىٰ حَاجَةِ نَفْسِهِ دَعَا بِسِرَاجِهِ.

وَقَدْ أَغْنَىٰ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيْزِ النَّاسَ ، حَتَّىٰ لَمْ يُوْجَدْ فَقِيْرٌ فِيْ بِلاَدِ الْمُسْلِمِيْنَ ، وَلَمْ يُوْجَدْ أَحَدٌ يَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ.

وَكَانَ لاَ يُؤَخِّرُ عَمَلَ الْيَوْمِ لِلْغَدِّ ، وَلاَ يَعْجَزُ ، قَالَ بَعْضُ إِخْوَتِهِ: يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ! لَوْ رَكِبْتَ فَتَرَوَّحْتَ ، قَالَ: فَمَنْ يَقْضِيْ شُغْلَ ذٰلِكَ الْيَوْمِ؟ قَالَ: تَقْضِيْهِ مِنَ الْغَدِ ، قَالَ: لَقَدْ ثَقُلَ عَمَلُ يَوْمٍ وَاحِدٍ فَكَيْفَ إِذَا اجْتَمَعَ عَمَلُ يَوْمَيْنِ؟

مَاتَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيْزِ سَنَـةَ ١٠١ هـ.

* * *

(٥٩)

فِيْ بَـيْتِ أَبِي أَيُّوبَ الأَنْـصَارِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْـهُ

قَالَ سَيِّدُنَا أَبُوْ أَيُّوْبَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

«لَمَّا نَـزَلَ عَلَيَّ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ فِيْ بَيْتِيْ نَـزَلَ فِي السُّفْلِ ، وَأَنَا وَأُمُّ أَيُّوْبَ فِي الْعُلُوِّ ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا نَبِيَّ اللهِ! بِأَبِيْ أَنْتَ وَأُمِّيْ! إِنِّيْ لأَكْـرَهُ وَأُعْظِمُ أَنْ أَكُوْنَ فَوْقَكَ وَتَـكُوْنَ تَحْتِيْ ، فَاظْهَرْ أَنْتَ فَكُنْ فِي الْعُلُوِّ ، وَنَنْزِلُ نَحْنُ فَنَـكُوْنَ فِي السُّفْلِ ، فَقَالَ: يَا أَبَا أَيُّوْبَ! إِنَّ أَرْفَقَ بِنَا وَبِمَنْ يَغْشَانَا أَنْ نكُوْنَ فِي سُفْلِ الْبَيْتِ.

قَالَ: فَكَانَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ فِيْ سُفْلِهِ وَكُنَّا فَوْقَهُ فِي الْمَسْكَنِ ، فَلَقَدِ انْكَسَرَ حُبٌّ لَـنَـا فِيْهِ مَاءٌ ، فَقُمْتُ أَنَا وَأُمُّ أَيُّوْبَ بِقَطِيْفَةٍ لَنَا ، مَا لَنَا لِحَافٌ غَيْرُهَا ، نُـنَشِّفُ بِهَا الْمَاءَ تَخَوُّفاً أَنْ يَقْطُرَ عَلَىٰ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ مِنْهُ شَيْءٌ فَيُؤْذِيْهِ.

قَالَ: وَكُنَّا نَصْنَعُ لَهُ الْعَشَاءَ ، ثُمَّ نَبْعَثُ بِهِ إِلَيْهِ ، فَإِذَا رَدَّ عَلَيْنَا

فَضْلَهُ تَيَمَّمْتُ أَنَا وَأُمُّ أَيُّوبَ مَوْضِعَ يَدِهِ فَأَكَلْنَا مِنْهُ نَبْتَغِي بِذٰلِكَ الْبَرَكَةَ ، حَتَّىٰ بَعَثْنَا إِلَيْهِ لَيْلَةً بِعَشَائِهِ ، وَقَدْ جَعَلْنَا لَهُ فِيهِ بَصَلاً أَوْ ثُوْماً ، فَرَدَّهُ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ ، وَلَمْ أَرَ لِيَدِهِ فِيْهِ أَثَراً ، قَالَ: فَجِئْتُهُ فَزِعاً ، فَقُلْتُ: يَا رَسُوْلَ اللهِ! بِأَبِيْ أَنْتَ وَأُمِّيْ! رَدَدْتَ عَشَاءَكَ ، وَلَمْ أَرَ فِيْهِ مَوْضِعَ يَدِكَ ، وَكُنْتَ إِذَا رَدَدْتَهُ عَلَيْنَا تَيَمَّمْتُ أَنَا وَأُمُّ أَيُّوبَ مَوْضِعَ يَدِكَ ، نَبْتَغِيْ بِذٰلِكَ الْبَرَكَةَ .

قَالَ: إِنِّيْ وَجَدْتُ فِيْهِ رِيْحَ هٰذِهِ الشَّجَرَةِ ، وَأَنَا رَجُلٌ أُنَاجِيْ ، فَأَمَّا أَنْتُمْ فَكُلُوْهُ .

قَالَ: فَأَكَلْنَاهُ ، وَلَمْ نَصْنَعْ لَهُ تِلْكَ الشَّجَرَةَ بَعْدُ .

(سِيْرَةُ ابْنِ هِشَامٍ)

* * *

(٦٠)

الإِمَـامُ مَالِكُ بْـنُ أَنَـسٍ

وُلِدَ الإِمَامُ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَتِسْعِيْنَ فِي الْمَدِيْنَةِ الْمُنَوَّرَةِ ، وَسَمِعَ الزُّهْرِيَّ وَنَافِعاً مَوْلَىٰ ابْنِ عُمَرَ ، وَأَخَذَ الْعِلْمَ عَنْ رَبِيْعَةَ الرَّأْيِ ، وَقَالَ: قَلَّ رَجُلٌ كُنْتُ أَتَعَلَّمُ مِنْهُ مَا مَاتَ حَتَّىٰ يَجِيْئَنِيْ وَيَسْتَفْتِيَنِيْ.

وَكَانَ لَهُ شَأْنٌ عَظِيْمٌ فِي الْعِلْمِ يَرْحَلُ النَّاسُ إِلَيْهِ مِنَ الآفَاقِ ، وَيَزْدَحِمُوْنَ عَلَىٰ بَابِهِ لأَخْذِ الْحَدِيْثِ وَالْفِقْهِ كَازْدِحَامِهِمْ عَلَىٰ بَابِ السُّلْطَانِ ، وَكَانَ النَّاسُ يَفْتَخِرُوْنَ بِالرِّوَايَةِ عَنْهُ ، وَكَانَ ذٰلِكَ شَرَفاً كَبِيْراً فِيْ عَصْرِهِ ، فَإِذَا قَالَ أَحَدٌ: حَدَّثَنِيْ مَالِكٌ ، رَفَعَ النَّاسُ إِلَيْهِ أَبْصَارَهُمْ.

وَكَانَ إِلَيْهِ الْمُنْتَهَىٰ فِي الْفِقْهِ وَالْفَتْوَىٰ. قَالَ ابْنُ وَهْبٍ: سَمِعْتُ مُنَادِياً يُنَادِيْ بِالْمَدِيْنَةِ: أَلَا لَا يُفْتِي النَّاسَ إِلَّا مَالِكُ بْنُ

أَنَسٍ ، وَابْنُ أَبِيْ ذِئْبٍ ، وَمِنَ الأَمْثَالِ السَّائِرَةِ: لاَ يُفْتَىٰ وَمَالِكٌ فِي الْمَدِيْنَةِ.

وَكَانَ كَثِيْرَ الأَدَبِ ، شَدِيْدَ التَّعْظِيْمِ لِحَدِيْثِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ ، إِذَا أَرَادَ أَنْ يُحَدِّثَ اغْتَسَلَ وَتَطَيَّبَ وَلَبِسَ ثِيَاباً جُدَداً ، وَتَعَمَّمَ وَقَعَدَ بِخُشُوْعٍ وَخُضُوْعٍ وَوَقَارٍ ، وَتَبَخَّرَ بِالْعُوْدِ مِنْ أَوَّلِهِ فَلاَ يَزَالُ يَتَبَخَّرُ إِلَىٰ فَرَاغِهِ ، وَقِيْلَ لَهُ فِيْ ذٰلِكَ ، فَقَالَ: أُحِبُّ أَنْ أُعَظِّمَ حَدِيْثَ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ ، وَلاَ أُحَدِّثَ بِهِ إِلاَّ مُتَمَكِّناً عَلَىٰ طَهَارَةٍ ، وَكَانَ يَكْرَهُ أَنْ يُحَدِّثَ عَلَىٰ الطَّرِيْقِ ، أَوْ مُسْتَعْجِلاً ، وَيَقُوْلُ: أُحِبُّ أَنْ أَتَفَهَّمَ مَا أُحَدِّثُ بِهِ عَنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ.

قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُبَارَكِ: كُنْتُ عِنْدَ مَالِكٍ ، وَهُوَ يُحَدِّثُنَا ، فَلَدَغَتْهُ عَقْرَبٌ سِتَّ عَشَرَةَ مَرَّةً ، وَمَالِكٌ يَتَغَيَّرُ لَوْنُهُ ، وَلاَ يَقْطَعُ الْحَدِيْثَ ، فَلَمَّا تَفَرَّقَ النَّاسُ قَالَ: إِنَّمَا صَبَرْتُ إِجْلاَلاً لِلْحَدِيْثِ.

وَكَانَ لاَ يَرْكَبُ فِي الْمَدِيْنَةِ عَلَىٰ ضَعْفِهِ وَكِبَرِ سِنِّهِ ، وَيَقُوْلُ: لاَ أَرْكَبُ فِيْ مَدِيْنَةٍ فِيْهَا جُثَّةُ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ مَدْفُوْنَةٌ.

وَكَانَ مَجْلِسُهُ مَجْلِسَ وَقَارٍ وَحِلْمٍ ، وَكَانَ رَجُلاً مَهِيْباً نَبِيْلاً ، لَيْسَ فِيْ مَجْلِسِهِ شَيْءٌ مِنَ الْمِرَاءِ وَاللَّغَطِ ، وَلاَ رَفْعُ صَوْتٍ ، وَكَانَ الْغُرَبَاءُ يَسْأَلُوْنَهُ عَنِ الْحَدِيْثِ فَلاَ يُجِيْبُ إِلاَّ فِي الْحَدِيْثِ بَعْدَ الْحَدِيْثِ.

سَأَلَ هَارُوْنُ الرَّشِيْدُ مَالِكاً أَنْ يَأْتِيَ فَأَبَىٰ ، فَأَتَىٰ هَارُوْنُ

مَالِكاً ، وَهُوَ فِيْ مَنْزِلِهِ ، وَمَعَهُ بَنُوْهُ ، وَسَأَلَ أَنْ يَقْرَأَ عَلَيْهِم ، فَقَالَ: مَا قَرَأْتُ عَلَىٰ أَحَدٍ مُنْذُ زَمَانٍ ، وَإِنَّمَا يُقْرَأُ عَلَيَّ ، فَقَالَ هارون: أَخْرِج النَّاسَ حَتَّىٰ أَقْرَأَ أنا عليك ، فقال : إِذَا مُنِعَ الْعَامُّ لِبَعْضِ الْخَاصِّ لَمْ يَنْـتَفِع الْخَاصُّ.

وَدَخَلَ مَالِكٌ عَلَىٰ أَمِيْرِ الْمُؤْمِنِيْنَ مَنْصُوْرٍ ، وَهُوَ عَلَىٰ فِرَاشِهِ ، إِذْ جَاءَ صَبِيٌّ يَخْرُجُ ثُمَّ يَرْجِعُ ، فَقَالَ لِيْ: أَتَدْرِيْ مَنْ هٰذَا؟ فَقُلْتُ: لاَ! قالَ: ابْنِيْ ، وَإِنَّمَا يَفْزَعُ مِنْ هَيْبَتِك.

وَفِـيْ سَنَةِ سَبْعٍ وَأَرْبَعِيْنَ وَمِئَـةٍ ضُرِبَ مَالِكٌ سَبْعِيْنَ سُوْطاً لأَجْلِ فَـتْوىً لَمْ تُـوَافِقْ غَرَضَ السُّلْطَانِ ، فَغَضِبَ وَدَعَا بِهِ ، وَجَرَّدَهُ وَضَرَبَهُ بِالسِّيَاطِ ، وَمُدَّتْ يَدُهُ حَتَّىٰ انْخَلَعَتْ كَتِفُهُ ، فَلَمْ يَزَلْ بَعْدَ ذٰلِكَ الضَّرْبِ فِيْ عُلُوٍّ وَرِفْعَةٍ ، وَكَأَنَّمَا كَانَتْ تِلْكَ السِّيَاطُ حَلْياً حُلِّي بِهِ.

وَكِتَابُهُ الْمُوطَّأُ مِنْ أَشْهَرِ كُتُبِ الْحَدِيْثِ، وَمِنَ الْكُتُبِ الْمَقْبُوْلَةِ فِي الإِسْلاَمِ ، رَزَقَكَ اللهُ قِرَاءَتَهُ ، وَالاِنْتِفَاعَ بِهِ ، وَسَيَـكُوْنُ ذٰلِـكَ (إِنْ شَـاءَ اللهُ) فِيْ بِضْعِ سِنِيْنَ إِذا تَقَدَّمْتَ فِي الْعِلْمِ.

تُوُفِّيَ مَالِكٌ سَنَةَ تِسْعٍ وَسَبْعِيْنَ وَمِئَـةٍ.

* * *

(٦١)

الْـقَـاطِـــرَةُ

(١)

ذَهَبَ رَشِيْدٌ مَعَ أَبِيْهِ سَعِيْدٍ إِلَىٰ الْمَحَطَّةِ يَسْتَقْبِلُ أَخَاهُ مَحْمُوْداً ، وَكَانَ قَادِماً مِنْ دِيُوْبَنْد فِيْ مُسَامَحَةِ عِيْدِ الأَضْحَىٰ.

وَكَانَ الْقِطَارُ مُتَأَخِّراً ، فَأَخَذَ سَعِيْدٌ يَتَجَوَّلُ عَلَىٰ الْمَحَطَّةِ يُحَدِّثُ رَشِيْداً عَنِ الْقِطَارِ وَنِظَامِ الْمَحَطَّةِ ، وَانْتَقَلَ مَعَهُ إِلَىٰ رَصِيْفٍ آخَرَ.

وَكَانَ قِطَارٌ وَاقِفاً هُنَا تَصْفِرُ قَاطِرَتُهُ ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا بُخَارٌ كَثِيْفٌ مُتَصَاعِدٌ.

قَالَ رَشِيْدٌ: حَدِّثْنِي الْيَوْمَ يَا أَبِيْ! عَنِ الْقَاطِرَةِ كَيْفَ تَجُرُّ الْقِطَارَ ، وَكَيْفِ تُسْرِعُ فِي السَّيْرِ؟

قَالَ سَعِيْدٌ: لَقَدْ سَأَلْتَ بِهِ خَبِيْراً فَقَدْ كُنْتُ مُوظَّفاً فِي الْقِطَارِ، وَسَأُحَدِّثُكَ عَنْهَا فِيْ تَفْصِيْلٍ، فَقُمْ بِجَانِبِيْ أَمَامَ هٰذِهِ الْقَاطِرَةِ وَلاَحِظْهَا.

أُنْظُرْ يَا رَشِيْدُ! إِلَىٰ الْقَاطِرَةِ تَرَهَا صُنِعَتْ مِنَ الْحَدِيْدِ، وَلَهَا سِتُّ عَجَلاَتٍ تَسِيْرُ عَلَيْهَا وَهِيَ قَوِيَّةٌ جِدّاً كَأَنَّهَا عِفْرِيْتٌ مِنَ الْجِنِّ، تَجُرُّ قِطَارَ البِضَاعَةِ، وَهُوَ طَوِيْلٌ وَثَقِيْلٌ جِدّاً، وتَجُرُّ قِطَارَ الرُّكَّابِ وَفِيْهِ النَّاسُ وَأَثْقَالُهُمْ، وَتَجُرُّ الْقِطَارَ السَّبَّاقَ، وَهُوَ أَسْرَعُ الْقُطُرِ يَقْطَعُ خَمْسَةً وَأَرْبَعِيْنَ مِيْلاً فِي السَّاعَةِ.

وَالْقِطَارُ السَّرِيْعُ يَقْطَعُ نَحْوَ أَرْبَعِيْنَ مِيْلاً فِي السَّاعَةِ، وَالْقِطَارُ الْوَقَّافُ يَقْطَعُ نَحْوَ ثَلاَثِيْنَ مِيْلاً فِي السَّاعَةِ، تَجُرُّ الْقِطَارَ مِنْ أَقْصَىٰ الْهِنْدِ إِلَىٰ أَقْصَاهَا، مَثَلاً مِنْ بَمْبَئِي إِلَىٰ بِشَاوَرَ، وَمِنْ دِهْلِيْ إِلَىٰ مَدْرَاسَ.

وَقُوَّةُ هٰذِهِ الْقَاطِرَةِ إِنَّمَا هِيَ الْبُخَارُ الْحَقِيْرُ الَّذِيْ لاَ تَعْبأ بِهِ، وَلاَ تُحَاسِبُ لَهُ حِسَاباً، وَقَدِ اهْتَدَىٰ «استيفنسن» مُخْتَرِعُ الْقِطَارِ إِلَىٰ قُوَّةِ هٰذَا الْبُخَارِ، وَاهْتَدَىٰ إِلَىٰ تَسْخِيْرِهِ وَالانْتِفَاعِ بِهِ فِي الأَغْرَاضِ، وَعَلِمَ بِعَقْلِهِ وَدِرَاسَتِهِ أَنَّهُ بِقُوَّتِهِ يَحْمِلُ الأَثْقَالَ، وَيَنْقُلُ الْجِبَالَ، وَيَأْتِيْ بِالْعَجَائِبِ.

وَذٰلِكَ هُوَ الْفَرْقُ بَيْنَ الْجَاهِلِ وَالْعَالِمِ، وَبَيْنَ الْعَامِيِّ

وَالْمُكْتَشِفِ ، يَرَىٰ الأَوَّلُ كُلَّ شَيْءٍ فَلاَ يَرْفَعُ بِهِ رَأْساً ، وَلاَ يُلْقِيْ عَلَيْهِ بَالاً ، وَيَرَاهُ الثَّانِيْ فَيَعْرِفُ قِيْمَتَهُ وَيَجْتَهِدُ فِيْهِ ، حَتَّىٰ يُسَخِّرَهُ لِغَرَضِهِ.

* * *

(٦٢)

الْـقَـاطِـــرَةُ

(٢)

انْظُرْ يَا رَشِيْدُ! إِلَىٰ هٰذَا الْمَوْقِدِ فِي الْقَاطِرَةِ ، يُلْقِيْ فِيْهِ الرَّجُلُ الْفَحْمَ الْحَجَرِيَّ ، وَفَوْقَ هٰذَا الْمَوْقِدِ حَوْضٌ مِنْ مَاءٍ مَتِيْنٌ جِدّاً وَفِيْهِ أَنَابِيْبُ عَدِيْدَةٌ. يَسْخَنُ هٰذَا الْمَاءُ بِالنَّارِ وَيَتَحَوَّلُ بُخَاراً ، وَيَنْتَقِلُ هٰذَا الْبُخَارُ إِلَىٰ الأَنَـابِيْبِ.

وَتَعَالَ مَعِيَ نَدْخُلْ فِي الْقَاطِرَةِ ، فَإِنَّ سَائِقَهَا مِنْ أَصْدِقَائِيْ ، وَهُنَا تَفْهَمُ تَرْكِيْبَ الْقَاطِرَةِ جَيِّداً.

انْظُرْ إِلَىٰ الأَنَابِيْبِ ، إِنَّهَا مُتَّصِلَةٌ بِهٰذِهِ الآلاَتِ الدَّقِيْقَةِ الَّتِيْ تُدِيْرُ عَجَلاَتِ الْقَاطِرَةِ ، فَإِذَا اجْتَمَعَ هٰذَا الْبُخَارُ فِي الأَنَابِيْبِ دَفَعَ بِقُوَّتِهِ الآلاَتِ ، فَأَدَارَهَا وَبِدَوَرَانِهَا تَدُوْرُ الْعَجَلاَتُ ، وَتَسِيْرُ الْقَاطِرَةُ.

وَهٰـذَا هُـوَ الْـوَقَّـادُ الَّـذِيْ يُـرَاقِـبُ النَّـارَ وَالْمَـاءَ ، وَيُشْـرِفُ عَلَيْهِمَـا ، وَهٰذَا صَدِيْقُنَـا السَّائِـقُ ، وَإِذَا كَانَتِ الْقَاطِرَةُ تَجُـرُّ الْقِطَارَ ، وَتُوْصِلُ الرُّكَّابَ مِنْ دِيَارٍ إِلَىٰ دِيَارٍ ، فَصَاحِبُنَا يَسُوْقُ الْقَاطِرَةَ ، فَهُوَ مِفْتَاحُ الْقِطَارِ ، وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ الْفَضْلُ فِيْ سَيْرِ الْقِطَارِ وَهُوَ يَسْهَرُ عَلَىٰ عَمَلِهِ ، وَيَقُوْمُ بِوَاجِبِهِ بِأَمَانَةٍ وَجِدٍّ ، وَكَذٰلِكَ أَمِيْنُ الْقِطَارِ يَسْتَحِقُّ الشُّكْرَ مِنَ الرُّكَّابِ ، فَإِنَّهُ يُلاَحِظُ الطَّرِيْقَ وَيَلْحَظُ وُقُوْفَ الْقِطَارِ وَسَيْرَهُ ، وَالسَّائِقُ وَالْقَاطِرَةُ طَوْعُ إِشَارَتِهِ ، فَإِذَا هَزَّ الْبَيْرَقَ الأَحْمَرَ وَقَفَ الْقِطَارُ ، وَإِذَا هَزَّ الْبَيْرَقَ الأَخْضَرَ تَحَرَّكَ الْقِطَارُ.

وَانْظُرْ إِلَىٰ هٰذِهِ الآلَةِ الَّتِيْ فِيْ يَدِ السَّائِقِ هٰذِهِ . . . فَإِذَا رَفَعَهَا السَّائِقُ إِلَىٰ فَوْقُ ، انْدَفَعَ الْبُخَارُ وَسَارَتِ الْقَاطِرَةُ ، وَإِذَا ضَغَطَ عَلَيْهَا سَكَنَ الْبُخَارُ وَهَدَأَتِ الْقَاطِرَةُ ، حِيْنَئِذٍ يَضْغَطُ السَّائِقُ عَلَىٰ آلَةٍ أُخْرَىٰ ، وَهِيَ هٰذِهِ وَتُسَمَّىٰ الْمِصَدَّ ، وَتَقِفُ الْقَاطِرَةُ مِنْ سَاعَتِهَا ، وَالْعَرَبَاتُ كُلُّهَا مُرَكَّبَةٌ بِالْقَاطِرَةِ تَسِيْرُ بِسَيْرِهَا ، وَتَقِفُ بِوُقُوْفِهَا.

وَهٰذَا هُـوَ الْخَطُّ الْحَدِيْدِيُّ الَّـذِي يَسِيْرُ عَلَيْـهِ الْقِطَارُ ، وَلَوْلاَ هُوَ لَغَـاصَ الْقِطَـارُ فِـي الأَرْضِ ، لأَنَّ التُّرْبَـةَ لاَ تَحْمِلُ ثِقْـلَ الْقِطَارِ.

هٰذِهِ هِيَ الْقَاطِرَةُ الَّتِيْ تَجُرُّ الْقِطَارَ ، وَهٰذَا هُوَ الْقِطَارُ الَّذِيْ

يُوْصِلُ الرُّكَّابَ مِنْ دِيَارٍ إِلَىٰ دِيَارٍ ، وَيَحْمِلُ أَثْقَالَ النَّاسِ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ يَكُوْنُوْا بَالغيْه إلاَّ بِشِقِّ الأَنْـفُسِ .

انْظُرْ يَا رَشِيْدُ! كَيْفَ أَلْهَمَ اللهُ الإِنْسَانَ الْحِكْمَةَ وَالصِّنَاعَةَ ، وَرَزَقَهُ الْعَقْلَ الَّذِيْ يُسَخِّرُ بِهِ الْحَدِيْدَ وَالْبُخَارَ ، أَفَلاَ يَحِقُّ لَكَ أَنْ تَقُوْلَ إِذَا رَكِبْتَ الْقِطَارَ :

﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ .

* * *

(٦٣)
جِسْمُ النَّبَاتِ
(١)

كَانَ أَمَامَ بَيْتِ عَبَّاسٍ حَدِيْقَةٌ فِيْهَا أَنْوَاعُ الشَّجَرِ وَالنَّبَاتِ ، قَالَ لَهُ أَبُوْهُ عُمَرُ مَرَّةً فِيْ يَوْمِ عُطْلَةٍ : هَلْ رَأَيْتَ يَا عَبَّاسُ! حَدِيْقَةَ الدَّارِ؟

قَالَ عَبَّاسٌ : كَيْفَ لاَ يَا أَبِيْ! وَهِيَ حَدِيْقَةُ دَارِنَا؟ أَلْعَبُ فِيْهَا كُلَّ يَوْمٍ وَأَتَرَدَّدُ إِلَيْهَا صَبَاحَ مَسَاءَ .

قَالَ عُمَرُ : مَا أَظُنُّكَ رَأَيْتَهَا! فَتَعَالَ مَعِيَ نَتَمَشَّ فِي الْحَدِيْقَةِ وَنَدْرُسُ النَّبَاتَ ، فَإِنَّهُ مِنْ عَجَائِبِ خَلْقِ اللهِ ، وَكِتَابٌ يَجِبُ أَنْ تُطَالِعَهُ .

خَرَجَ عُمَرُ وَعَبَّاسٌ إِلَى الْحَدِيْقَةِ ، فَرَأَى عَبَّاسٌ الْبُسْتَانِيَّ

يُصْلِحُ قِطْعَةً مِنَ الأَرْضِ ، وَيُنَحِّي الْحجَرَ وَالْخزَفَ ، وَيَقْلَعُ الْحَشَائِشَ وَالأَعْشَابَ ، فَسَأَلَ عبَّاسٌ أَبَاهُ عَنْ ذٰلِكَ .

قَالَ عُمَرُ: الرَّجُلُ يُصْلِحُ الأَرْضَ وَيُهَيِّئُهَا لِغَرْسِ الأَشْجَارِ، فَإِذَا بَقِيَتِ الأَحْجَارُ وَالْخَزَفُ لَمْ يَثْبُتِ الْفَسِيْلُ فِي الأَرْضِ ، وَلَمْ تَمْتَدَّ جُذُوْرُهُ فِيْ بَاطِنِ الأَرْضِ ، وَإِذَا تُرِكَتْ هٰذِهِ الْحَشَائِشُ الشَّيْطَانِيَّةُ امْتَصَّتْ غِذَاءَ الْفَسِيْلِ وَذَوَى الْفَسِيْلُ ، وَالْبُسْتَانِيُّ النَّاصِحُ الْمُجْتَهِدُ يَحْرُثُ الأَرْضَ كَمَا يَحْرُثُ الْفَلاَّحُ الْحَقْلَ ، وَيُلْقِيْ فِيْهَا السَّمَادَ وَيَسْقِيْهَا كُلَّ يَوْمٍ ، حَتَّىٰ تُصْبحَ الأَرْضُ رِخْوَةً كَرِيْمَةً ، تَقْبَلُ كُلَّ مَا يُلْقَى فِيْهَا .

ثُمَّ يَغْرِسُ الْفَسَائِلَ فِيْ مَكَانٍ تَصِلُ إِلَيْهِ الشَّمْسُ كُلَّ يَوْمٍ .

هُنَا قَاطَعَهُ عبَّاسٌ وَقَالَ: وَهَلْ يَحْتَاجُ النَّبَاتُ أَيْضاً إِلَىٰ الشَّمْسِ؟

قَالَ عُمَرُ: نَعَمْ! يَا عَبَّاسُ! فَالنَّبَاتُ جِسْمٌ حَيٌّ نَامٍ يَحْتَاجُ إِلَى الشَّمْسِ وَالْهَوَاءِ وَالْمَاءِ .

وَاسْتَمَرَّ عُمَرُ فِيْ حَدِيْثِهِ: ثُمَّ يَغْرِسُ الْفَسَائِلَ فِيْ صَفٍّ وَيَتْرُكُ بَيْنَ فَسِيْلَيْنِ فُسْحَةً يُمْكِنُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَنْ يَمْتَدَّ فِيْهَا ، وَلَا يُضَايِقُ بَعْضُهَا بَعْضاً .

وَيَحْسُنُ أَنْ تَكُوْنَ الْفَسَائِلُ أَتْرَاباً فِي سِنٍّ وَاحِدَةٍ ، وَإِذَا كَانَتْ

ذَاتَ أَزْهَارٍ فَلأَزْهَارِهَا مِيْعَادٌ وَاحِدٌ ، لِيَتِمَّ جَمَالُ كُلِّ صَفٍّ مِنْ صُفُوْفِهَا .

وَلاَ يَسْتَرِيْحُ الْبُسْتَانِيُّ بَعْدَ ذٰلِكَ ، بَلْ يَسْهَرُ عَلَىٰ هٰذه الْفَسَائِلِ ، فَلاَ يَزَالُ يَسْقِيْهَا مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ كُلَّ يَوْمٍ ، وَيَقْلَعُ الْحَشَائِشَ ، وَيَعْزِقُ الأَرْضَ حَوْلَهَا ، فَيَجْعَلُ بَاطِنَهَا ظَاهِرَهَا .

هُنَا فَرَغَ الْبُسْتَانِيُّ مِنْ إِصْلاَحِ الأَرْضِ وَذَهَبَ يَنْقُلُ فَسِيْلاً ، فَتَبِعَهُ عُمَرُ وَعَبَّاسٌ ، وَوَقَفَا بِجَانِبِهِ .

* * *

(٦٤)
جسْمُ النَّبَاتِ
(٢)

حَفَرَ الْبُسْتَانِيُّ الأَرْضَ حَوْلَ الْفَسِيْلِ بِاحْتِرَاسٍ ، وكَأَنَّهُ يَخَافُ شَيْئاً ، فَسَأَلَ عَبَّاسٌ وَالِدَهُ عَنْ ذٰلِكَ ، وَقَالَ: لِمَاذَا يَتَوَانىٰ الْبُسْتَانِيُّ فِيْ شُغْلِهِ ، وَلاَ يُعَجِّلُ؟

قَالَ عُمَرُ: هُوَ يَخَافُ أَنْ يَقْطَعَ بَعْضَ الْجُذُوْرِ فَيَضُرّ بِالْفَسِيْلِ ، وَرُبَّمَا يَمُوْتُ ، لأَنَّ الْجُذُوْرَ لاَزِمَةٌ لِلشَّجَرَةِ وَبِهَا حَيَاتُهَا .

قَالَ عَبَّاسٌ: وَمَا فَائِدَةُ الْجُذُوْرِ وَمَا شُغْلُهَا حَتَّىٰ لاَ تَحْيَا الشَّجَرَةُ بِغَيْرِهَا .

قَالَ عُمَرُ: النَّبَاتُ إِنَّمَا يَثْبُتُ فِي الأَرْضِ بِالْجُذُوْرِ ، فَهِيَ الَّتِيْ تَمْتَصُّ الْغِذَاءَ مِنَ الأَرْضِ ، وَتَبْحَثُ عَنْهُ ، أَلاَ تَرَاهَا مُمْتَدَّةً مُتَشَعِّبَةً فِيْ بَاطِنِ الأَرْضِ، كَأَنَّهَا جَوَاسِيْسُ وَعُيُوْنٌ قَدِ انْبَثَّتْ لِعَمَلِهَا .

عَبَّاسٌ: وَمَا هِيَ الأَجْزَاءُ اللاَّزِمَةُ لِلنَّبَاتِ غَيْرُ الْجُذُوْرِ؟

قَالَ عُمَرُ: مِنَ الأَعْضَاءِ اللاَّزِمَةِ لِلنَّبَاتِ السَّاقُ ، وَهُوَ الْجُزْءُ الْبَارِزُ عَلَىٰ الأَرْضِ ، وَهُوَ الَّذِيْ يَحْمِلُ الْفُرُوْعَ وَالأَوْرَاقَ ، وَيَسِيْلُ فِيه غِذَاءُ الشَّجَرَةِ ، وَيَنْتَقِلُ إِلَىٰ أَجْزَائِهَا.

وَالآخَرُ اللاَّزِمُ لِلنَّبَاتِ الأَوْرَاقُ وَبِهَا يَتَنَفَّسُ النَّبَاتُ ، وَيَأْخُذُ مِنَ الْهَوَاءِ مَا يُصْلِحُ بِهِ حَيَاتَهُ.

وَهٰذِهِ الثَّلاَثَةُ: الْجُذُوْرُ ، وَالسَّاقُ ، وَالأَوْرَاقُ ، هِيَ أَعْضَاءُ النَّبَاتِ اللاَّزِمَةُ لِحَيَاتِهِ وَنَمَائِهِ ، وَيَكْفِيْكَ يَا عَبَّاسُ! هٰذَا الدَّرْسُ الأَوَّلُ عَنِ النَّبَاتِ.

قَالَ عَبَّاسٌ: عَجَباً يَا أَبِي! مَا كُنْتُ أَعْرِفُ مِنْ قَبْلُ أَنَّ النَّبَاتَ جِسْمٌ حَيٌّ نَامٍ ، لَهُ تَرْكِيبٌ دَقِيْقٌ.

قَالَ عُمَرُ: وَكَذٰلِكَ كُلُّ شَيْءٍ ، فَإِذَا دَرَسْتَهُ كَكِتَابٍ تَعَجَّبْتَ مِنْ صُنْعِ اللهِ الَّذِيْ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ، وَعَرَفْتَ أَنَّ فِيْ كُلِّ شَيْءٍ آيَةً للهِ ، وَفِيْ ذٰلِكَ يَقُوْلُ الشَّاعِرُ:

وَللهِ فِيْ كُلِّ تَحْرِيْكَةٍ وَفِيْ كُلِّ تَسْكِيْنَةٍ شَاهِدُ
وَفِيْ كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ وَاحِدُ

* * *

(٦٥)

الْـبـبَّـغَــاءُ

أَلِفْتُهَــا صَبِيْحَــةً مَلِيْحَــةْ نَــاطِقَــةً بَــاللُّغَــةِ الْفَصِيْحَــةْ

عُدَّتْ مِنَ الأَطْيَارِ وَاللِّسَانُ يُــوْهِمُنِــيْ بِــأَنَّهَــا إِنْسَــانُ

تُنْهِيْ إِلَىٰ صَاحِبِهَا الأَخْبَارَا وَتَكْشِـفُ الأَسْـرَارَ وَالأَسْتَـارَا

بَكْمَــاءُ إِلاَّ أَنَّهَــا سَمِيْعَــةْ تُعِيْــدُ مَــا تَسْمَعُــهُ طَبِيْعَــةْ

زَارَتْكَ مِنْ بِلاَدِهَا الْبَعِيْدَةْ وَاسْتَـوْطَنَتْ عِنْـدَكَ كَـالْقَعِيْـدَةْ

ضَيْـفٌ قِـرَاهُ الْجَـوْزُ وَالأَرُزُّ وَالضَّيْـفُ فِـيْ إِتْيَـانِـهِ يُعَـزُّ

تَــرَاهُ فِــيْ مِنْقَــارِهِ الــرَّقِيْــقِ كَلُــؤْلُــؤٍ يَلْقُــطُ بِــالْعَقِيْــقِ

تَنْظُرُ مِنْ طَرْفَيْنِ كَالْفَصَّيْنِ فِي النُّوْرِ وَالظُّلْمَةِ بَصَّاصَيْنِ

خَــرِيْـدَةٌ خُـدُوْرُهَـا الأَقْفَـاصُ لَيْسَ لَهَا مِنْ حَبْسِهَا خَلاَصُ

تَحْبِسُهَـا وَمَـالَهَـا مِـنْ ذَنْـبِ وَإِنَّمَــا ذَاكَ لِفَــرْطِ الْحُــبِّ

(أَبُوْ إِسْحاقَ الصَّابِيُّ)

* * *

(٦٦)

الْـحَجَّـاجُ وَالْـفِتْـيَـةُ

أَمَرَ الْحَجَّاجُ صَاحِبَ حَرَسِهِ أَنْ يَطُوْفَ لَيْلاً ، فَمَنْ رَآهُ بَعْدَ الْعِشَاءِ سَكْرَانَ ضَرَبَ عُنُـقَهُ ، فَطَافَ لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِيْ فَوَجَدَ ثَلاَثَةَ فِتْيَانٍ يَتَمَايَلُوْنَ ، وَعَلَيْهِمْ أَمَارَاتُ السُّكْرِ ، فَأَحَاطَتْ بِهِمُ الْغِلْمَانُ وَقَالَ لَهُمْ صَاحِبُ الْحَرَسِ :

مَنْ أَنْتُمْ حَتَّىٰ خَالَفْتُمْ أَمْرَ أَمِيْرِ الْمُؤْمِنِيْنَ ، وَخَرَجْتُمْ فِيْ مِثْلِ هٰذَا الْوَقْتِ؟ فَقَالَ أَحَدُهُمْ :

أَنَا ابْنُ مَنْ دَانَتِ الرِّقَابُ لَهُ ... مِنْ بَيْنِ مَخْزُوْمِهَا وَهَاشِمِهَا
تَأْتِيْهِ بِالرَّغْمِ وَهِيَ صَاغِرَةٌ ... يَـأْخُـذُ مِـنْ مَـالِهَـا وَمِـنْ دَمِهَـا

فَأَمْسَكَ عَنْهُ وَقَالَ : لَعَلَّهُ مِنْ أَقَارِبِ أَمِيْرِ الْمُؤْمِنِيْنَ .

ثُمَّ قَالَ لِلآخَرِ : وَأَنْتَ مَنْ تَكُوْنُ؟ فَقَالَ :

أَنَا ابْنُ مَنْ لا تَـنْزِلُ الدَّهْـرَ قِدْرُهُ ... وَإِنْ نَـزَلَتْ يَوْماً فَسَوْفَ تَعُوْدُ
تَرَىٰ النَّاسَ أَفْوَاجاً إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ ... فَمِنْهُـمْ قِيَـامٌ حَـوْلَهَـا وَقُعُـوْدُ

فَأَمْسَكَ عَنْهُ وَقَالَ: لَعَلَّهُ ابْنُ أَشْرَفِ الْعَرَبِ.

ثُمَّ قَالَ لِلآخَرِ: وَأَنْتَ مَنْ تَكُوْنُ؟ فَأَنْشَدَ قَائِلاً:

أَنَا ابْنُ مَنْ خَاضَ الصُّفُوْفَ بِعَزْمِهِ
وَقَوَّمَهَا بِالسَّيْفِ حَتَّىٰ اسْتَقَامَتِ
رِكَابَاهُ لاَ تَنْفَكُّ رِجْلاَهُ مِنْهُمَا
إِذَا الْخَيْلُ فِيْ يَوْمِ الْكَرِيْهَةِ وَلَّتِ

فَأَمْسَكَ عَنْهُ وَقَالَ: لَعَلَّهُ ابْنُ أَشْجَعِ الْعَرَبِ، وَاحْتَفَظَ بِهِمْ.

فَلَمَّا كَانَ الصَّبَاحُ رَفَعَ أَمْرَهُمْ إِلَىٰ الأَمِيْرِ، فَأَحْضَرَهُمْ وَكَشَفَ عَنْ حَالِهِمْ، فَإِذَا الأَوَّلُ ابْنُ حَجَّام، وَالثَّانِيْ ابْنُ خُضَرِيٍّ، وَالثَّالِثُ ابْنُ حَائِكٍ، فَتَعَجَّبَ مِنْ فَصَاحَتِهِمْ، وَقَالَ لِجُلَسَائِهِ: عَلِّمُوْا أَوْلاَدَكُمُ الأَدَبَ، فَوَاللهِ لَوْلاَ فَصَاحَتُهُمْ لَضَرَبْتُ أَعْنَاقَهُمْ.

* * *

(٦٧)

أنَا تُــرَابٌ

أنَا تُرَابٌ حَقِيْرٌ يَطَؤُنِي النَّاسُ بِأَقْدَامِهِمْ وَنِعَالِهِمْ، وَيَضْرِبُوْنَ بِيْ مَثَلاً فِي الْحقَارَةِ والذُّلِّ.

النَّاسُ يَنْتَفِعُوْنَ بِيْ فِيْ كُلِّ سَاعَةٍ ، وَفِيْ كُلِّ مَكَانٍ وَزَمَانٍ ، ثُمَّ يَحْتَقِرُوْنَنِيْ وَيَهْجُوْنَنِيْ كَالشَّعِيْرِ يُؤْكَلُ وَيُذَمُّ.

فَفِيْ مَنَاكِبِيْ يَمْشِي النَّاسُ ، وَعَلَىٰ ظَهْرِيْ يَبْنُوْنَ بُيُوْتاً وَمَبَانِيَ عَظِيْمَةً ، وَمِنْ بَطْنِيْ تَخْرُجُ لِلنَّاسِ حُبُوْبٌ يَأْكُلُهَا النَّاسُ ، وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُوْنُ والرُّمَّانُ ، وَالنَّخْلُ وَالزَّرْعُ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ.

وَمِنْ بَطْنِيْ يَخْرُجُ ذٰلِكَ الْقُطْنُ الَّذِيْ بِهِ لِبَاسُكُمْ وَكِسْوَتُكُمْ فِي الصَّيْفِ وَالشِّتَاءِ ، وَسَرَابِيْلُ تَقِيْكُمُ الْحَرَّ.

وَفِيْ لِبَاسِ الْحَرِيْرِ أَيْضاً يَرْجِعُ إِلَيَّ الْفَضْلُ فَإِنَّ دُوْدَةَ الْقَزِّ

تَتَغَذَّىٰ مِنْ وَرَقِ التُّوْتِ ، وَمِنِّي تَتَغَذَّىٰ شَجَرَةُ التُّوْتِ ، وَعَلَيَّ تَنْمُوْ وَتَعِيْشُ ، وَعَلَىٰ ظَهْرِيْ تَحْفِرُوْنَ الْبِئْرَ الَّتِيْ تَشْرَبُوْنَ مَاءَهَا ، وَعَلَىٰ ظَهْرِيْ تَجْرِيْ الأَنْهَارُ الَّتِيْ تَسْقِيْكُمْ ، وَتَسْقِيْ زُرُوْعَكُمْ.

وَمِنَ الطِّيْنِ يَبْنِي الْفَخَّارِيُّ الأَوَانِيَ وَالظُّرُوْفَ ، الَّتِيْ تَأْكُلُوْنَ فِيْهَا وَتَشْرَبُوْنَ ، وَاللُّعَبُ وَالدُّمَىٰ الَّتِيْ يَلْعَبُ بِهَا الأَطْفَالُ.

وَهَلْ تُصَدِّقُوْنَ إِذَا أَخْبَرْتُكُمْ بِأَنِّيْ مَادَّةُ هٰذَا الْكِتَابِ الَّذِيْ تَقْرَؤُوْنَهُ ، وَمَادَّةُ كُلِّ كِتَابٍ وَصَحِيْفَةٍ ، فَإِنَّ مَادَّةَ الْوَرَقِ الْحَشِيْشُ الَّذِيْ يَنْبُتُ فِي الأَرْضِ ، فَلِيَ مِنَّةٌ عَلَىٰ كُلِّ عَالِمٍ وَطَالِبٍ ، وَلِيَ مِنَّةٌ عَلَىٰ كُلِّ مَنْ عَلَيْهِ مِنَّةُ الْعِلْمِ وَالدِّيْنِ.

ومِنْ بَطْنِيْ يَخْرُجُ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ ، وَالنُّحَاسُ وَالْحَدِيْدُ ، الَّذِيْ فِيْهِ بَأْسٌ شَدِيْدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ، وَالزَّيْتُ الَّذِيْ يُضِيءُ وَالْفَحْمُ الْحَجَرِيُّ الَّذِيْ تَسِيْرُ بِهِ الْقَاطِرَةُ ، وَالْبِتْرَوْلُ الَّذِيْ تَسِيْرُ بِهِ السَّيَّارَاتُ وَالطَّائِرَاتُ.

إِنَّكُمْ تُفْسِدُوْنَ أَطْيَبَ الأَشْيَاءِ ، فَكُلُّ مَا تَلَبَّسَ بِكُمْ فَسَدَتْ رَائِحَتُهُ ، وَذَهَبَتْ نَضَارَتُهُ ، وَأَنَا أُعِيْدُهُ غَضّاً طَرِيّاً ، وَبِهٰذَا السَّمَادِ الَّذِيْ تُلْقُوْنَهُ فِي الْحُقُوْلِ وَالْفَسَائِلِ أُنْبِتُ لَكُمْ حَبّاً صَحِيْحاً ، وَفَاكِهَةً لَذِيْذَةً ، وَزُهُوْراً جَمِيْلَةً.

أَنَا أَمِيْنُ أَجْسَادِ الأَنْبِيَـاءِ ، أَنَـا مَرْقَـدُ الشُّهَدَاءِ ، أَنَا مُسْتَوْدَعُ الأَوْلِيَاءِ ، أَنَا مَضْجَعُ الْعُلَمَاءِ والصُّلَحَاءِ ، أَنَا مَدْفَنُ الأُمَّهَاتِ وَالآبَاءِ ، فَلاَ تَمْشُوْا عَلَيَّ مَرَحاً ، وَاذْكُرُوْا قَوْلَ صَاحِبِكُمْ:

خَفِّـفِ الْـوَطْءَ مَـا أَظُـنُّ أَدِيْـمَ الـ
أرضِ إِلَّا مِـــنْ هٰـــذِهِ الأَجْسَــادِ
وَقَبِيـــحٌ بِنَـــا وَإِنْ قَـــدُمَ الْعَهْـ
ـــدُ هَـــوَانُ الآبَـــاءِ وَالأَجْـــدَادِ
سِـرْ إِنِ اسْتَطَعْـتَ فِـي الْهَـوَاءِ رُوَيْـداً
لا اخْتِيَـالاً عَلَـى رُفَـاتِ الْـعِبَـادِ

* * *

(٦٨)

الْبَاخِرَةُ

(١)

كَانَ النَّاسُ فِيْ قَدِيْمِ الزَّمَانِ يُسَافِرُوْنَ مِنْ مَكَانٍ إِلَىٰ مَكَانٍ عَلَىٰ الإِبِلِ وَالْبِغَالِ ، وَعَجلَاتِ الْخَيْلِ وَعَجلَاتِ الثِّيْرَانِ ، فتَرَاهَا غَادِيَةً رَائِحَةً عَلَىٰ الطُّرُقَاتِ وَالشَّوَارِعِ تَحْمِلُ الرُّكَّابَ وَالْبَضَائِعَ .

وَكَانَ النَّاسُ يَخَافُوْنَ السَّفَرَ فِي الْبِحَارِ وَيَتَحَامَوْنَهُ ، وَلٰكِنْ أَلْجَأَتْهُمُ الضَّرُوْرَةُ إِلَىٰ السَّفَرِ فِيْهَا لأَنَّهُ يَحْمِلُ الأَثْقَالَ الْعظِيْمَةَ وَلاَ يُكَلِّفُ نَفَقَةً ، فَوَصَلُوْا الأَنْهَارَ وَالْبُحَيْرَاتِ بِالتُّرَعِ ، وَصَارُوْا يُسَافِرُوْنَ فِيْهَا عَلَىٰ السُّفُنِ الشِّرَاعِيَّةِ ، وَيَنْقُلُوْنَ بَضَائِعَهُمُ التِّجَارِيَّةَ مِنْ مَكَانٍ إِلَىٰ مَكَانٍ بَعِيْدٍ .

وَكَانَتْ هٰذِهِ السُّفُنُ الشِّرَاعِيَّةُ تَسِيْرُ ثَلاَثَةَ أَمْيَالٍ فِيْ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَكَانَتْ هٰذِهِ السُّفُنُ تَحْتَ حُكْمِ الرِّيَاحِ ، فَإِنْ وَافَقَتْ

وَصلَتِ السَّفِيْنَةُ فِيْ وَقْتٍ قَرِيْبٍ ، وَإِنْ عَارَضَتْ وَقَفَتْ أَسَابِيْعَ وَشُهُوْراً ، وَإِنْ عَانَدَتْ صَدَمَتْهَا بِصَخْرَةٍ فَكَسَرَتْهَا ، أَوْ قَلَبَتْهَا ، وَهَلَكَ الرُّكَّابُ وَغَرِقَتِ الْبَضَائِعُ ، وَكَانَ هٰذَا يَقَعُ كَثِيراً حَتَّىٰ ذَهَبَ مَثَلاً ، وَقَال الشَّاعِرُ:

مَا كُلُّ مَا يَتَمَنَّىٰ الْمَرْءُ يُدْرِكُهُ

تَجْرِي الرِّيَاحُ بِمَا لاَ تَشْتَهِيْ السُّفُنُ

وَكَانَ السَّفَرُ خَطِراً لا يَدْرِيْ الإنْسَانُ أَيَصِلُ إِلَىٰ الْمَنْزِلِ أَمْ يَمُوْتُ فِي الطَّرِيْقِ ، فَكَانَ الْوَاحِدُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُسَافِرَ فِيْ سَفِيْنَةٍ شِرَاعِيَّةٍ أَوْصَىٰ أَقَارِبَهُ وَأَصْدِقَاءَهُ بِدُيُوْنِهِ وَبِمَا عَلَيْهِ ، وَكَانَ الإِنْسَانُ لا يَقْدِرُ أَنْ يَقُوْلَ: إِنَّهُ يَصِلُ فِيْ شَهْرٍ أَوْ عَامٍ ، فَإِنَّهُ يُسَافِرُ فِيْ ظُلُمَاتِ الْبَحْرِ ، وَكَانَ دُوْداً عَلَىٰ عُوْدٍ ، لاَ يَدْرِيْ أَيَمُوْتُ فِي الطَّرِيْقِ أَمْ يَصِلُ سَالِمَاً وَيَعُوْدُ.

وَكَانَ النَّاسُ رَغْمَ ذٰلِكَ كُلِّهِ يُخَاطِرُوْنَ بِأَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ، وَكَانَ الْمُسْلِمُوْنَ يُسَافِرُوْنَ لِلْحَجِّ مِنْ كُلِّ بِلاَدٍ ، وَلاَ يَمْنَعُهُمْ خَطَرٌ أَوْ خَوْفٌ مِنَ السَّفَرِ إِلَىٰ بَيْتِ اللهِ ، وَأَدَاءِ فَرِيْضَةِ الْحَجِّ ، فَكَانَ الْمُسْلِمُوْنَ منَ الْهِنْدِ ، وَالصِّيْنِ ، وَجَزَائِرِ بَحْرِ الْهِنْدِ ، وَكَذٰلِكَ مِنْ مَرَّاكُش وَبِلاَدِ الأَنْدَلُسِ يُسَافِرُوْنَ كُلَّ عَامٍ لِلْحَجِّ ، وَقَدْ يَسْتَغْرِقُ سَفَرُهُمْ عَاماً كَامِلاً أَوْ أَكْثَرَ.

وكَانَ الْجَوَّابُوْنَ يَسِيْحُوْنَ فِي الأَرْضِ ، وَيَرْكَبُوْنَ الْبَحْرَ مِنَ

الْمَغْرِبِ الأَقْصَىٰ إِلَىٰ الْمَشْرِقِ الأَقْصَىٰ ، وَكَانَ الْعَالَمُ الإِسْلاَمِيُّ كَبَيْتٍ وَاحِدٍ ، وَالْمُسْلِمُوْنَ كَأُسْرَةٍ وَاحِدَةٍ ، يَنَالُ الْجَوَّابُ فِي السَّفَرِ كُلَّ مَا يَجِدُهُ فِي الْوَطَنِ .

أَهْلاً بِأَهْلٍ وَجِيْرَاناً بِجِيْرَانٍ .

وَقَدْ سَافَرَ ابْنُ بَطُوْطَةَ الْمَغْرِبِيُّ ، وَابْنُ جُبَيْرٍ الأَنْدلُسِيُّ ، وَسُلَيْمَانُ التَّاجِرُ ، إِلَىٰ مُعْظَمِ الْمَعْمُوْرَةِ بِهٰذِهِ السُّفُنِ .

* * *

(٦٩)
الْبَاخِرَةُ
(٢)

مَضَىٰ عَلَىٰ ذٰلِكَ قُرُوْنٌ ، ثُمَّ بَدَأَ النَّاسُ يُفَكِّرُوْنَ ، وَيَخْتَرِعُوْنَ حَتَّىٰ تَوَصَّلُوْا إِلَىٰ سَفِيْنَةٍ تَسِيْرُ بِالْبُخَارِ ، وَكَانَ ذٰلِكَ بِالتَّدْرِيْجِ ، وَفِيْ عِدَّةِ قُرُوْنٍ .

كَانَتِ السُّفُنُ الشِّرَاعِيَّةُ تَسِيْرُ بِالْمَجَادِيْفِ ، وَتَقَدَّمَ بَعْضُ الأَذْكِيَاءِ فَرَكَّبَ فِيْ سَفِيْنَةٍ عَجَلَةً رَبَطَ بِهَا الْمَجَادِيْفَ ، فَإِذَا دَارَتِ الْعَجَلَةُ بَدَأَتِ الْمَجَادِيْفُ تَعْمَلُ وَتَمْخُرُ الْمَاءَ .

ثُمَّ اهْتَدَىٰ بَعْضُ الأَذْكِيَاءِ إِلَىٰ إِدَارَةِ الْعَجَلَةِ بِالْبُخَارِ ، وَالاسْتِغْنَاءِ عَنِ الْيَدِ الْعَامِلَةِ ، وَلَمْ تَزَلِ الصِّنَاعَةُ تَرْتَقِيْ ، حَتَّىٰ ظَهَرَتْ أَوَّلُ سَفِيْنَةٍ بُخَارِيَّةٍ ، صَنَعَهَا رَجُلٌ أَمْرِيْكِيٌّ اسْمُهُ «هِلْتَنْ كِلَرْ مَا وُنْت» قَطَعَتْ مِئَةَ مِيْلٍ فِيْ أَرْبَعٍ وَعِشْرِيْنَ سَاعَةً .

وَلَمْ تَـزَلِ السُّفُنُ الْبُخَارِيَّةُ تَـتَقَدَّمُ فِي السُّرْعَةِ وَالْقُوَّةِ ، حَتَّىٰ أَصْبَحَتْ تَعْبُرُ الْبَحْرَ الأَطْلاَنْتِيْكِيَّ بَيْنَ إِنْكِلْتَرَة وَأَمْرِيْكَةَ فِيْ خَمْسَةِ أَيَّامٍ ، وَكَانَ السَّفَرُ فِيْ هٰذَا الْبَحْرِ يَأْخُذُ شَهْرَيْنِ .

وَالْبَاخِرَةُ كَالْقَاطِرَةِ تَسِيْرُ بِقُوَّةِ الْبُخَارِ ، فَإِنَّهُ يُدِيْرُ الْعَجلَةَ ، وَالْعَجَلَةُ مُتَّصلَةٌ بِآلاَتٍ تَـتَحَرَّكُ الْبَاخِرَةُ بِدَوَرَانِهَا وَتَسِيْرُ .

وَكَذٰلِكَ هُنَالِكَ آلاَتٌ تُوَجِّهُ الْبَاخِرَةَ مِنْ جِهَةٍ إِلَىٰ جِهَةٍ ، وَتُسَخِّرُهَا لِلرُّبَّانِ يَسِيْرُ بِهَا كَيْفَ يَشَاءُ .

وَقَدْ تَقَدَّمَتِ التِّجَارَةُ تَقَدُّماً عَظِيْماً ، وَأَصْبَحَ النَّاسُ يُسَافِرُوْنَ فِي الْبَحْرِ عَلَىٰ مَتْنِ الْبَاخِرَةِ كَأَنَّهُمْ يُسَافِرُوْنَ فِي الْبَرِّ عَلَىٰ الْقطَارِ ، أَوْ مُطْمَئِنُّوْنَ فِي الْبَلَدِ وَجَالِسُوْنَ فِي الدَّارِ .

وَكَبُرَتِ الْمَرَاكِبُ وَتَوَسَّعَتْ ، حَتَّىٰ كَأَنَّهَا حَارَةٌ مِنْ حَارَاتِ الْبَلَدِ ، أَوْ قَرْيَةٌ صَغِيْرَةٌ ، فِيْهَا الْمَطْعَمُ وَالْمَلْعَبُ وَمُنْتَزَهَاتٌ ، وَتَحْمِلُ مِنَ الرُّكَّابِ مِنْ خَمْسِمِئَةٍ إِلَىٰ أَلْفٍ .

وَإِذَا رَأَىٰ الإِنْسَانُ السُّفُنَ الشِّرَاعِيَّةَ وَالْمَرَاكِبَ الْبُخَارِيَّةَ تَجْرِيْ فِي الْبَحْرِ رُخَاءً تَعَجَّبَ ، وَرَأَىٰ تَصْدِيْقَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ﴾ .

* * *

(٧٠)

جِسْمُ الطُّيُوْرِ

إِنَّ اللهَ وَهَبَ لِكُلِّ حَيَوَانٍ صَغِيْرٍ وَكَبِيْرٍ جِسْمَاً لَائِقَاً ، وَأَعْضَاءً يَسْتَعِيْنُ بِهَا عَلَىٰ قَضَاءِ حَوَائِجِهِ ، وَتَحْصِيْلِ قُوْتِهِ ، وَسِلَاحَاً يُدَافِعُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ ، فَهُوَ الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ.

انْظُرُوا إِلَىٰ الْفِيْلِ كَيْفَ مَدَّ اللهُ فِيْ أَنْفِهِ لِيَسْتَخْدِمَهُ فِيْ حَوَائِجِهِ ، وَيَتَنَاوَلَ بِهِ الطَّعَامَ وَالْمَاءَ ، وَيُوَجِّهَهُ حَيْثُ شَاءَ ، وَفِيْ طَرَفِهِ زَائِدَةٌ يَلْتَقِطُ بِهَا الأَشْيَاءَ الدَّقِيْقَةَ ، وَقَدْ قَرَأْتُمْ أَنَّ الْجَمَلَ رَقَبَتُهُ طَوِيْلَةٌ ، لأَنَّهُ كَبِيْرُ الْجِسْمِ ، طَوِيْلُ الأَرْجُلِ ، فَلَوْ كَانَتْ رَقَبَتُهُ قَصِيْرَةً لَمْ يُمْكِنْهُ أَنْ يَرْعَىٰ الْكَلأَ مِنَ الأَرْضِ حَتَّىٰ يَبْرُكَ ، وَفِيْ ذٰلِكَ تَعَبٌ عَظِيْمٌ ، وَشُغْلٌ كَثِيْرٌ ، فَمَدَّ اللهُ فِيْ عُنُقِهِ ، وَرَأْسُهُ صَغِيْرٌ ، فَكَانَ خَفِيْفَ الْحَمْلِ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ ، وَلَمَّا قَدَّرَ اللهُ أَنْ يَكُوْنَ الْجَمَلُ سَفِيْنَةَ الصَّحْرَاءِ جَعَلَ أَرْجُلَهَا مُنَاسِبَةً لِذٰلِكَ ،

فَلاَ تَسُوْخُ فِي الرِّمَالِ ، وَخَلق فِيْ جَوْفِهِ كُرُوْشاً وَأَزْقَاقاً يُخَزِّنُ فِيْهَا الْغِذَاءَ وَالْمَاءَ ، لأَنَّ السَّفَرَ فِي الصَّحْرَاءِ يَحْتَاجُ إِلَىٰ ذٰلِكَ كَثِيْراً.

انْظُرُوا إِلَىٰ الْقَنْغَرِ وَالأَرْنَبِ ، تَرَوا رِجْلَيْهِمَا الْخَلْفِيَّتَيْنِ طَوِيْلَتَيْنِ وَكَبِيْرَتَيْنِ ، وَرِجْلَيْهِمَا الأَمَامِيَّتَيْنِ صَغِيْرَتَيْنِ وَقَصِيْرَتَيْنِ ، لِيُمْكِنَهُمَا الْجَرْيُ قَفْزاً ، وَفِيْ قَدَمَيْ الرِّجْلَيْنِ الْخَلْفِيَّتَيْنِ لِلْقَنْغَرِ ظِلْفٌ حَادٌّ جِدّاً ، هَوْ سِلاَحُهُ يَبْقَرُ بِهِ بَطْنَ عَدُوِّهِ بِطَعْنَةٍ وَاحِدَةٍ.

كَذٰلِكَ الطُّيُوْرُ ، فَفِي جِسْمِهَا وخِلْقَتِهَا آيَاتٌ للهِ ، فَقَدْ كَسَا اللهُ جِسْمَهَا بِالرِّيْشِ ، لأَنَّهُ أَخفُّ لِلطَّيَرَانِ ، وَجَعلَ عِظَامَ الطَّائِرِ رَقِيْقَةً جَوْفَاءَ ، فَلاَ يَعُوْقهُ ثِقْلُ رِيْشٍ ، أَوْ جِسْمٍ عَنِ الطَّيَرَانِ.

ثُمَّ وَهَبَ أَنْوَاعَ الطُّيُوْرِ أَنْوَاعاً مِنَ الْمَنَاقِيْرِ ، تَخْتَلِفُ بِاخْتِلاَفِ طَبِيْعَةِ الطَّيْرِ وَغِذَائِهِ وَعَادَاتِهِ ، وَكَذٰلِكَ يَخْتَلِفُ تَرْكِيْبُ أَقْدَامِهِ.

انْظُرْ إِلَىٰ الْعَصَافِيْرِ وَالْحَمَامِ ، وَالْيَمَامِ وَالْغِرْبَانِ ، لَيْسَتْ أَجْسَامُهَا عَالِيَةً ، وَأَنَّهَا تَلْقُطُ حَبّاً صَغِيْراً مِنَ الأَرْضِ ، فَلَمْ تكُنْ فِيْ حَاجَةٍ إِلَىٰ طُوْلِ الأَعْنَاقِ ، وَمَنَاقِيْرُهَا مُسْتَقِيْمَةٌ وَقَصِيْرَةٌ تُعِيْنُهَا فِي حَاجَاتِهَا.

انْظُرْ إِلَىٰ الطُّيُوْرِ الَّتِيْ تَعِيْشُ فِي الْمَاءِ ، وَتَبْحَثُ عَنْ قُوْتِهَا فِي الْمَاءِ كَالْبَطِّ وَاللَّقْلَق ، تَرَ أَعْنَاقَهَا وَمَنَاقِيْرَهَا طَوِيْلَةً لأَنَّهَا تُرْسِلُ

مَنَاقِيْرَهَا فِيْ أَعْمَاقِ الأَنْهَارِ وَالْبِرَكِ ، وَتَسْتَخْرِجُ قُوْتَهَا مِنْ أَحْشَائِهَا ، فَخَلَقَ اللهُ لَهَا أَعْنَاقاً طَوِيْلَةً ، وَمَنَاقِيْرَ مُسْتَقِيْمَةً وَطَوِيْلَةً كَذٰلِكَ.

وَانْظُرْ إِلَىٰ الطُّيُوْرِ الَّتِي تَقْتَاتُ بِاللَّحْمِ وَالْفَاكِهَةِ وَتَأْكُلُهَا نَهْشاً ، كَالْحِدَاءِ والنُّسُوْرِ وَالصُّقُوْرِ لاَ تَجِدُ مَنَاقِيْرَهَا مُسْتَقِيْمَةً ، لأَنَّهَا لاَ تُغْنِي عَنْهَا ، وَلاَ تَقْضِيْ حَاجَتَهَا ، فَخَلَقَ اللهُ لَهَا مَنَاقِيْرَ مُتَقَوِّسَةً حَادَّةَ الطَّرْفِ ، وَيَكُوْنُ طَرْفُهَا الأَعْلَىٰ مُتَقَدِّماً مُتَقَوِّساً ، فَيُعِيْنُهَا فِيْ نَهْشِ اللُّحُوْمِ وَقَرْضِ الْفَوَاكِهِ وَفِي الْعَضِّ عَلَيْهَا.

كَذٰلِكَ إِذَا نَظَرْنَا إِلَىٰ أَرْجُلِ الطُّيُوْرِ وَمَخَالِبِهَا ، رَأَيْنَا بَيْنَهَا فَرْقاً بِحَسْبِ أَنْوَاعِ الطُّيُوْرِ وَطَبَائِعِهَا ، وَعَادَاتِهَا ، وَغِذَائِهَا ، فَالطُّيُوْرُ الَّتِي تَعِيْشُ عَلَىٰ الْبَرِّ ، وَتَلْتَقِطُ الْحَبَّ لَيْسَتْ أَرْجُلُهَا طَوِيْلَةً ، وَأَنَّهَا تَرْفَعُ رِجْلَيْهَا فِيْ وَقْتٍ وَاحِدٍ ، وَتَمْشِيْ وَثْباً ، وَأَمَّا الطُّيُوْرُ الَّتِيْ تَعِيْشُ فِي الْمَاءِ وَتَصِيْدُ السَّمَكَ وَهَوَامَّ الْمَاءِ فَإِنَّهَا تُقَدِّمُ رِجْلاً فِي الْمَشْي وَتُؤَخِّرُ أُخْرَىٰ كَالإِنْسَانِ ، وَتَمْشِيْ رُوَيْداً ، فَإِنَّهَا إِذَا وَثَبَتْ وَثَبَاتٍ أَوْ قَفَزَتْ أَفْلَتَهَا الصَّيْدُ.

كَذٰلِكَ الطُّيُوْرُ الَّتِي تَسْبَحُ فِي الْمَاءِ ، وَتَصِيْدُ فَلَهَا جِلْدٌ رَقِيْقٌ فِي مَخَالِبِهَا يَصِلُ بَيْنَ أَصَابِعِهَا ، فَتَنْتَشِرُ مَخَالِبُهَا كَالْمِظَلَّاتِ إِذَا نُشِرَتْ ، وَتُسَاعِدُهَا فِي السِّبَاحَةِ مُسَاعَدَةً عَالِيَةً.

وَالطُّيُوْرُ الَّتِيْ تَقْتَاتُ بِاللَّحْمِ لَهَا أَرْجُلٌ قَوِيَّةٌ وَمَخَالِبُ كَبِيْرَةٌ ،

وَفِيْ أَصَابِعِهَا أَظْفَارٌ مُتَقَوِّسَةٌ حَادَّةُ الأَطْرَافِ تُسَاعِدُهَا فِيْ نَهْشِ اللُّحُوْمِ ، وَتَقُوْمُ أَرْجُلُهَا وَمَخَالِبُهَا مَقَامَ الأَرْجُلِ وَالأَيْدِيْ ، فَإِذَا مَشَتْ كَانَتْ لَهَا أَرْجُلاً تَمْشِيْ بِهَا ، وَإِذَا طَارَتْ أَوْ أَرَادَتْ أَنْ تَأْكُلَ كَانَتْ لَهَا أَيْدِياً تَبْطِشُ ، وَهٰذَا النَّوْعُ مِنَ الطَّيْرِ قَدْ يُمْسِكُ عُوْداً أَوْ قِطْعَةَ لَحْم ، وَيَطِيْرُ فِي الْجَوِّ وَيَسْتَقِلُّ بِهِ ، فَلاَ يَسْقُطُ مِنْ يَدِهِ ، وَكَثِيْراً مَا رَأَيْنَا الْبَازِيَّ قَدْ قَبَضَ عَلَىٰ طَائِرٍ كَبِيْرٍ بِمَخَالِبِهِ وَطَارَ بِهِ إِلَىٰ عُشِّهِ ، وَأَكَلَهُ هُنَالِكَ آمِناً مُطْمَئِنّاً .

* * *

(٧١)

حـديـث الـقمـر

(١)

كانتِ السَّماءُ مصحيةً لا غَيْمَ فيها ، والليلةُ مُقْمِرةً ، وكان هشامٌ يطالعُ القمرَ ، كأنما يُطالِعُ في كِتابٍ.

وكان أبوهُ يرى ذلك في اللَّيلَةِ المقْمِرةِ ، فأراد ألاَّ يضيعَ هذا النَّظر ، ولا يَخْلُو من دَرْسٍ.

قال الوالدُ: يا هِشامُ! أراكَ تنظرُ إلى القمرِ طَويلاً ، كأنَّكَ تَتَمَتَّعُ بمنظرِهِ.

هشامٌ: نَعَمْ يا أبي! إنَّ مَنْظَرَهُ جَمِيلٌ جِدّاً ، لا أكادُ أملأُ عَيْني منه ، ولو قدرتُ لَصَعِدْتُ إليه بِسُلَّمٍ.

الوالدُ: وكم تقدرُ بعده يا هشام! وأيُّ سُلَّمٍ أو منارةٍ تراها تكفيكَ للصُّعودِ إلى القمر؟

هشام: إنِّي لم أَرَ يا أبي سُلَّماً رَفِيعاً جِدَّاً، ولكنْ أقدرُ إذا كانتْ هُنالِكَ مَنَارةٌ ارتفاعُها ضِعْفُ منارةِ قُطْبِ الدِّينِ في دَهْلي؛ لأُمَكِّنَ الصُّعودَ إلى القَمَرِ.

الوالد: وكم ارتفاعُ منارةِ قُطْبِ الدِّين يا هِشَامُ!.

هشام: سمعتُ أنَّ ارتفاعَها مئتان واثنتان وأربعون قَدَماً أو ثمانون ذِراعاً، وذلك ارتفاعٌ كَبِيرٌ.

الوالد: سُبحانَ اللهِ، إنَّكَ ولدٌ بسيطٌ، إنَّ القَمَرَ يا ولدي يبعدُ من الأرضِ مئتي ألف وخمسين ألف ميلٍ، وهو أقربُ الكَواكبِ إلى الأرضِ.

هشام: ففي كم مُدَّةٍ يصلُ الإنسانُ إلى القمرِ إذا سافَرَ إليه؟

الوالدُ: إذا سافَرَ الإنْسانُ إلى القَمَرِ في قطارٍ يسيرُ خَمْسِينَ مِيْلاً في ساعةٍ؛ فإنَّه يَصِلُ إلى القمرِ في نحو سبعةِ أَشْهُرٍ.

وإذا كانتِ الطَّائرةُ تطيرُ خمسمئة ميلٍ في ساعةٍ، فالإنسانُ يصلُ إلى القمر بالطَّائرة في يومين وعشرين ساعة.

هشام: يا سُبحانَ الله، وسمعتُك يا أبي! تقولُ: إنَّ القمرَ أقربُ الكَواكِبِ إلى الأرضِ، فهلِ القمرُ كَوْكَبٌ؟

الوالد: نَعَمْ يا ولدي! القمرُ، والشَّمسُ، والأرضُ،

والنُّجُومُ كُلُّها كواكب، منها القريبُ ومنها البعيدُ، ومنها الصَّغِيرُ ومنها الكَبِير.

هشام: شيءٌ غَريبٌ ، فَهَلِ الشَّمسُ أقربُ الكَواكبِ إلى الأرضِ ، ولِذلكَ نُورُها ساطِعٌ وقَوِيٌّ جِدّاً؟

الوالد: لا يا وَلَدي! الشَّمسُ تبعدُ من الأرضِ مقدارَ تسعين مليوناً وثلاثةَ ملايين ، فالإنْسانُ يَصِلُ إلى الشَّمِس في ذلكَ القِطارِ في مئتي عام وعشرة أَعْوامٍ.

هشام: اللهُ أكبرُ ، ولأيِّ شيء هي ساطعةٌ واضِحةٌ جِدَّاً؟

الوالد: لأَنَّها أكبرُ من الأرضِ مليون وثلاثمئة ألف مَرَّة ، ولولا هذا البعدُ الشَّاسِعُ لكانتْ أَسْطَعَ ، وأَوْضَحَ.

هشام: وهَلْ هَذهِ النُّجُومُ التي نَراها كالنُّقَطِ صَغِيرةٌ جِدّاً؟!

الوالد: لا يا ولدي! إنَّ بَعْضَ النُّجُوم أكبرُ من الشَّمْسِ بكثيرٍ ، ولكنَّها أبعدُ عنها كذلكَ بكثيرٍ ، حتَّى إنَّ بَعْضَها لا يُرى إلَّا بالمكبِّرةِ.

* * *

(٧٢)

حديث القمر

(٢)

هشام: وكَيْفَ النَّاسُ في عَالم القَمَرِ ، وكيفَ دِيانتُهم وأَخْلاَقُهم ، وكيف المساجِدُ والمدارس؟ وهَلْ في المدارسِ اختبارٌ سنويٌّ ، وكُتُبٌ صَعْبةٌ ، ومُعَلِّمُونَ غِلاظٌ؟

الوالد: إنَّكَ لَسَؤُولٌ وحدِّيث ، وهل إذا أخبرتُكَ بأنَّ عالمَ القمرِ ليس فيه مدارسُ ، أو هنالك مَدَارس ، ولكنْ ليس فيها اختبارٌ وامتحانٌ ، والمعلِّمون كلُّهم رحمةٌ وشَفَقةٌ ، لا يعاقِبُون ولا يَغْضَبُون ، فهل تهاجِرُ من الأرضِ إلى القمر؟

هشام: نَعَمْ ، يا أبي! إذا هَاجَرْتَ معي ، وهاجرتْ معنا أُمُّنا وأُسْرَتُنا ، ولكنِّي أَعِدُكَ بأني أقرأُ هنالك.

الوالد: يُؤْسِفُكَ أنَّ القمرَ ليس فيه عمرانٌ ، ولا يُوجَدُ فيه

السُّكَّانُ ، بل هو قاعٌ صَفْصَف؛ لأنَّ البردَ هنالكَ شَدِيدٌ لا يطيقهُ الإنسانُ .

هذا ما وَصَلَ إليه الإنسانُ ، وانتهى إليه عِلْمُه إلى هذا الوقتِ ، ومَنْ يدري لعلَّه يثبتُ خلافُ ذلك غَداً ، فإنَّ عِلْمَ الإنسانِ ناقِصٌ ، وهو كالكوكب السَّيَّار يتحوَّلُ ، ويتغيَّرُ.

فقد نَقَضَ العِلْمُ الحديثُ العالمَ القديمَ ، ومن يقدرُ أن يقولَ: إنه لا ينقضُ هذا الحديثَ أحدثُ منه وأَحْكَمُ منه؟! فالآلاتُ تتحسَّنُ ، وترتقي ، والإنسانُ في اكْتِشافٍ واخْتِبارٍ.

فبالأمسِ كان النَّاسُ يعتقدونَ أنَّ الشَّمسَ تدورَ حول الأرضِ ، وأنَّ الأرضَ ساكنةٌ مُسَطَّحةٌ ، ويَسْتَدِلُّونَ على ذلك بكلِّ شيء ، ثم أثبتوا بالدَّلائلِ والاختبارِ أنَّ الأرضَ مستديرةٌ كرويَّةُ الشَّكْل ، تدورُ حولَ الشَّمس ، وإذا خالفَ ذلك إنسانٌ رأى إليه الناسُ شَزْراً ، وظَنُّوا أنَّه من رجالِ القُرُونِ الماضيةِ .

* * *

(٧٣)
حديث القمر
(٣)

هشام: ومِنْ أينَ هَذا النُّورُ يا أبي ، وهل هُنالِكَ قَمَرٌ آخرُ؟

الوالد: هذا النُّورُ عارِيةٌ من الشَّمْسِ ، فإنَّ نُـوْر الشَّمْسِ ينعكسُ في القَمَرِ ، فيستنيرُ كما ينعكسُ نُورُ المِصْباحِ فتستنيرُ المرآةُ.

هشام: وما هُو الخُسُوفُ يا أبي؟ فقد رأيتُ القَمَرَ ليلةَ الجُمُعةِ مَخْسُوفاً ، ورأيتُ النَّاسَ يتصدَّقُونَ ، ويُصَلُّونَ.

الوالد: القَمَرُ يدورُ حولَ الأرضِ ، و. . . .

هشام: وهَلِ القمرُ أَصْغَرُ من الأرضِ؟

الوالد: نعم ، الأرضُ أكبرُ مِنَ القَمَرِ خمسينَ مَرَّةً ، فالقمرُ يدورُ حولَ الأرضِ ، والأرضُ كما عَلِمْتَ تَدُورُ مع القمرِ حولَ

الشَّمْسِ ، فإذا حالتِ الأرضُ بين القمرِ والشَّمس؛ أصبحتْ حِجاباً للقمر ، وانْقَطَعَ عَنْهُ نُورُ الشَّمْسِ ، وأَظْلَمَ القَمَرُ ، فإذا حَجَبَتِ الأرضُ جُرْمَ القَمَرِ كُلَّه احتجبَ القمرُ كُلُّه ، وإذا حَجَبَت بعضَ جُرْمِه احتجَب وأظلمَ هذا الجزءُ فقط!

هشام: لم أفهمْ ذلك جَيِّداً يا أبي!

الوالد: انظرْ ، هذا مِصباحٌ مُنِيرٌ ، وهَذِه مرآةٌ مَصْقُولةٌ ، وقد أشرقتِ المرآةُ بنورِ المِصْباحِ ، أليسَ كذلكَ يا عزيزي؟

هشام: بلى ، يا سَيِّدي!

الوالد: ولماذا أظلمتْ هذه المرآةُ الآن ، وأين ذَهَبَ النورُ المنعكسُ فيها؟

هشام: لأنَّكَ وَقَفْتَ بينهما ، فحجبتَ النُّورَ عن المرآة ، والمرآةُ المسكينةُ ليس نُورُها فيها ، بل يأتيها مِنَ المِصباحِ.

الوالد: صَدَقْتَ يا ولدي ، وكذلك القَمَرُ مع الشَّمْسِ ، لا يزالُ مستنيراً بنورِها حتى يحولَ بينهما حائِلٌ ، والحائلُ هو الأرضُ فقط.

هشام: ولماذا لا تحولُ الأرضُ دائماً بين الشَّمْسِ والقمر ، ولماذا لا ينخسفُ القمرُ دائماً؟

الوالد: أَحْسَنْتَ السُّؤالَ ، وذلك لأنَّ القَمَرَ يتزحزحُ قليلاً

عنِ مكانِه في الدَّورانِ، فلا تجتمعُ الشَّمسُ والقمرُ والأرضُ على خَطٍّ واحدٍ إلا في النَّادرِ، وإذاً ينخسفُ القمرُ أو تنكسفُ الشَّمْسُ.

هشام: ولا بُدَّ أنَّ الشَّمسَ تنكسفُ إذا حالَ القمرُ بين الشَّمْسِ والأرضِ، فيُحْجَبُ نورُ الشَّمْسِ عن الأرضِ بطبيعةِ الحالِ.

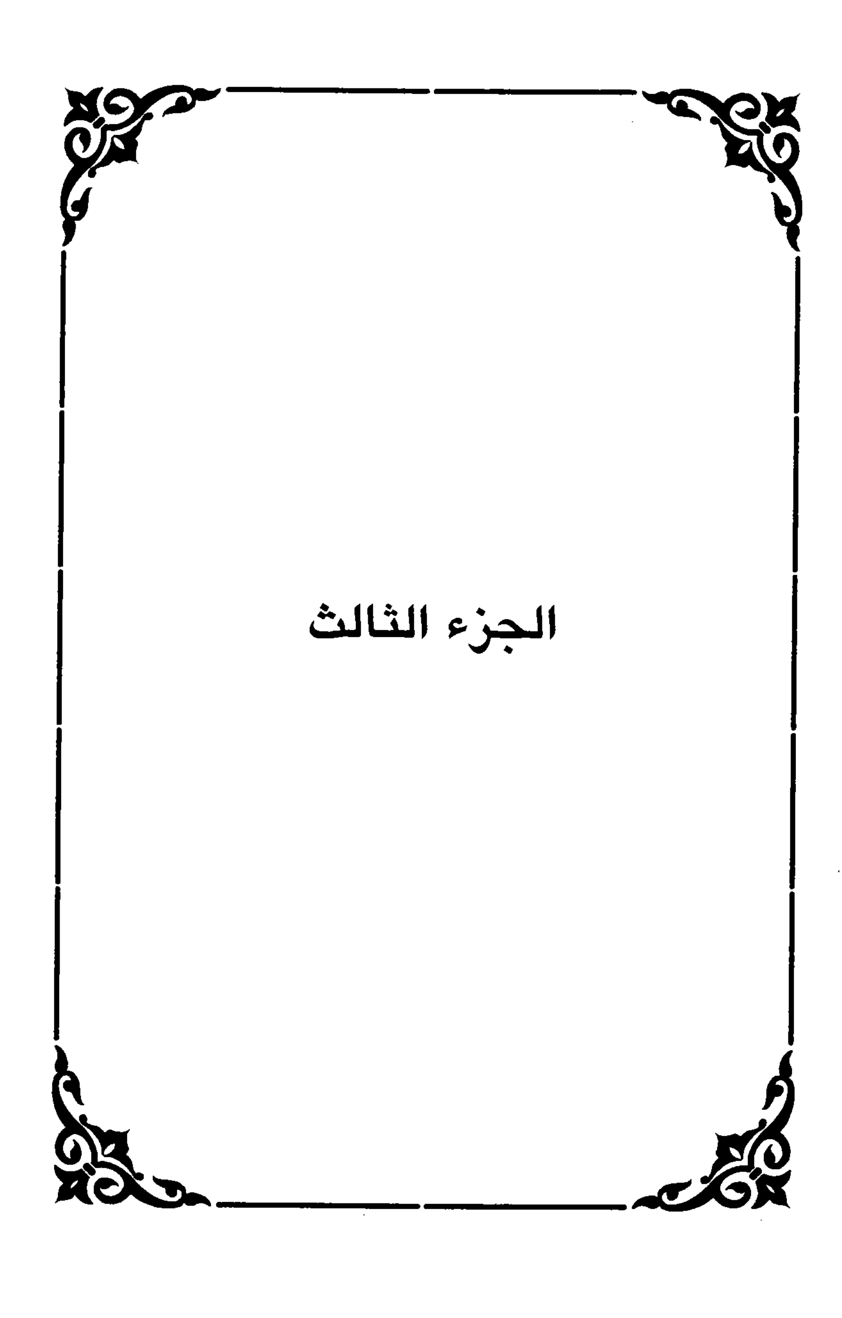
الوالد: إنَّكَ لَوَلَدٌ فَطِنٌ، وقد أَصَبْتَ في القِياس.

هشام: وماذا ينبغي لنا أن نَعْمَلَ عند الكُسُوفِ والخُسُوفِ؟

الوالد: كان النَّاسُ في قديمِ الزَّمانِ يَعْتَقِدُونَ أنَّ الشَّمسَ والقمرَ إنَّما ينكسفانِ لحادثةٍ مُهِمَّةٍ في الأرضِ، لموتِ رجلٍ جليلٍ مثلاً، وماتَ إبراهيمُ بن محمدٍ عليه السلام فانْكَسَفَتِ الشَّمسُ، فقالوا: إنَّما انْكَسَفَتِ الشَّمْسُ لموتِ ابنِ الرسول، فقامَ رسولُ اللهِ ﷺ يجرُّ رِداءه حتَّى دَخَلَ المسجدَ، فَدَخَلَ المسلمونَ، فصلَّى بهم ركعتين حتَّى انْجَلَتِ الشَّمْسُ فقال: «إنَّ الشَّمسَ والقمرَ لا يَنْكَسِفَانِ لموتِ أحدٍ ولا لحياته، فإذا رَأَيْتُمُوهُما فَصَلُّوا، وادْعُوا حتى يُكْشَفَ ما بكم».

وقال: «إنَّهما آيتانِ من آياتِ اللهِ، لا يُخْسَفانِ لموتِ أحدٍ ولا لحياته، فإذا رَأَيْتُمُوهما فافْزَعُوا إلى الصَّلاة».

❋ ❋ ❋



الجزء الثالث

(٧٤)

الحياة في مدينة الرسول ﷺ

هاهُوَ ذا قَدْ أسفرَ النَّهارُ ، والنَّاسُ راجعونَ من المسجدِ النَّبويِّ في سَكِينةٍ ووَقَارٍ ، ولكنْ في خِفَّةٍ ونَشَاطٍ ، وهُنَا دُكَّانٌ يُفْتَحُ في السُّوقِ ، وهنالك سكَّةٌ تمشي في الحقل ، وهذا بستانٌ من نخيلٍ يُسْقَى ، وذلك أجيرٌ يشتغلُ في حائطٍ على أجرةٍ يأخذُها في المساء ، قد اندفعوا إلى أَشْغَالهم بما سَمِعُوا من فضيلةِ كَسْبِ الحلالِ ، وطَلَب مَرْضَاةِ اللهِ بالمال ، تَرَوْنَهُمْ خِفافَ الأيدي في العَمَلِ ، ذُلَلَ اللِّسانِ بذِكْرِ اللهِ ، عامِري القلوب بالحِسْبة وطَلَبِ الأَجْرِ ، يحتسبونَ في أَشْغالهم ما لا يحتسبُ المصلِّي اليومَ في صلاتِه ، مُقْبِلينَ بِقُلُوبهم إلى اللهِ وبقالبهم إلى شُغْلِهم ، وهاهُوَ ذا قد أذَّنَ المؤذِّنُ ، فإذا بهم يَنْفضُونَ أيديهم مما كانُوا فيه ، كأنْ لم يَكُنْ لهمْ به عَهْدٌ ، وخَفَّ إلى المسجد : ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ

ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ .

وهاهو ذا قد قَضَوْا صلاتَهُمْ ، وانْتَشَرُوا في الأرضِ يَبْتَغُونَ من فَضْلِ اللهِ ، ويَذْكُرونَ اللهَ ، وقد مالتِ الشَّمسُ إلى الغُروبِ ، فرجَعُوا إلى بُيوتِهِم ، وقابَلُوا أَهْلَهم ، وجَلَسُوا إليهم يَتَحَدَّثُون معهم ، يُلاطِفُونَهُمْ ، ويُؤْنِسُونَهُمْ طَمَعاً في أَجْرٍ من اللهِ ورِضْوانٍ ، وناموا بعد صَلاةِ العِشاءِ ، وإذا بهم قائِمُون أمامَ ربِّهِمْ في الأَسْحارِ ، لهم دَوِيٌّ كَدَوِيِّ النَّحْلِ ، وفي صُدُورِهِمْ أزيزٌ كأزيزِ المِرْجَلِ ، ويَنْصَرِفُونَ بعد صَلاةِ الصُّبْحِ إلى أَشْغالهم في نَشَاطِ الجنديِّ وقُوَّتِه ، كأنْ لم يَتْعَبوا في النَّهار ، ولم يَسْهَرُوا في اللَّيلِ .

انْظُروا إلى مَجَالسِ الذِّكْرِ والعِلْمِ في المسجدِ ، وقد ضَمَّتْ صُنُوفاً وأَنْواعاً من النَّاس ، فهذا هو الفَلاَّحُ الذي رأيته في النَّهارِ في حَقْلِه ، وهذا هو الأجيرُ الذي رأيته ينزعُ الدِّلاء ، ويَسْقي النَّخِيلَ في بُستانٍ يهوديٍّ ، وهذا هو التَّاجرُ الذي رأيته في سُوقِ المدينةِ يبيعُ ، وهذا هو الصنَّاعُ الذي وَجَدْته مُشْتَغِلاً بصناعتِهِ ، وليسوا الآنَ إلا طَلَبة عِلْمٍ ، وقد هَجَرُوا رَاحَتَهُمْ ـ وهم في حاجةٍ إليها بعد شُغْلِ النَّهارِ ـ وتَرَكُوا أَهْلَهُمْ وهم في حَنِينٍ إليهم؛ لأَنَّهُمْ سَمِعُوا أَنَّ الملائكةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَها لطالبِ العِلْمِ رِضاً بما صَنَعَ ، ولأَنَّهم سَمِعُوا «لا يقعدُ قومٌ يذكرونَ اللهَ إلا

حَفَّتْهُمُ الملائكةُ ، وغَشِيَتْهُمُ الرَّحمةُ ، ونَزَلَتْ عليهمُ السَّكِينةُ ، وذَكَرَهُمُ الله فيمن عنده» .

تراهُم سَاكِتينَ كأنَّ على رُؤوسِهِم الطَّيرَ ، خاشعينَ كأنَّ الوَحْيَ ينزلُ : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ .

يتسابقُ العلمُ والخشوعُ ، فلا يُدرى أيُّهما أَسْبَق ، وتبتدرُ المعاني إلى القلوبِ والكلماتُ إلى الآذانِ ، فلا يُدرى أيُّهما أَسْرَع .

وقَدِ اتَّفَقَ كثيرٌ مِنَ النَّاسِ على التَّناوبِ ، فإذا غابَ أَحَدُهُم عن مجلسِ الرَّسولِ الكريمِ حَضَر جارُه أو أخوه ، فيخبرُ الأولَ بما دارَ في المجلسِ من حديثٍ ، وما نَزَلَ من آيةٍ .

وهؤلاء هُمُ القُرَّاءُ قد انْقَطَعُوا إلى العِلْم ، فإذا جَنَّهُمُ اللَّيلُ انْطَلَقُوا إلى مُعَلِّمٍ لهم في المدينة ، فيدرسون اللَّيلَ حتَّى يُصْبِحُوا ، فإذا أَصْبَحُوا فمنْ كانتْ له قُوَّةٌ استعذبَ من الماءِ ، وأصابَ من الحَطَب ، ومَنْ كانت عنده سَعةٌ اجتمعُوا فاشْتَرَوا الشَّاةَ ، وأَصْلَحُوها ، فيصبحُ ذلك مُعَلَّقاً بِحِجْرِ رسولِ اللهِ ﷺ .

وما مِنْ أَحَدٍ في المدينةِ إلا ويعرفُ الحلالَ والحرامَ ، وما يَتَعَلَّقُ بحياتِه ، وحِرْفَتِه ، وشُغْله مِنَ الأحكام ، ويحفظُ من

القُرآنِ ما يقومُ به في صَلاتِه ، ثم هو مُسْتَمِرٌّ في طَلَبِ العِلْم ، يزدادُ كُلَّ يومٍ فِقْهاً في الأحكام ، ورُسُوخاً في الدِّين ، وحِرْصاً على العملِ ، وشَوْقاً إلى الآخرة ، ورَغْبةً في الثَّوابِ ، وعِلْمُهم بالفَضَائلِ أكثرُ من عِلْمِهم بالمسائل ، وبأُصُولِ الدِّين أكثر من عِلْمِهم بفروعه ، أبرُّ النَّاسِ قلوباً ، وأَعْمَقُهم عِلْماً ، وأَقَلُّهُمْ تكَلُّفاً.

وإذا تعلَّم أحدٌ منهم شيئاً من الدِّينِ أسرعَ إلى إخوانِهِ يُعَلِّمُهُم؛ لأنَّه سَمِعَ «أَلَا فَلْيُبَلِّغِ الشاهدُ الغائبَ ، فَرُبَّ مُبلَّغٍ أوعى من سامِعٍ» وسَمِعُوا نبيَّهم يقولُ: «إنَّما بُعِثْتُ مُعَلِّماً» وسَمِعُوه يقول: «لا حَسَدَ إلاَّ في اثْنَيْنِ رجلٍ آتاهُ اللهُ مالاً فسلَّطَهُ على هَلَكَتِه ، ورجلٍ آتاه اللهُ الحكمةَ فهو يقضي بها ، ويُعَلِّمها».

وهكذا انقسمَ المسْلِمُونَ في المدينةِ بين طالبٍ ومُعَلِّم ، فإمَّا طالبٌ وإمَّا معَلِّم ، بل كلُّ واحدٍ منهم طالبٌ ومُعَلِّمٌ في وقتٍ واحدٍ ، يأخذُ من مكانٍ ، ويدفعُ إلى مكانٍ.

هل عرفَ التَّاريخُ مدرسةً أوسعَ من هذه المدرسةِ النَّبويةِ التي يقرأُ فيها التاجرُ ، والفلاَّحُ ، والأجيرُ ، والصنَّاعُ ، والمحترفُ ، والمشغولُ ، والشَّابُّ الناهضُ ، والشَّيخ الفاني؟ يتعلَّمُونَ فيها بجميع قُواهُمْ ، فالأذنُ تَسْمَعُ ، والعينُ تُبْصِرُ ، والقلبُ يشعرُ ، والعقلُ يُفكِّر ، والجوارحُ تَعْمَلُ.

عَرَفُوا أحكامَ الاجتماعِ في الاجْتماعِ ، وأحكامَ الاختلاطِ في الاختلاطِ ، وأحكامَ التِّجارةِ في التِّجارةِ ، وأحكامَ المعاشرةِ في المعاشرةِ ، فاسْتَطَاعُوا أن يُحافِظُوا على دِيْنهم ، ونِيَّاتهم ، وخُشُوعِهم ، وذِكْرِهم ، في المجامعِ ، والمجالسِ ، وفي صَخَبِ الأَسْواقِ ، وفِتْنَةِ البيوتِ ، فإذا خاضُوا في الحياةِ لم يُغْلَبُوا على أَمْرِهِمْ ، شأن الذي يتعلَّمُ السِّباحةَ في بحرٍ مُتلاطِمٍ ، وفي نَهْرٍ فَيَّاضٍ ، فكانُوا في المسجدِ إذا خَرَجُوا من المسجدِ ، وفي الصَّلاةِ إذا انْصَرَفُوا من الصَّلاةِ ، بَرَرَةَ القُلُوبِ ، صادِقي الوَعْدِ ، سَدِيدي القولِ في المساجدِ والأَسْواقِ معاً ، وفي المُعْتَكَفِ والحانوتِ معاً ، وفي الحَضَرِ والسَّفَرِ معاً ، ومع الصَّدِيق والعَدُوِّ معاً .

حتى إذا نادى مُنادي الجهادِ : ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ وهَتَفَ هاتفُ الجنَّةِ : ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ أقفلَ التاجرُ دُكَانَّهُ ، وتركَ الفَلاَّحُ سِكَّتَهُ ، ورمى الصنَّاعُ آلاتِه ، وتركَ الأجيرُ رِشاءَ دَلْوِه ، وخَرَجُوا في سَبيلِ اللهِ لا يَلْوُونَ على شَيءٍ ، كأَنَّهم كانوا من ذلك على مِيعادٍ ، وفي دِيارهم وأَهْلِهِمْ على مُسامحةٍ ورُخْصَةٍ .

وتَرَوْنَهُم يتجوَّلُونَ في البلادِ ، ويَسِيحُون في الأرضِ ،

كأنَّهم خُلِقُوا على ظُهورِ الخيلِ ، ووُلِدُوا على مُتُونِ الإِبلِ ، يعدُّون غَدْوةً أو رَوْحةً في سَبيلِ اللهِ أفضلَ من الدُّنيا وما فيها ، يَصِلُونَ النَّهارَ بالليل ، والشِّتاءَ بالصَّيف ، وهُمْ أيْنَمَا رَحَلُوا ونَزَلُوا مدارسَ سَيَّارة ، ومَساجِدَ مُتَنَقِّلَة ، وهكذا نَشَروا الدِّينَ مِنْ أقصى الأرضِ إلى أقصاها ، ومن شَرْقِها إلى غَرْبِها .

[من رسالة «إلى ممثلي البلاد الإسلامية» للمؤلف]

* * *

(٧٥)

من النجـوم إلى الأرض

(١)

درَسْتُ في المدرسةِ أمس أنَّ النُّورَ يَقْطَعُ مئة ألف وثمانين ميلاً في ثانية ، وأنه يمكنُ له أن يطوفَ حولَ خَطِّ الاستواءِ سبعةَ أشواطٍ في أقلَّ من ثانيةٍ .

وسمعتُ أنَّ مِنَ النُّجوم ما لا يصلُ ضوءهُ إلاَّ في ألفي عام ، ومنها ما لا يصلُ ضوءُه إلاَّ في أكثر من ذلك ، وأنَّ ضوءَ بعضِ النُّجُومِ منذ طلعتْ لا يزالُ في طريقِهِ إلى الأرضِ ولمَّا يصلُ إليها .

لِي غَرَامٌ شَدِيدٌ بالتَّاريخ ، لا أزالُ أُطالِعُه برغبةٍ عظيمةٍ ، وأتمثَّلُه أمامَ عيني ، كأنَّ الحوادثَ واقعةٌ ، والأشخاصَ أحياء ، ولا أزالُ أتأسَّفُ على ما فاتَنِي من مشاهدةِ الحوادثِ في ساعتها ، ومِنْ زيارةِ رجالٍ من عُظماء التَّاريخ في زَمانِهِم ، ولم

أَزَلْ من صِباي أقولُ لوالدي وأصدقائي: يا لَيْتَنِي وُلِدْتُ في الزَّمنِ الماضي، فشاهدتُ كذا وكذا من الوقائع، وزُرْتُ فلاناً وفلاناً من الرِّجال، لقدْ غاب عنِّي طوفانُ نوحٍ، ومحنةُ إبراهيم، وخُروجُ بني إسرائيل، وَسَبَقتني بِعْثَةُ الرَّسُولِ عليه الصلاة والسلام بأكثر من ألفِ عام، وفاتَنِي عهدُ الخلافةِ الرَّاشدةِ، وفاتني حضارةُ بغداد، وعَهْدُ قرطبة، وغرناطة، وفاتني، وفاتني، وفاتني...

وكنتُ أعدُّ الحوادثَ الكبيرةَ، والرِّجال العُظَماءَ، وأقولُ في حُزْن وأَسَفٍ: لقد تأخرتُ كثيراً، فليتَ الزَّمانَ يعودُ، وليتَ البَشَرَ يستأنِفُونَ السَّفَرَ، وليتَ العالمَ يَرْجِعُ القَهْقَرَى، وليتَ التاريخَ يُرَدُّ على أَعْقابهِ، فأشهدُ ما مضى، وأعاشرُ مَنْ سَبَقَ.

وكنتُ أُفكِّرُ لو كان أحدٌ فوق نَجمٍ لا يصل ضوءُه إلى الأَرْضِ إلاَّ في آلافٍ أو مئات من السِّنين لرأى العالمَ كما كان قَبْلَ آلافٍ أو مئات من السِّنين، وكذلك يمكنُ أن يطالِعَ أهلُ النُّجوم أَدْوَارَ التَّاريخ الماضية، ويُشَاهِدُوا الحوادثَ، والأشخاصَ في زَمَنِهم وفي محلِّهم.

سُرِرْتُ من ذلك جدَّاً، كأني وجدتُ ضالَّتي، وعرضتُ هذه الفكرةَ البديعةَ على مُعَلِّم الطَّبِيْعِيَّاتِ؛ لأنِّي لا آمنُ على نَفْسِي الخطأ.

قال المعلِّمُ: نعْم ، إذا فَرَضْنا أنَّ أَحَداً فوقَ الشَّمس ـ وهي تبعدُ من الأرض ثلاثةً وتسعين مليوناً ـ فإنه يَرَى في الأرضِ ما وَقَعَ قبل ثماني ثوانٍ فقط ، فإنَّ ضَوْءَ الشَّمْسِ يصلُ إلى الأرضِ في ثماني ثوانٍ.

وهكذا نَتَدَرَّجُ ونقولُ: مَنْ كان فوقَ النُّجوم العالية التي يصلُ ضَوْءُها إلى الأرضِ في آلافٍ من السِّنين ، لكانُوا يرون حوادثَ قبلَ التاريخ ، وما وَقَعَ قبل آلافٍ من السِّنين.

لم أزلْ أفكِّرُ في ارتفاع النُّجوم وبُعْدِها عن الأرضِ ، ومُطالعةِ أَهْلِها لما وَقَعَ في الأرضِ ، حتى لم أَشْعُرْ إلاَّ وأنِّي في مكانٍ أطالعُ فيه الأرضَ بمكبِّرةٍ كبيرةٍ.

فإذا بي أرى الأرض غيرَ الأرضِ التي كنتُ أَعْرِفُها ، والنَّاسَ غير الَّذين عَهِدْتُهم، أرى المساجدَ عامرةً غاصَّةً بالمصلِّين، وأرى الحدودَ قائمةً ، وأحكامَ الشَّرعِ نافذةً ، وأُجيلُ مُكبّرتي ، وأنظرُ من خِلالها، فلا أرى فُجُوراً، ولا دَعَارةً، ولا سُكْراً، ولا قِماراً.

واطَّلعتُ على بقعةٍ فيها نخلٌ كثير ، ومسجدٌ بسيطٌ ، قد غشِيَتْهُ سَحابةٌ من النُّورِ والبركةِ، وعرفتُ أنَّها مدينةُ الرَّسولِ ﷺ، ورأيتُ بيوتاً مُتواضِعةً ، قد بُنِي أَكْثَرُها من اللَّبِن ، ولكنِّي رأيتُ هنالك سُفراءَ الدُّولِ الكبيرة ، وأبناءَ ملوكٍ قد أَسْلَمُوا ، فعرفتُ

أنَّ هذه المدينةَ الصَّغيرةَ مع بَسَاطَتِهَا تحكمُ العالم ، ويُجبى إليها خَرَاجُ إيران ورومة .

وبحثتُ في هذه المدينةِ فلمْ أَجِدْ فيها محكمةً ، ولا سِجْناً ، فقلتُ في نَفْسي : فأين يذهبُ المتخاصِمُون؟ وأين يُحْبَسُ المجرمون؟ فإذا بي أرى رجلاً جالِساً في مسجدِ الرَّسُولِ ﷺ في ثيابٍ مرقوعةٍ ، أُلقِيتْ عَلَيهِ مَهَابةٌ وجَلالٌ ، قد حَضَرَ لديه خَصْمَان ، ورَفَعا إليه القضيَّةَ في بَسَاطةِ الأعراب ، وقالا : ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ .

سَمعَ الرَّجلُ القضيةَ في هُدُوءٍ وتأنٍّ ، وقال للمدَّعي : «البَيِّنَةُ على مَنِ ادَّعى ، واليمينُ على مَنْ أَنْكَر» فهل عندكَ بينةٌ أو أستحلفُ الرَّجُلَ؟» وقدَّم الرجلُ شُهوداً عدولاً ، فقضى له ، وانفصلتِ القضيةُ في ساعةٍ ، وقام الفريقان ورَضِيا بحُكْمِ الشَّرْع ، فقلتُ : ولا يحتاجُ هؤلاءِ إلى مَحْكَمةٍ ومُحامين .

ورأيتُ أبوابَ البيوتِ في اللَّيلِ مَفْتُوحةً ، ورأيتُ بيتَ المالِ وقد أَتَى إليه خَرَاجُ إيران في ذلك اليومِ ، لَيْسَ له حارسٌ ، ولا شرطةٌ ، وقد جاء تاجُ كِسْرى وهو يساوي مئات آلافٍ من الدَّنانير ، وقد وَقَعَ إلى جنديٍّ حقيرٍ ، فأدَّاهُ إلى أميرِ الجند ، وأرسله أميرُ الجند إلى الخليفة ، وجاء بعضُ السُّرَّاق وَسَرَقُوا : فَقُطِعَتْ يَدُهُم ، فقلتُ : لا يحتاجُ هؤلاء إلى سِجْنٍ أو مَحْبَسٍ .

وأشرفتُ على بيوتهم فوجدتُ معيشةً صافيةً ، وحياةً راضِيةً لا يُكَدِّرُها حَسَدٌ ، ولا بَغْضَاءُ ، ولا طَمَعٌ ، ولا جَشَعٌ ، يُؤْثِرُونَ على أَنْفسُهِم ولو كان بهم خَصَاصَةٌ ، ويُهْدِي جارٌ إلى جارٍ فَتَدُور الهدية على الحيِّ ، وترجعُ إلى صاحبها الأول. لا يأكلُ فيهم القويُّ الضَّعيفَ ، ولا يَظْلِمُ الكبيرُ منهم الصَّغير ، يحنو عليهم الخليفةُ والأمراءُ ، فهم لهم كالآباءِ ، ويُطِيعهم العامةُ ، ويُوقِّرُونَهُم ، ويَنْصَحُون لهم ، فهم لهم كالأبناء ، ويَتَنَاصَحُون بينهم ، فهم إخْوةٌ.

واطَّلَعْتُ على ثُكْناتِهم ـ وسمعتُ أنَّ الجندَ أفسدُ الناسِ أخلاقاً ، وأَبْعَدُهم عن الدِّين والفَضِيلة في كُلِّ زمانٍ ـ فوَجَدْتُهم بالليل رُهْباناً ، لهم دَوِيٌّ كَدَوِيِّ النَّحْلِ ، وأمَّا بالنَّهارِ ففرسانٌ يثقِفُون القَنَا ، ويَرِيشُون النَّبْلَ ، يُوفُونَ بالعَهْدِ ، ويأمرُون بالمعروف ، ويَنْهَوْن عن المنكر ، لا يأكُلُون في ذِمَّتهم إلاَّ بِثَمَنٍ ، ولا يَدْخُلُون إلاَّ بِسَلام ، ويَعِفُّون عن المحارم ، ويَغُضُّون البصر ، فقلتُ: إذا كان الجندُ فيهم هكذا فكيفَ بالعُبَّادِ الزُّهَّادِ؟!

قلتُ: لعلَّ هذا دورُ الخلافةِ الرَّاشدةِ ، وصدقت ما قرأتُ في التَّاريخ ، وقلتُ: ذلك قليلٌ من كثيرٍ.

* * *

(٧٦)

من النجـوم إلى الأرض

(٢)

ونزلتُ أسفلَ من ذلك المكان فرأيتُ الأمورَ قد تَغَيَّـرتْ ، وأنَّ العاصمةَ قد تحوَّلتْ من المدينة ـ على ساكِنها ألفُ ألفَ سلامٍ ـ إلى «دمشق الشام» ، فإذا قُصورٌ عاليةٌ قد عُلِّقَتْ على أبوابِها سُتورٌ جميلةٌ ، وكُسِيتْ جُدْرانُها بثيابٍ فاخرةٍ ، وإذا مساجدُ شامخةٌ تناطحُ مناراتُها السَّماءَ ، وهي عامرةٌ بالمصلِّين ، ورأيتُ فيها حلقاتِ الدَّرسِ ، ومجالسَ العلم ، وهي غاصَّةٌ بطلبةِ عِلْمِ الدِّين ، والشُّيوخ يُحدِّثُون عن النَّبي الكريم ﷺ والنـاسُ يَـكْتُـبُون ويَحْفَظُونَ.

ورأيتُ الناسَ أنواعاً، منهم الزُّهَّاد، والعُبَّاد ، وطلبةُ العلم، ومنهم المترفُون ، ورأيتُ آثارَ الحرية والتَّرف ، ورأيتُ الناسَ

طبقاتٍ في الغِنى والثَّروة والجاهِ والشَّرَفِ ، فهذا ابنُ الخليفةِ في زهوه وخُيلائه ، وذلك عاملُ العراقِ في خَدَمِهِ وحَشَمِه ، وهذا سُوقيٌّ ، وذلك شَرِيفٌ.

ورأيتُ بعضَ الحدودِ قائمةً ، وبعضَ أحكام الشَّرع نافِذة ، ورأيتُ العلماءَ وأهلَ الدِّين يحتسبُون على النَّاسِ متطوِّعين ، فيخضعون لهم ، ويستسلمون ، ورأيتُ النَّاسَ غير مُجاهِرين بالفِسْق ، غير مُصِرِّين على المعصية ، يحتشمونَ أهلَ الدِّينِ والعِلْمِ.

ورأيتُ الخليفةَ والأميرَ مع تَرَفِه يُصَلِّي بالنَّاسِ ، ويخطبُ فيهم ، ويجلسُ لهم ، ورأيتُ مدينةً عربيةً ، فالخلفاءُ يَصِلُون الشَّعراء بجوائزَ كبيرةٍ ، ويَنْحَرُون جَزُوراً ، ويُطْعِمُون النَّاسَ ، ورأيتُ دولةَ المسلمين قد اتَّسعتْ حتى امتدَّتْ إلى حُدودِ «الهند» في جانب ، وإلى ساحل البحر الأطلانتيكي في جانبٍ آخر ، لا تُقْطَعُ في أقلّ من خمسةِ أشهرٍ على أَسْرعِ جَمَلٍ.

فقلتُ: لعلَّ هذا عصرُ الأمويين ، ولعلِّي في نهايةِ آخرِ القرنِ الأوَّلِ.

ثم انحـدرتُ إلى أسفل ، فرأيتُ مدينـةً حديثـةً على ضفَّتـي دجلة ، ورأيت مدينة خَلِيطاً ، فيها صورٌ عربيةٌ ، وفيها صورٌ عَجَمية ، والناسُ أخلاطٌ فيهم العربُ ، وفيهم الفُرْسُ ، وفيهم

أهلُ الهند ، وكثيرٌ منهم الترك ، ورأيتُ قَصْرَ الخليفةِ مثلَ قُصُورِ ملوكِ العجمِ يحرسُه الترك ، وكذلك قُصُور الوزراءِ والأمراءِ ، ورَأَيْتُهُم يخرُجُونَ في مَواكب ملوكيةٍ في أُبَّهةٍ عَظِيمةٍ.

ورأيتُ بعضَ النَّاسِ يربُّون الحَمَامِ ، ويشترونه بأثمانٍ غاليةٍ ، ويتهارشُون بالدُّيوك والكِلاب ، ورأيتُ أنواعَ اللهو واللعب ، فقلتُ: جاءَ هذا من كثرةِ الأموالِ ، واختلاطِ الأعاجمِ.

ورأيتُ القضاةَ وقاضي القُضاةِ قد ازدحمَ عليه المتظلمون ، وهو يَقْضِي بينهم ، وقد تأخذُ قضيةٌ أياماً. ورأيتُ السُّجونَ قد غصَّت بالمجرمين ، واللُّصوص ، والشُّطَّار.

ورأيتُ كذلك مساجدَ مزدحمةً بالمصلِّين ، ومدارسَ غاصَّةً بطلبةِ علوم الدِّين ، ومجالسَ الوَعْظِ عامرةً بالمستمعين ، ورأيتُ الناسَ يَجُزُّون نواصيهم ويخرُّون مغشيَّاً عليهم ، ويَتُوبون عن المنكرات ، ويُسْلِم كثيرٌ من أهل الذِّمَّة كلَّ جمعة ، فقلت: إنَّ الناسَ لم يفقدُوا قلوبَهم ، وإنَّ الدينَ لا يزال له سلطانٌ على القلبِ والرُّوح.

ورأيتُ كذلك رجالاً مُنْقَطِعين عن الدُّنيا ، مُعْرِضِين عن الملوكِ وجوائزهم وصلاتهم ، يأتي إليهم النَّاسُ من «خراسان» و«الهند» و«إيران» ويستفيدون ، وتأتِيهمُ الدُّنيا راغمةً ، ويأتيهم

الملوكُ والأُمراءُ صاغِرين ، فرأيتُ دولةً دينيَّةً تُزاحِمُ الدَّولةَ الماديَّةَ ، وتفوقُها في العِزَّة والسُّلطانِ.

ورأيتُ أكبرَ دولةٍ على وَجْهِ الأرضِ ينظرُ ملكُها أو الخليفة ـ كما يقولُ الناسُ في تلك البلادِ ـ إلى سحابةٍ فيقولُ: «أمطري حيثُ شئتِ فسيأتيني خراجُكِ».

فقلتُ: هذه بغداد عاصمةُ الدَّولةِ العبَّاسيةِ ، ولعلِّي في القرنِ الثالث.

وحانتْ مني التفاتةٌ إلى خليجِ جبل الطارق ، فرأيتُ على ضفَّته مدينةً زاخرةَ العُمْرانِ ، شامخةَ البنيان ، ورأيتُ فيها قصوراً مُتَّسقة ، وحدائقَ مُتناسبة ، وشوارعَ مَرْصُوفة ، وعُيوناً مُتَدَفِّقة ، وجُسُوراً مَنْصُوبة ، ومساجدَ مُزَخْرَفَة ، ومدارسَ مُشَيَّدة ، فتذكَّرتُ ما قرأتُ في التاريخ عن مدينةِ قرطبة ، وعرفتُ أنَّ مساحتها ستةَ عشرَ ميلاً في الطُّول ، وستة أميالٍ في العَرْض ، وأنَّ فيها مئة ألف وثلاثةَ عشرَ ألفاً من القصور والمنازلِ ، وثمانون ألفاً وأربعمئة من الدَّكاكِين ، وسبعمئة من المساجدِ ، وتسعمئة حمَّام ، وأربعة آلاف وثلاثمئة مخزن ، وإحصاءُ المدينة يربو على مليون.

ورأيتُ في المدينةِ متنزَّهاتٍ فسيحةً ، وحدائقَ ذاتَ بَهْجةٍ

وطُرقاً وشوارعَ مُبَلَّطة بالحجر ، وسُرادقاتٍ منصوبةً يأوي إليها الغرباءُ، والباعةُ، والسَّابلةُ في الحر والشَّمس ، ورأيتُ الأسواقَ مشحونةً بالمتاجر والسِّلع الغالية ، التي جُلِبَتْ من بلادٍ بعيدةٍ ، ورأيتُ رباطاتٍ للجوَّابين والتُّجَّارِ.

ورأيتُ بجنب مدينـة قرطبة مدينةً صغيرةً ما رأيـتُ أجملَ منها على وَجْهِ الأرض ، فقلتُ: لعلَّها مدينة الزَّهراءِ المعروفة في التَّاريخ ، وأنا في القرن الرَّابع ، وهذه أيامُ ملكِ الأندلس عبد الرحمن الناصر ، أو ابنه حكم الثاني.

* * *

(٧٧)

من النجـوم إلى الأرض

(٣)

وصرفتُ نَظَرِي من الغَرْب إلى الشَّرْق ، فرأيتُ دولةً قويةً واسِعَـةً ، قـاعـدتُهـا «نيسـابـور» تحكـمُ «خـراسـان» و«العـراق» و«إيران» ، ويتحكَّمُ ملوكُها في «بغداد» وينصبُون ويعزلون ، ويغزو ملكُها ألب أرسلان الأفرنجَ في ديارهم ، ويأسِرُ مَلِكَهم النَّصرانيَّ ، ويضربُ عليهم الجِزْيةَ ، وقد بلغتْ هذه الدولةُ أوجَها في عَهْدِ ملك شاه ، ووزيره الفاضل نظام الملك الطوسي ، فرأيتُ المدرسةَ النّظاميةَ في «بغداد» عامرةً آهلةً ، يُدرِّسُ فيها مثلُ الإمام أبي حامد الغزالي ، وتنفقُ عليها الدولةُ السَّلجوقية ، ورأيتُ شقيقتها المدرسةَ النظامية في «نيسابور» يُدرِّسُ فيها مثلُ إمامِ الحرمين الجويني ، فقرَّتْ بذلك عيناي ، ودعوتُ للدَّولةِ السَّلجوقيةِ ، وملِكها ، ووزيرِها .

وما لبثتُ أنْ رأيتُ الأفرنجَ يحملُون الصُّلْبَانَ ، ويُغِيرُونَ على البلادِ الإسلاميَّةِ ، ورأيتُهم من كُلِّ حدبٍ يَنْسِلُونَ ، وقد جُنَّ جُنُونُهم ، حتى سافر ألوفٌ من الأطفال والغلمان من بلاد الإفرنج ليفتحُوا القُدْسَ ، وقد غَرِقَ أكثرُهم في الطريقِ ، وماتوا ، ورأيتُ ملوكَ أوربا قد تحالَفُوا على ذلك ، وتدفقتْ من أوربا جنودٌ من الصَّليبيين حتى أَخَذُوا القدسَ ، ووَضَعُوا في المسلمين السيفَ ، حتى سالتْ بدمائهم سككُ مدينةِ القدس ، وزلقتْ فيها الخيلُ ، وأَخَذُوا أكثرَ مدن «سورية» و«فلسطين» وهدَّدوا مصر والعراق ، وطَمِعُوا في الحجاز ، وبلغتْ بهم الجراءةُ والوقاحةُ أن حلفَ منهم أميرٌ على إهانةِ الجسدِ الطَّاهرِ الدَّفين في المدينة ، عليه ألفُ ألف سلامٍ.

رأيتُ كلَّ ذلك ، والتفتُّ إلى الدولة السَّلجوقية في «نيسابور» وقلتُ: أين ملوكُها الذين كانوا يَغْزُون الأفرنجَ ، ويهزمُونهم مرَّةً بعد أُخْرى ، فإذا هي قد انقرضتْ سنة (٥٣٢ هـ) والتفتُّ إلى المسلمين فرأيتُهم في لهوٍ ولعبٍ ، وفي غزوٍ ونَهْبٍ ، بأسُهم بينهم شَدِيدٌ.

ورأيتُ الناسَ والملوكَ والوزراءَ والعلماءَ في شُغلٍ عن الأفرنجِ ، فَخِفْتُ على الإسلامِ ، وقلتُ: على الدِّين السَّلام.

وإذا بالسُّلطان نور الدِّين الزَّنكي ، والسُّلطان صلاح الدِّين

الأيوبي وقد نَزَلا بالأفرنج ، وقارعاهم قِراعاً شَديداً ، ولم يزلْ صلاحُ الدِّين يضربُ الحديدَ بالحديدِ حتى هَزَم الأفرنجَ في طبرية شرَّ هزيمة، ودعا بالبرنس الذي حَلَفَ على إهانةِ جَسَدِ رسول الله ﷺ ، وضَرَبَ رأسَه بيده قائلاً: اليوم أنتصرُ لمحمد ﷺ.

وانتزعَ القدسَ والمدنَ الشَّاميةَ من أيدي النَّصارى ، وبَيَّضَ وَجْهَ المسلمين في العالم ، وكان فَتْحاً تضاءلتْ أمامَهُ الفتوحُ ، وأثنى عليه الملائكةُ والرُّوحُ ، وقال قائلٌ من المسلمين:

هذا الذي كانتِ الأيامُ تنتظرُ فليوفِ لله أقوامٌ بما نَذَرُوا

ثم انحدرتُ إلى أسفل ، فرأيتُ أنَّ بغداد التي زُرْتُها قبلَ دقائق؛ قد زَحَفَ إليها جرادٌ من التَّترِ ، فَخَرَّبها تخريباً ، وفَجَّروا من دماءِ أهلها أَنْهاراً ، ورَفَعُوا من رؤوسهم مَنَاراً ، وقَتَلُوا الخليفة المستعصم شرَّ قتلة ، ورَمَوا بالكتبِ النَّفيسةِ في ماء دجلة ، فاسودَّ تارةً بسوادها ، واحمرَّ تارة بدماءِ أهلها ، ولولا أنِّي أعرفُ مكانَها على شاطىء دجلة لأنكرتُ هيئتها ، ولم أعدْ أعْرِفها.

ورأيتُ التَّتر جَراداً مُنْتَشِراً في العالمِ الإسلاميِّ ، وقد خَرَّبُوا المدنَ الإسلاميَّة الكُبرى ، وعواصمَ الشَّرق ، نَقَضُوا بناياتها ، وخَرَّبُوا مساجدها ، وأحرقوا دُورَها ، وذَبَحُوا أَهْلَهَا ، ومَزَّقُوا

دولة خوارزم شاه في خراسان ، وقضوا على الخلافةِ العباسيَّةِ في العراق ، واستشعرَ المسلمون الخوفَ والجُبْنَ حتى صاروا لا يُصَدِّقُون بهزيمةِ التَّتار ، واشتهر على ألسنتهم: إذا قيلَ لك: إن التَّتارَ انْهَزَمُوا فلا تُصَدِّقْ.

وخِفْتُ على الإسلام مَرَّةً ثانيةً ، وقلتُ: لعلَّ هذه آخر ساعةٍ من ساعاتهِ ، وإذا بي أَرى التَّتر يَدْخُلُونَ في الإسلامَ أَفْواجاً ، وإذا بفاتح المسلمين يعودُ مَفْتُوحاً للإسلام ، فعرفتُ أنَّ هذا الدِّينَ خالدٌ ، وأنه يَقْهَرُ كلَّ قاهِرٍ.

ولكنْ ضَعُفَ أمرُ المسلمين ، وسادَ الجمودُ والخمودُ في أنحاءِ العالم الإسلاميِّ ، ولم أَرَ شيئاً يقرُّ العينَ ، ويَشْرَحُ الصَّدْرَ ، ويبعثُ الأملَ في النفس ، إلا أنِّي رأيتُ في آسيا الصُّغرى جمرةً من حياة ، وآيةً من نشاطٍ ، فقد أسَّس الغازي عثمان خان دولةً مستقلَّةً ، وكانتْ لهذه الدولةِ الفتاةِ مستقبلٌ عظيمٌ ، وقد فَتَحَ شِبْلُهَا الغازي محمد الثاني القسطنطينية عاصمةَ العالم النَّصراني سنة (٨٥٨ هـ) اتَّخذها قاعدةَ مُلْكِه ، وخَلَفه ملوكٌ عِظامٌ تَوَغَّلُوا في أوربا ، وقَهَرُوا الأممَ النَّصرانيةَ.

هنالك التفتُّ إلى بلاد «الأندلس» مرَّةً ثانيةً ، فرأيتُ قرطبة وما جَاورَهَا من البلدان الإسلاميَّةِ قد خرجتْ من أيدي المسلمين، وإذا المساجدُ قد عادتْ كَنَائِسَ للنَّصارى ، يَرِنُّ فيها النَّاقوس ،

وإذا وجوهٌ عربيةٌ ، ودِيْن نصْرانيٌّ ، وحضارة شِبْه عربية ، وحيَاة جاهِليَّة ، فاسْتَرْجَعتُ ، وبكيتُ .

وسرَّحْتُ طرفي في جزيرة الأندلس ، فرأيتُ غرناطة العربيةَ الإسلاميةَ كأنَّها جزيرةُ الإسلام في بحر الكُفْر والظُّلماتِ ، وما لبثتْ أن غَمَرَها الماءُ أيضاً ، واستولى عليها الملكُ النَّصرانيُّ «فردنند» وملكتها إزابلا ، ورأيتُ أبا عبد الله آخرَ ملوكِ بني الأحمر يُسَلِّمُها مفاتيحَ مُلْكِه ويُلْقِي على غرناطة وقصر الحمراء نظرةَ الوداع ، ويبكي ، ويرحلُ إلى مراكش .

وما لبثتُ أنْ رأيتُ البلادَ الأندلسية الإسلاميةَ تُحَوَّلُ نصرانيةً ، والأمة العربية تُجْبَرُ على الارتدادِ ، رأيتُ مساجدَ تُهْدَم ، أو تُحَوَّل كنَائس ، ومدارس تُعَطَّل ، ومكاتب تُحْرَق ، وقبوراً تُنْسَف ، وأجساداً تُنْبَش ، وأحياء يُحْرَقُونَ ، ويُشْنَقُون ، وما لبثتِ البلادُ التي حَكَم فيها الإسلامُ ثمانيةَ قرونٍ أن أصبحتْ نَصْرانيةً ليس فيها أحدٌ يلفظ بكلمة الإسلام ، ويُؤْمِن بمحمد عليه السَّلام .

راعني هذا المنظرُ ، وفَزِعْتُ منه ، فإذا أنا على فراشي ، وقلتُ : لعلَّ اللهَ أرادَ بِي خيراً ، فقد أراني أطوارَ العالم الإسلامي ، وألوانَ المسلمين ، أراني عهدَ الخلافةِ الرَّاشدةِ ، ثم أرَاني انحطاطَ المسلمين ، وأرانِي كيف يُسْلِم الكافرُ ، ويَخْضَعُ

القاهِر ، وكيف يَـرْتَـدُّ المسلمُ ، وتتنصَّرُ البلادُ الإسلامية بغفلةِ المسلمين ، وسُوء سِيْرَتِهِم.

وقمتُ وقد آليتُ على نَفْسِي أن أكونَ جُنْدِيّاً للإسلامِ ، مُرابِطـاً على ثُـغُـورِه ، وألَّا تعـودَ حادثـةُ الأنـدلسِ في العـالمِ الإسلاميِّ.

* * *

(٧٨)

المنـــارة تتــحــدث

(١)

خرَجْتُ يَوماً من مدينةِ دهلي أُرَوِّحُ نَفْسي من صَخبِ الأسواقِ ، وعَنَاءِ الأشْغَالِ ، وذهبتُ إلى مَنَارةِ قُطْبِ الدِّينِ خارجَ دهلي.

ورأيتُ هذه المنارةَ الشَّامخةَ؛ فإذا هي آيةٌ في الهندسةِ والبِناءِ ، مَبْنِيَّةٌ مِنَ الحِجَارةِ الصُّلْبةِ الحَمْرَاءِ ، تنطقُ بِعَظَمَةِ القُدَماءِ.

وَبَيْنَما أنا أَدُورُ حولَ هذه المنارةِ بين قُبُورٍ وقُصُورٍ ، وأُفَكِّرُ في ضَعْفِ الإنسانِ وقُوَّةِ البُنْيانِ ، إذا صَوْتٌ يَرِنُّ في أُذُني ، ويقولُ: «أيُّها الرَّجُلُ! اسْمَعْ».

والْتَفتُّ فَلَمْ أَرَ أَحَداً ، وسرحتُ طَرْفي فإذا المكانُ هادِئٌ ،

ليسَ هنا داعٍ ولا مُجِيبٌ ، وليس هنا إلاَّ الحِجارةُ الصَّمَّاءُ البَكْمَاءُ.

وإذا صوتٌ يَتَرَدَّدُ: «أيُّهَا الرَّجُلُ! اسْمَعْ» فأصغيتُ إلى هَذَا الصَّوتِ ، وقد دَنوْتُ من المنارةِ ، فرأيتُ عَجَباً.

رأيتُ عَجَباً إذ سمعتُ المنارةَ تتكلَّمُ ، فقلتُ: لم أَرَ كاليومِ حِجَارةً تَـنْطِقُ ، ومنارةً تَتَحَدَّثُ!

وإذا صوتٌ أَجْهَرُ وَأَوْضَحُ من قَبْلُ: اسمع أيُّها الرَّجلُ ، ولا تَخَفْ ، فقد أَنْطَقَنِي اللهُ الذي أنطقَ كُلَّ شَيءٍ ، هنالكَ وقفتُ أستمعُ لهذا الصَّوتِ؛ فإذا المنارةُ تقولُ:

أَنا واقفةٌ هنا منذ أكثرَ من سبعةِ قُرونٍ ، لم أَبْرَحْ مكاني ساعةً ، ولم أغمضْ عَيْني طرفةً ، أشاهدُ تَقَلُّباتِ الزَّمانِ ، وَتَحوُّلَ الملكِ والسُّلْطانِ ، كأنِّي قُطْبٌ يدورُ حولي رَحَى الحوادثِ.

وقد رأيتُ في هذه المدَّة من العجائبِ ما أَضْحَكَنِي قليلاً ، ومِنَ المحزناتِ ما أبكاني طَويلاً ، ولولا أنَّ قلبي من حَجَرٍ لانْشَقَّ حُزْناً.

ولا أنكرُ أنِّي رأيتُ في هذه المدَّةِ ملوكاً عادلين ، ورجالاً من العُلَماءِ والصَّالحينَ ، قرَّتْ بِهِمْ عَيْني ، وزالتْ بهم أَحْزاني.

وها أنا ذَا أَقُصُّ عليكَ خَبَري ، وما جَرى في هذه البلادِ بين سَمْعي وبَصَري.

سمعتُ أنَّ السُّلطانَ محمود الغزنويّ هو الذي فَتَحَ هذه البلادَ للإِسلام ، ودَوَّخَها من الشَّمالِ إلى الجنوبِ ، وهَزَمَ الأحزابَ والجنودَ المجنَّدةَ لملوكِ الهندِ ، فكانَ بُرْهاناً على أنَّ الإِيمانَ يغلبُ العَدَدَ ، وذلك في فَجْرِ القرنِ الخامسِ الهجريِّ.

وبَعْدَ قَرْنٍ ونصفٍ غزا الهندَ السُّلطانُ شهابُ الدِّينِ الغوريُّ ، وهو الذي رَسَخَتْ به قَدَمُ المسلمينَ في هذِهِ البلادِ ، وقامتْ لهم دولةٌ مُسْتقلَّةٌ.

ولكنَّ الذي فَتَحَ هذه البلادَ في الحقيقةِ ، وأَخْضَعها للإِسلامِ هو الرَّجلُ الصَّالحُ الشيخُ معينُ الدِّين الجشتي؛ الذي اهتدى به إلى الإِسلامِ ألوفٌ من المشركينَ ، وكان دعاؤه سِلاحاً للغوريِّ وجُنَّةً.

أنا أقولُ: «سمعتُ» لأنِّي لم أكنْ في تلكَ الأَيَّامِ ، فأنا وليدةُ القرنِ السَّابعِ ، فقد بناني قطبُ الدِّين منارةً لجامعِ: «قُوَّة الإِسلام» ، وتَمَّ بِنائي على يدِ شمسِ الدِّيْنِ ، وبقيتُ فَريدةً منذُ وُلِدْتُ.

ومِنْ حَسَناتِ الإِسلامِ أنَّـهُ جَعَلَ العبيدَ سادةً ، والمماليكَ

مُلوكاً ، فقد خَلَفَ الغوريَّ مملوكهُ قطبُ الدِّين ، وخَلَفَه مملوكُه شمسُ الدِّيْن ، واسْتمرَّتْ دولةُ المماليكِ (٨٧) سنةً ، جاء في خلالها مُلُوكٌ يتجمَّلُ تاريخُكُم بهم؛ كالقائدِ قُطْب الدِّينِ أيبك ، والملكُ الصَّالحُ ناصر الدِّينِ محمود بن التمش ، والملكُ العادلُ غياثُ الدِّين بلبن.

وفي عَصْرِ السُّلطانِ شَمْسِ الدِّيْنِ كان في دهلي الشيخُ الكبيرُ قطبُ الدِّيْنِ بختيار الكعكي ، وطالما رأيتُ السُّلطانَ شمسَ الدِّينِ يدخلُ عليه في الليل ، ويخدُمه ، ويغمزُ رِجْلَيْهِ ، ويبكي.

وانقرضتْ دولةُ سادتي المماليك ، والأرضُ للهِ يُورِثُها مَنْ يَشَاءُ ، وجاء الخلج ، ورأيتُ من غرائبِ الإنسانِ عمّاً كريماً يقتلُهُ ابنُ أخيه ، وخَتَنُه.

ولكنَّ علاءَ الدِّين بعد ما قَتَل عَمَّه جلالَ الدِّينِ ضَبَطَ البلادِ ، وسَنَّ القوانينَ ، وعَيَّن الأسعارَ ، وبَسَط الأَمنَ ، وأوغلَ في «الهند».

وقُضِي على الخلجيين بالزَّوال بعد (٣١) سَنَةً ، سُنَّة الله في الأرضِ ، وَوَرِثَهم آلُ تغلق ، وكان منهم ملكٌ غريبُ الأخلاقِ ، أعني مُحَمَّد تغلق ، الملكَ العاقلَ المجنونَ؛ الذي أرادَ أن

يُحَوِّلَ العاصمةَ إلى دولت آباد ، ولكنَّ اللهَ رَحِم وَحْشَتي ، ولم يفلحِ الملكُ.

وخَلَفه شابٌّ صالحٌ من بيته اسمه فيروز؛ الذي بَنَى المساجدَ والمدارسَ؛ وأنشأ الشوارعَ والرِّباطات ، وردَّ المظالم.

وفي هذا العَهْدِ كان العبدُ الصَّالحُ الشيخُ نظامُ الدِّيْنِ البدايوني ، وكانت له زاويةٌ عامرةٌ يَؤُمُّها مئاتٌ من الطَّالبين ، فكانت إمارةً رُوحيَّةً في جَنْبِ إمارةٍ ماديَّةٍ ، تفوقُها في السُّلْطانِ على القُلُوبِ.

حَكَم آلُ تغلق (١٣٥) سنَةً ، مُدَّةً طويلةً؛ ثم طُوِي بِساطُهم ـ والحكمُ للهِ ـ وآلَ الأمرُ إلى اللُّودهيين ، وكان أوسطَهم سكندرُ اللودهي ، وكان عادِلاً فاضِلاً ، يحبُّ العِلْمِ والعُلَماءَ.

وفي هذا العهدِ ازدهرتْ مدينةُ جون بور ، وبلغتْ أَوْجَها في عَهْدِ إبراهيم شاه الشرقي (٨٠٤ ـ ٨٤٤) ، وكنتُ أسمعُ أحاديثَ مَلِكِها ، وأخبارَ عُلَمائها كملكِ العلماء القاضي شِهاب الدِّينِ الدولت آبادي ، والشيخِ أبي الفتحِ بنِ عبدِ المقتدر الدَّهلوي ، وقَصَص جَوَامِعها ومَدَارِسها.

وازدهرتْ كذلك مدينةُ «أحمد آباد» وفاقتِ الهندَ بملوكها الرَّاشدينَ ، وعُلَمائها المحدِّثين ، وبِصَنَائِعها ، وكَثْرةِ جِنَانِها ،

وحَدَائقها ، وحُسْنِ نظامها ، وكنتُ أسمعُ أخبارَ محمود شاه وابنه مظفَّر شاه الحليم (٨٦٢ ـ ٩٣٢) فكأنِّي أسمعُ أخبارَ رِجالِ خَيْرِ القُرُوْنِ.

* * *

(٧٩)

المنـــارة تتـحـدث

(٢)

وفي عَهْدِ إبراهيم اللَّودهي سنة (٩٣٣) جاء بابر ، وهو مِنْ آلِ تيمورٍ من كابل ، وكَسَرَ جُنُودَ اللودهي ، وهي مئةُ ألفِ مقاتلٍ في ساحةِ باني بت باثني عشر ألفِ مقاتلٍ ، فكان بُرْهاناً على أنَّ العزيمة تغلبُ الكثرةَ ، وأسَّس دولةَ المغولِ ، التي لها دَوِيٌّ في العالمِ ، وآثارٌ خالدةٌ في «الهندِ» .

وفي عَهْدِ ابنه همايون نهضَ شير شاه السُّوريُّ ، فطردَ همايون إلى «إيران» وأسَّسَ دولةً مُنَظَّمةً لم تُسْبَقْ ، وعَمِلَ أعمالاً جَلِيلةً ، لو وُزِّعَتْ على عِدَّةِ ملوكٍ لَوَسِعَتْهُم ، فأنشأَ شارعاً مسيرتُه أربعةُ أشهرٍ ، وغَرَسَ عليه الأشجارَ ، وبنى عليه المنازلَ والمساجدَ ، وذلك كلُّه في خَمْسِ سَنَواتٍ؛ ولا أزالُ

أغبطُ «سهسرام» إذ كانتْ عاصِمَتَهُ ومَدْفَنَهُ، وهنا تخلَّفتْ دهلي، وسبقتها مدينةٌ صَغِيرةٌ.

وخَلَف همايون الذي اسْتَرَدَّ مُلْكه بمساعدةِ شاه إيران ابنه الأمي أكبر.

وهو الذي مَرَقَ مِنَ الإسلامِ، واخترعَ دِيناً جَدِيداً وعانَدَ المسلمينَ، وقد أَنْجاني اللهُ من مُصَاحبَتِهِ؛ إذِ اتَّخذَ «آكرة» عاصِمَتَهُ.

وخَلَفه ابنه جهانكير، وكان أَفْضَلَ من أبيه، ودُونَ ابنه وحَفِيده، واضْمَحَلَّتْ آثارُ أكبر في عَهْدِهِ.

وفي هذا العصرِ نَهَضَ المُصْلِحُ الكبيرُ الشيخُ أحمد السَّرْهندي المجدِّد (م ١٠٣٤ هـ) فَقَلَبَ التَّيارَ، وغيَّرَ اللهُ به الليلَ والنَّهارَ، وانْتَصَرَ به الدِّينُ، وزالتْ به دَوْلَةُ المبتدعِينَ.

وفي هذا العَصْرِ سُعِدَتِ الهندُ أيضاً بوجودِ عالمٍ كَبيرٍ، خَدَمَ عِلْمَ الحديثِ، وصَنَّفَ، ودَرَّسَ طويلاً، وهو العلاَّمةُ عبدُ الحقِّ البخاري (م ١٠٥٢ هـ)، وأنا سعيدٌ بأنَّه لا يزالُ في جِواري.

وَخَلَف جهانكير ابنه شاه جهان، وهو صاحبُ الآثارِ الجَمِيلةِ في الهندِ، بَنَى جامِعاً في دهلي مِنْ أَجْملِ مسَاجِدِ المسلمينَ في العالمِ، وبنَى القلعةَ الحَمْراءَ، وبَنَى على قَبْرِ

زَوْجِهِ التاجَ محل ، وهي الدُّرَّةُ اليتيمةُ في البِناءِ ، وما وَدِدتُ أن أبرحَ مِنْ مكاني إلاَّ لأراهُ.

وخلَفَ شاه جهان ابنه السلطان أورنك زيب عالمكير ، وهُوَ رجلُ هذا البيتِ الرَّشيدُ ، فأَمر بتدوينِ الفِقْهِ ، وأبطلَ المُكُوسَ والمظالمَ عن المسلمين ، وضَرَب الجِزْيةَ على المشركين ، ونَصَبَ المحتسبينَ ، وأقام دولةَ العُلومِ والدِّينِ.

ومِنْ سُوءِ حَظِّ المسلمين في هَذه البلادِ أنَّ خُلَفاءَ أورنك زيب لم يكونُوا رجالاً أكفاءً في الدِّين والسِّياسةِ ، فأصبحتِ السِّياسةُ هزلاً ، والدَّولةُ أُلْعُوبةً ، ملوكٌ يَحْكُمونَ صباحاً ويُقتلون مساءً ، ويُسْتَبْدَلُون كالخُلْقانِ من الثِّيابِ.

ولا أضيعُ وَقْتَكَ الثَّمينَ في سَرْدِ أسمائِهم الفارِغةِ.

وهُنا رأيتُ ما أَبْكاني ، فقد فَسَدتْ أخلاقُ المسلمينَ في هَذَا العَصْرِ ، فَشَا فيهم الفُجُور ، وَعَمَّتِ الخُمُورُ ، وكَثُرتِ الملاهي ، وأقبلَ النَّاسُ على اللَّهْوِ ، واللَّعِبِ ، والرَّقْصِ ، والغِناءِ ، فكأنْ لم يُبْعَثْ نبيٌّ ، ولم ينزلْ كتابٌ ، والنَّاسُ في جاهِليَّةٍ.

وكنتُ أذكرُ قولَ الله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ ، وأخافُ بَطْشَهُ.

وفي عَهْدِ محمد شاه (م ١١٦١ هـ) بلغَ السَّيْلُ الزُّبَى ، وطمَّ الوادي على القُرى ، فبعثَ اللهُ على أَهْلِ دهلي عِباداً ﴿أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ .

جاءَ نادر شاه سنة (١١٥١ هـ) من إيران ، فَوَضَع فيهمُ السَّيفَ ، وبَلَغ القتلى من الهنديِّين في دهلي مئةَ ألف ونَيِّفاً ، وسالتْ بدمائِهم الشَّوارع ، ولم يُغْمَدِ السَّيْفُ إلَّا بعد ثلاثةِ أيَّامٍ .

ولم يفقْ أهلُ دهلي والمسلمونَ من سَكْرَتِهم ، فاجتمعَ عليهمُ المرهتةُ والسَّكةُ اجتماعَ الأَكَلةِ على القَصْعَةِ ، وفي كلِّ يومٍ غَارةٌ ، ونَهْبٌ ، وَسَلْب ، وإهانةٌ ، وجَلاَءٌ ، فخربتْ قُرى كثيرةٌ ، وهُدِّمتْ مساجدُ ذُكِر فيها اسمُ الله كثيراً ، وعَجزَ المسلمونَ عن مُقاومتهم ، ودَخَلَ في قُلُوبِهِمُ الجُبْنُ ، والخَوْفُ .

هنالك رَحِمَ اللهُ هذه الأمةَ الهنديةَ ، فبعثَ لها أحمد شاه الأبدالي من أفغانستان سنة (١١٧٤ هـ) فنازلَ المرهتة في ساحةِ باني بت ، وقتَل منهم نحو مئتي ألف ، وهَزَمهم هزيمةً لم تَقُمْ لهم بعدها قائِمةٌ .

وفي هذه الأيَّامِ العقيمةِ أنجبتْ دهلي رَجُلاً عَظيماً ، وهو الشَّيخُ وليُّ اللهِ بنُ عبد الرحيم ، فنادى بالمسلمين إلى الدِّين ،

وانتقدَ الأمراءَ الجَائِرينَ ، والشُّيوخَ المبتدِعينَ ، وخرَّجَ العُلَماءَ الرَّاسِخينَ ، والدُّعاةَ المُخْلِصينَ ، وصنَّفَ الكُتُبَ البدِيعةَ في عُلومِ الدِّينِ .

وشَمَّرَ هُو وأبناؤه النُّجباءُ الشَّيخُ عبد العزيز ، والشَّيخُ رفيعُ الدِّين ، والشَّيخُ عبدُ القادرِ ، وابنُ ابنه الشيخُ إسماعيل ـ دفين بالاكوت ـ عن ساقِ الجِدِّ في خِدْمةِ الدِّينِ ، فَمِنْ مُتَرْجِمٍ للقرآنِ ، ومن شارِحٍ للحديثِ ، ومن فَقيهٍ يُضْرَبُ إليه أكبادُ الإبلِ ، ومِنْ مُزَكٍّ للنُّفوسِ ، ومن مُدَرِّسٍ للحديثِ الشَّريفِ ، ومِنْ مُجاهدٍ بالسَّيفِ وشَهيدٍ في سَبيلِ اللهِ ، ومِنْ مُهاجرٍ إلى بيتِ الله ، والهندُ تُباهي بهذا البيتِ الشَّريفِ الأقطارَ الأخْرى ، وتُنْشِدُ :

أولئكَ أَبْنائي فَجِئْنِي بمثلِهِمْ إذا جَمَعَتْنا يا جَرِيرُ المجامَعُ

* * *

(٨٠)

المنـــارة تتــحــدث

(٣)

أراكَ يا سَيِّدي قد سئمتَ حَدِيثي وطولَ القِيامِ هُنا ، فاصْبِر قليلاً لعلِّي أُخفِّفْ عن نَفْسِي بعضَ ما أَجِدُه من الحزنِ.

نسيتُ أن أَذْكُرَ لكَ أنَّ الإنكليزَ قد دَخَلُوا الهندَ في القَرْنِ السَّادسَ عَشَرَ المسيحيِّ تُجَّاراً ، وأَسَّسُوا شركةً تجاريَّةً سَمّوها : الشَّركة الهنديَّة الشَّرقية ، وكانتْ بذرةَ فَسَادٍ أَغْفَلَهَا الملوكُ المسلمونَ في بَسَاطَتِهم وحُسْنِ ظَنِّهِم ، وبَقِيتْ هذه الشركةُ تشتغلُ بالتِّجارةِ حتى اضطربَ حَبْلُ الدَّولةِ المغوليَّةِ فطمحَ رجالُها إلى الملكِ والسِّياسةِ ، وصَارُوا يَتَدَخَّلُون في الأُمورِ ، ويُحَرِّشُونَ بين الأُمراءِ ، ويَضْرِبُونَ بعضَهم ببعضٍ ، وينتهزونَ فرصةً بعدَ فرصةٍ ، حتى أصْبَحُوا قوةً في الهندِ.

ولم يزلْ أَمْرُ الإنكليزِ يقوى ، وأمرُ الهنديِّينَ يَضْعُفُ حتى

أَخَذُوا في الجنوبِ «كرنانك» وفي الشَّرقِ «كلكتة» وذلك كلُّه بمالِ الهندِ ورِجالها ، لم يَبْذُلُوا في سَبِيلِ ذلك دِرْهماً ، ولا دَماً من قِبَلِ أَنْفُسِهِمْ.

وقد عني بأمرِ الإنكليز فتى شَهْمٌ ، وهو النَّوابُ سراجُ الدَّولةِ أميرُ «مرشد آباد» ، وكانت بينه وبين الإنكليز وقعةٌ في بلاسي سنة (١١٧١ هـ ـ ١٧٥٧ م) غَدَرَ فيها الوزير مير جعفر ، وانسلَّ إلى الإنكليز فانهزَم سِراجُ الدَّولة ، وانتقلتْ مقاطعةُ «بنكال» إلى الإنكليز.

واجتهد الأمراءُ مرَّةً ثانيةً، واجتمع مير قاسم خَتَنُ مير جعفر ، أمير «مرشد آباد»، وشاه عالم ، ملك «دهلي» ، والنواب شُجاع الدَّولة ، أمير «أوده» بجنودهم الكثيفة ، وقاتَلُوا الإنكليز ، وهُم أقلُّ منهم عَدَداً ، ولكنْ أحسنُ منهم نِظاماً ، فانهزم الهنديُّون ، وانْكَسرُوا في ساحةِ بكسر سنة (١١٧٨ هـ ـ ١٧٦٤ م) فكان بُرْهاناً على أنَّ النِّظامَ يغلبُ الزِّحام ، وكانتْ للإنكليز اليدُ العليا ، والكلمةُ النَّافذةُ ما بين «كلكتة» و«دهلي».

ثُمَّ قام الفتى الأَبيُّ الغَيُورُ السُّلْطَانُ تيبو أمير ميسور ، وقاتل الإنكليز قِتالاً شَدِيداً ، وهَزَمَـهُ الإنكليز بقوَّةِ المسلمين والمرهتة سنة (١٢١٤ هـ ـ ١٧٩٩ م) وغـدر الوزيرُ مير صادق ، وانْسَلَّ

إلى الإنكليز ، ومات السُّلطانُ الشَّهيدُ في ساحة القتال موتَ الأبطالِ مُدافِعاً عن دِيْنِهِ وَوَطَنِهِ.

وأراد اللهُ أن يبتليَ أهلَ الهندِ ، فَمَنَحَهُم فرصةً أُخْرى ، فنهضتْ عِصابةٌ من الشُّبَّانِ المخلصِينَ ، يَقُودُها فتى مِنْ أَهْلِ بيتِ الرَّسُولِ ﷺ قد جاء من الشَّرق ، كنتُ أراه كثيراً في مدرسة الشيخ عبد العزيز ـ رحمةُ الله عليه ـ ومسجد الشَّيخ عبد القادر ، واشتهر سَريعاً باسم السَّيِّد أحمد ، وتهافَتَ عليه الناسُ من كلِّ جانبٍ ، وبايعه محمدُ إسماعيل ابن أخي الشيخ عبد العزيز ـ رحمة الله عليه ـ وعبد الحيِّ ختن الشيخ ، وعالم «دهلي» الكبير ، والعُلماء والصُّلحاء ، وطافَ هؤلاء في البُلْدانِ والقُرى ، وبَثُّوا دَعْوَةَ الرُّجوع إلى الدِّين والتَّمسُّكِ بالكِتاب والسُّنَّةِ ، وأَشْعَلُوا في الصُّدور شُعْلَةَ الجهادِ ، واجتمعَ حَوْلَهم أناسٌ هم خَيْرُ مَنْ وَقَعَتْ عليهم عَيْني ، دِيناً وعِبادةً ، وخُلُقاً ومُعاشرةً ، وغَيْرةً وحَماسةً ، فكانُوا باللَّيلِ رُهْباناً وبالنَّهارِ فرساناً ، وفي الدِّين أَبْدالاً ، وفي القُوَّة أَبْطالاً .

وهَاجَرَ هؤلاء سنة (١٢٤١ هـ) إلى ثُغُور الهندِ ، ورَفَعُوا رايةَ الجِهادِ ضدَّ السِّكة ، وبايعَ الناسُ إمامَه السَّيِّدَ أحمد ، وكانتِ الحربُ بينهم وبين السِّكَة سِجالاً ، وسمعتُ بعد قليلٍ أنَّهم فَتَحُوا أرضاً واسعةً ، وأسَّسُوا إمارةً على مِنْهَاجِ الخِلافةِ

الرَّاشدةِ ، ونَفَّذُوا فيها أحْكامَ الشَّرْعِ ، وأقامُوا الصَّلاة ، وآتوا الزَّكاةَ ، وأَمَرُوا بالمعروفِ ، ونَهَوْا عَن المُنْكَر ، وفَتَحُوا بشاور عاصمةَ الثُّغورِ ، فَعَظُم شَأْنُهُمْ ، وكاتبوا أميرَ بخارى ، وجِترال ، وأمراء أفغانستان ، وكانوا يُرِيدُون أن يُقيمُوا دولةً شرعيةً مُستقلَّةً في الهند .

كنتُ أسمعُ ذلك كلَّه ، والنَّاسُ يَفْرَحُونَ ، وأنا أخافُ لأنِّي لم أكنْ آمنُ عليهم من المسلمين الغَدْرَ والخِيانةَ ، وهُمَا من أَمْراضِ المسلمين ، ولم تذهبْ دَوْلَتُهم إلا بغدرِ المسلمين وخِيانتهم ، ونِفاقهم ـ وسامحني يا سيِّدي في هذا العتابِ المرِّ فلي العُذْرُ ـ وكنتُ أخافُ ذلك خاصَّةً في تِلْكَ البلادِ ، ولم تَمْضِ يا سيِّدي أيامٌ قليلةٌ حتى وَقَعَ ما كنتُ أَحْذَرُه ، فقد سمعتُ أنَّه غَدَرَ بهمُ الأمراءُ الأفغانُ ، وقَتَلُوا نُوَّابَهُمْ وعُمَّالهم سُجَّداً وقِياماً ، وسمعتُ أنَّهم الآنَ في طَرِيقِهم إلى كشمير .

ثم سَمِعتُ بعد أيَّامٍ أنَّهم دَهَمَهُمُ العدوُّ في وادي بالاكوت في جبال هزارا ، وذلك بدسيسةِ بعضِ المسلمينَ أيضاً ـ وقُتِلَ أَكْثَرُهُمْ، ولم يَنْجُ منهم إلاَّ القليلُ ، وكانتْ هذه الحادثةُ الأليمةُ سنة (١٢٤٦هـ) .

وهكذا ضاعتْ هذه الفُرصةُ الثَّمينةُ ، ولله الأمرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ .

وأعودُ إلى حديثِ الإنكليز وأقولُ: إنَّهُمُ اخْتَلَقُوا ذُنُوباً على الأمراء، كما سمعتَ في قصة الذِّئب والنَّعْجَة، وانتزعوا «بنجاب» و«السند»، و«بورما»، و«أوده» وامْتَلَكُوها.

وانتبه الهنديُّون من سُباتهم، واجتهدوا أن يَتَخَلَّصُوا من الإنكليز سنة (١٨٥٧ م).

فكانتْ ثَوْرةٌ كَبِيرة، ولكن فَشلَتْ أيضاً بسُوء نظام الهنديِّين، ورسختْ قَدَمُ الإنكليز، وعاقَبُوا الهنديِّين عِقاباً شَدِيداً، وعَذاباً أَلِيماً، وفَتَكُوا بالبيتِ الملكيِّ فَتْكاً شَدِيداً، وَأَسَرُوا بهادر شاه، ونَفَوْه إلى «رنكون».

ومن ذلك اليومِ أَفَلَ نَجْمُ المسلمين في هَذِهِ الدِّيارِ، وانْحَطُّوا في الدُّنيا والدِّين، ورَضُوا بالذُّلِّ والعُبوديَّة، وفَسَدَتِ الأخلاقُ، وسَقَطَتِ الهِمَمُ، وضاقَتِ الأرزاقُ، وغَلَتِ الأسعارُ، وعَمَّتِ المجاعاتُ، وعُطِّلَتِ المدارسُ، وأَقْفَرَتِ الزَّوايا، وأَوْحَشَتِ المساجدُ.

وفي سنة (١٩٤٧ م) تحرَّرتِ البلادُ من الإنكليز، ووقعتْ اضطراباتٌ هائِلةٌ، وهاجَرَ كثيرٌ من المسلمين مِنْ بلادِهم، وقامَتْ لهم دولةٌ في شمالي الهند الغربيِّ، وبقي سائِرُهُمْ في الحكومة الهندية، وقد فَقَدُوا نشاطَهم، واستولى عليهم اليأسُ.

ولستُ قانِطاً يا سيِّدي من رحمةِ الله : وهل ﴿يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ .

ولم أيأسْ من نَهْضَةِ المسلمين ، فإنِّي رأيتُهم طولَ هذه المدَّةِ كالشَّمْسِ إذا غربتْ في جِهَةٍ طَلَعَتْ في جهةٍ أُخرى ، وأنَّهم لم يَغِبْ لهم نَجْمٌ إلاَّ وطَلَعَ لهم نَجْمٌ آخرُ ، فإنَّ مُستقبلَ العالم معقودٌ بناصيتهم ، وإنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الفسادَ في الأرض ، ولا يَرْضَى لعبادِهِ الكُفْرَ .

اقرأْ إلى أُمَّتِكَ منِّي السَّلام ، وقُلْ لها : إنِّي أُشْهِدُ اللهَ أنَّ هذه الأمَّةَ ما أفلحتْ إلا بالتَّمسُّكِ بالدِّين ، وما خَسِرَتْ إلا بالغَفْلةِ عن الدِّين ، ولن يُصْلِحَ آخرَ هذه الأمةِ إلاَّ ما أَصْلَحَ أَوَّلَهَا ؛ هذا الذي شَهِدْتُه واخْتَبَرْتُهُ في هذه القُرونِ المتطاولة : ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾ .

ولما انتهتِ المنارةُ من كَلامِها ، انْصَرَفتُ عنها ، ورَجَعْتُ إلى مكاني ، وبِتُّ ليلتي أُفَكِّرُ فيما سمعتُ ، وبادرتُ في الصَّباحِ فقَيَّدْتُ حديثَ المساء .

* * *

(٨١)

عمر بن الخطاب وأمُّ البنين

لـدى عُمَـرَ أميـرِ المُـؤْمِنينـا ... قفُـوا بـي وِقفـةَ المتهيِّبينـا
مَلِيـكٌ ذو مـآثـرَ بـاسِقـاتٍ ... يقصرُ عَنْ مَدَاها السَّابِقُونا
خَوالِدُ ما عفتْ قَدَماً ولكن ... يعَطِّـرُ نَشْـرَ ذِكْـراهـا القُـرونـا
فمـنْ يمـدحْ لمكـرمـةٍ فـإنِّـي ... نظمـتُ بمـدحِـه عِقْـداً ثمينـا
وهاكُمْ ما روى العَبَّاسُ عنه ... أراهُ بـانتبـاهِكُـم قَمِينـا
يمثـلُ صـورةً لِلْبُـؤْسِ فينـا ... ويملـي عبـرةً لِلْحَـاكِمينـا
يقولُ: لقد دَعَاني الملكُ وهناً ... فكنـتُ لـه بِجَـوْلَتِـهِ خَـدِينـا
أفـرتـه مَحَبَّتُـه لِشَعْـبٍ ... يعـزُّ عليـه يـومـاً أنْ يَهُـونـا
سَـرَى مُتَنَكِّـراً والليـلُ قـرٌّ ... إلى الأَثَلاثِ يفتقدُ الشُّؤونا
يطوفُ في الخيامِ عَسَاهُ يَلْقَى ... بمنـزويـاتهـا رَهْطـاً حَـزِينـا
فَمَـرَّ هُنـاكَ بـامـرأةٍ عَجُـوزٍ ... حـوَاليهـا صِغَـارٌ يُعْـوِلُـونـا
وقِـدْرٍ أَرْكَـزَتْـهُ علـى أثـافٍ ... غلَـى عَبَثـاً لِتَعْلِيـلِ البَنِيْنَـا

تقولُ: ـ ودَأبهُا التَّنفيخُ ـ صَبْراً ... بنِـيَّ ، سَتَـأْكُلُـونَ وتَشْبَعُـونـا
فظلَّ الملكُ يمعنُ ناظِرَيْه ... بهـا حِيْنـاً وبـالأولادِ حِيْنـا
وطالَ وُقُوفُه في الحيِّ حتَّى ... توَجَّسَ أنْ يريبَ به الظُّنونا
يميناً ليس يبغي البينَ حتَّى ... يرَىٰ الأولادَ قد ملؤوا البُطُونا
وما زالُوا كذلكَ بِضْعَ ساع ... تنفخُ في الوُقُودِ ويَصْرَخُونا
فَعِيـلَ تَصَبُّـراً ، ودَنَـا إليهـاً ... وحَيَّـا قـائـلاً: مـا تَصْنَعِينـا؟
وما لِبَنِيكِ يَنْتَحِبُونَ؟ قالتْ: ... جياعٌ! قالَ: لِمَ لَمْ يَأْكُلُونا؟
أجابتْ ـ والمحاجرُ دامعاتٌ ـ ... أأُطْعِمُ صِبْيَتي الماءَ السَّخينا؟!
فما في القِدْرِ غيرُ حَصى وماءٍ ... أحـــاولُ أنَّهـــم يَتَعَلَّلُـــونــا
لَعَلَّهـم متـى مَلُّـوا انْتِظـاري ... وسَاوَرَهُمْ نُعاسٌ يَهْجَعُونا!!
فقالَ لها: لقد أخطأتِ رأياً ... وأورثتِ الصِّغارَ ضَنىً وهونا
فَلِمَ لَمْ تَعْرِضي شَكْواكِ يوماً ... علـى عُمَـرَ أميـرِ المـؤمنينـا؟
إذاً لَكَفـاكِ مُـرَّ العيـشِ ممـا ... يجودُ ولم يكنْ عُمَرُ ضَنِينا
فقالتْ: لا سَقَتْ عُمَرَ الغوادي ... ونُكِّـس بَنْـدُه فـي العـالمينـا
لقد سمحتْ بِظُلْمِي مُقْلَتاهُ ... وتحميلي الخَصَاصةَ والأَنِينا!
فـــراعَ فُـــؤادَه مـــا تـــدَّعِيـــه ... وقـال لهـا: بِـرَبِّـكِ أَخْبِـرينـا
فقالتْ: قد أمالَ الطَّرْفَ عَنَّا ... ولـم يَعْبَـأْ بمـا قَـدْ حـلَّ فينـا
أيغفـلُ عـن سَـوائِمـه مليـكٌ ... يسَمِّي نَفْسَه الرَّاعيَ الأمينا؟
عَلَيْهِ أن يُفَتِّشَ في الرَّعايا ... ويَـرْتـادَ المـزارعَ والحُـزُونـا!

عَسَاهُ أن يرى مِثْلي عَجُوزاً ... تبيتُ الليلَ تنتظرُ المنونا
فَيُنْعِمُ من خَزِيْنَتِه بشيءٍ ... تعيلُ به بَنِيها المُدْنَفِينا
فكم عافٍ يمنعُه حياءٌ! ... فلا يجري مع المتسوِّلينا
يكادُ يموتُ من ظمأ وجُوعٍ ... ولا يبغي أكفَّ المحسنينا
إذا مَلِكٌ تَغَاضى عن ذَوِيه ... فيحسبُ في عدادِ الظَّالمينا
فقال لها: صدقتِ، فَعَنْ قليلٍ ... نعودُ بما تيسَّر، فأنْظِرِينا
وسار وسرتُ مُحْتَذِياً خُطاه ... كأنَّ بنا إلى وطنٍ حَنِينا!
أكرُّ وراءه تحتَ الدَّياجي ... وتَنْبَحُنا الكلابُ وتَقْتَفِينا
إلى بيتِ المؤنةِ حيثُ أمسى ... هنالك ينبشُ الذُّخْرَ الدَّفِينا
وما هو غيرُ لَمْحِ الطَّرْفِ حتَّى ... حملتُ السَّمْنَ واحْتَمَلَ الطَّحينا
وعُدْنا والدَّقيقُ عليه يذري ... فعَفَّر عارِضَيْه والجبينا
يكادُ ينوءُ تحتَ الحِمْلِ لكنْ ... مشى طولَ المسافةِ مُسْتكِينا
كأنِّي إذ عرضتُ يدي عليه ... ضربتُ على صفاةٍ لن تَلِينا
فقال: اصْمُتْ فما حملتَ عنِّي ... ذنوبي يومَ يُجْزَى المذنِبُونا
إلى الأولادِ يا عباسُ سِرْ بي ... أمدُّ لكشفِ كُرْبَتِهم يمينا
أنأكلُ كلَّ يوم كلَّ لَوْنٍ ... وهُمْ من جُوعهم يَتَضَوَّرُونا
ونسرحُ في رُبُوعِ الأنسِ دوماً ... وهُم في كُوخهم يَتَمَلْمَلُونا
ونرقدُ لا نبالي بالبلايا ... وهُم لنبالها مُسْتَهْدَفُونا
جَفَاني عند رُؤيتهم رُقادي ... وواصَلَني صُداعٌ لن يَبِينا

وكدتُ أحسُّ أن الأرضَ مادتْ وجوفُ الغمرِ أوشكَ يحتوينا
إلى الأولادِ يا عَبَّاسُ أمحو خطاي وأغسلُ العارَ المبينا
فَايمُ اللهِ ما القُلَلُ الرَّواسي كحَمْلِ ظلامةِ المستضعفينا
فَأَزْجَيْنا الخُطَى في المهلِ حتَّى طَوَيْنا منه قاحلةً شطُونا
فَأَدْرَكْنا العَجُوزَ على قتادٍ وقد أَغَضَّتْ من التعبِ الجفُونا
وجفتْ قدرَها فوق الأثافي فكان ثمالها كَدَراً وطِيْنا
فَأَفْرَغَها ، وأَفْعَمَها دَقِيقاً بيمناه ، ودسَّ به السُّمونا
وكادَ الوقدُ تحت القِدْرِ يَخْبُو فأولجَ في بقاياه غُصُونا
مُكِبّاً لا يثبطُه دُخَانٌ تناولَ مِنْخَرَيْه والعُيونا
يجيدُ الطَّبْخَ تحريكاً وغَلْياً كأنَّكَ تشهدُ الطَّاهيَ الفَطِينا
فَأَنْضَجَهُ ونحن بجانبيه أبى إصْرَارُه أنْ يَسْتَعِينا
وأسرعَ ـ والبشاشةُ ملءُ فيه ـ بتلقيمِ الصِّغارِ الجائِعينا
يتامى ما حَنَا أحدٌ عليهم ولا عَرَفُوا سِواهُ أباً حَنُونا
ومالَ إلى العَجُوزِ فقال: مَهْلاً أَقِلِّي اللومَ والْتَزِمي السُّكُونا
سَنَذْكُرُ للأميرِ بلاكِ إنَّا إلى عرشِ الإمارةِ مُنْتَمُونا
كفاكِ كآبةً وطوىً وسهداً فنامي مِلْءَ جَفْنِكِ واصْبحِينا
وكان غدٌ لدى عُمَرَ رهيباً عليها حيثُ أدركتِ اليقينا
لدى عمر ، وقد رشقتْ سِهاماً من التَّنديدِ باتْ بها طَعِينا
فيالك موقفاً حَرِجاً تمنَّتْ لشدَّةِ رَوْعِها ألاَّ تكُونا

ولكـنْ نـالهـا منـه التفـاتٌ نَفَى عنها التَّأثرَ والشُّجُونا

فأجزلَ رِفْدَها بعد اعتذارٍ وبـدَّلَ شِـدَّةَ الأيـامِ لِينـا

فراحتْ وهي تَرْوِي عنه عدلاً وإحسـانـاً وفَـرْطَ تُقـى ودِينـا

كذا كان الخليفةُ من قديمٍ مثـالاً للملـوكِ الصَّـالحينـا

[الأستاذ جرجي نخلة سعد]

* * *

(٨٢)

الإمـام أبـو حـامـد الغزالـي

ولدِ أبو حامدٍ محمد الغَزَالي بطوس سنة (٤٥٠ هـ) وكان والِدُه يغزلُ الصُّوفَ ، ويبيعهُ في دُكَّانِه بطوس ، وكان فَقِيراً صالحاً ، لا يأكلُ إلاَّ مِنْ كَسْبِ يَدِه ، ويطوفُ على المتفقِّهةِ ، ويُجالِسُهُم ، ويُنْفِقُ عليهم بما يُمْكِنُهُ ، وكان إذا سمعَ كَلامَهُمْ بكـى ، وتَضَـرَّع ، وسـأل اللهَ أن يـرزقَـهُ ابنـاً فقيهـاً واعِظـاً ، فاستجابَ اللهُ دَعْوَتَهُ ، ولما حَضَرَتْهُ الوفاةُ وصَّى به ، وبأخيه أحمد إلى صَدِيقٍ له من أهلِ الخيرِ ، فلمَّا ماتَ أقبلَ الرجلُ على تَعْلِيْمِهما إلى أن فَنِي ذلك الذي كان خَلَّفَهُ لهما أبوهما ، فقال لهما: اعْلَمَا أنِّي قد أنفقتُ عليكما ما كان لكما ، وأنا رجلٌ فقيرٌ لا مالَ لي ، فأرى أن تلجأا إلى مدرسـةٍ ، فإنَّـكُما من طَلَبـةِ العلم ، فيحصلُ لكما قوتٌ يُعِيْنُـكُما على وَقْتِـكُما ، فَفَـعَلا ذلك ، وكان هو السَّببَ في سَعادَتِهما ، وعُلُوِّ دَرَجَتِهما.

قَرَأَ الغَزاليُّ في صِباه طَرَفاً مِنَ الفِقْهِ ببلده على أحمد بن محمد الرَّاذكاني ، ثم سافر إلى جُرْجَان إلى الإمام أبي نصر الإسماعيلي ، وعلَّقَ عنه التَّعليقة ، ثم رَجَعَ إلى طوس ، قال الغزاليُّ: قُطِعَتْ علينا الطَّريقُ ، وأخذ العَيَّارُونَ جميعَ ما معي ، ومَضَوْا ، فَتَبِعْتُهُم فالتفتَ إليَّ مُقَدَّمُهُم ، وقال: ارجعْ ويحكَ ، وإلَّا هَلَكْتَ ، فقلتُ له: أَسأَلُكَ بالذي تَرْجُو السَّلامةَ منه أن تردَّ علي تعليقتي فقط ، فما هي بشيءٍ تنتفعُون به ، فقال لي: وما هي تعليقتُكَ؟ فقلتُ: كُتُبٌ في تلك المِخْلاةِ ، هاجرتُ لسماعها ، وكتابتها ، ومعرفةِ عِلْمِها ، فضحك وقال: كيف تَدَّعِي أنَّكَ عرفتَ عِلْمَها وقد أخذناها منك ، فتجرَّدْتَ من معرفتها ، وبقيتَ بلا عِلْم؟! ثُمَّ أَمَر بعضَ أصحابه فسلَّم إليَّ المِخْلاةَ. قال الغزالي: هذا مستنطقٌ أنطقه اللهُ ليرشدَني به في أمري ، فلمَّا وافيتُ طوسَ أقبلتُ على الاشتغالِ ثلاثَ سِنين ، حتى حفظتُ جميعَ ما علَّقْتُه ، وصرتُ بحيث لو قُطِع عليَّ الطّريقُ لم أتجرَّدْ من عِلْمي.

وقدمَ الغَزاليُّ «نيسابور» ولازم إمامَ الحرمين ، وجدَّ ، واجتهد حتى بَرَعَ في المذهب ، والخلاف ، والجدل ، والأصلَيْن ، والمنطِق ، وقرأ الحكمةَ ، والفلسفةَ ، وأحكمَ كُلَّ ذلك ، وفَهِمَ كلامَ أَرْبابِ هذه العلوم ، وتصدَّى للرَّدِّ عليهم ،

وإبطالِ دعاويهم ، وصَنَّفَ في كُلِّ فَنٍّ من هذه العلومِ كُتُباً جَلِيلةً.

ولما ماتَ إمامُ الحرمَيْن خَرَجَ الغَزَاليُّ إلى «المعسكر» قاصِداً الوزيرَ نِظامَ الملك ، إذ كان مجلسُه مجمعَ أهلِ العلم ، فناظرَ الأئمَّةَ والعلماءَ في مَجْلِسِه ، وقَهَرَ الخصومَ ، وظَهَرَ كلامُه عليهم ، واعْتَرَفُوا بِفَضْلِه ، وتلقَّاه الصَّاحبُ بالتَّعظيمِ والتَّبْجِيلِ ، وولَّاه تدريسَ مدرسته ببغداد ، وأَمَرَهُ بالتَّوجُّهِ إليها ، فقدم بغدادَ في سنة (٤٨٤) ودرَّس بالنّظاميَّة ، وأعجبَ الخَلْقَ حُسْنُ كلامِه ، وكَمالُ فَضْلِه ، وفَصَاحةُ لِسانِه ، ونُكَتُه الدَّقيقة ، وإشاراتُه اللَّطِيفةُ ، وأَحَبُّوه.

وأقام على تدريس العلمِ ونَشْرِه بالتعليم، والفتيا، والتَّصْنِيفِ مُدَّةً ، عظيمَ الجاهِ ، زائدَ الحِشْمَةِ ، عالي الرُّتبة ، مَسْمُوعَ الكلمة ، مَشْهُورَ الاسم ، وعَلَتْ حِشْمَتُه ودَرَجَتُه في بغداد حتَّى كانتْ تغلبُ حِشْمةَ الأكابر ، والأمراء ، ودار الخلافةِ.

ثم تبرَّمَتْ نَفْسُه مما كان فيه من الجاهِ ، وكَثْرةِ الطَّلبةِ ، والاقتدارِ على العلوم وتدريسها ، واعتراه شَكٌّ في العلوم ، وظَهَر له أنَّه لا مَطْمَعَ في سعادةِ الآخرة إلَّا بالتَّقوى ، وكَفِّ النَّفْسِ عن الهوى ، والإقبال على اللهِ تعالى ، وأنَّ ذلك لا يتمُّ إلَّا بالإعْراضِ عن الجاهِ والمالِ ، وفكَّر في نَفْسِه ، فإذا هو

مُقْبِلٌ على عُلومٍ غير مُهِمَّةٍ ، ولا نافعةٍ في طريقِ الآخرة ، وتفكَّر في نِيَّتِهِ ، فإذا هي غيرُ خالصةٍ لوجه اللهِ تعالى ، فتيقَّنَ أنَّه على خَطَرٍ ، ولم يزلْ يُفَكِّرُ في مفارقةِ بغداد وتَرْكِ التَّدريسِ قريباً من سِتَّةِ أشهرٍ ، حتى غَلَبَ ذلك عليه ، واعْتُقِلَ لِسانُه عن التَّدريسِ ، وأورثَ ذلك حُزْناً في القلبِ بطلَ معه قُوَّةُ الهَضْمِ ، وتَعدَّى إلى ضَعْفِ القوى ، حتى يَئِسَ منه الأطباءُ ، وأشارُوا عليه بالتَّرويح ، وخَفَّ عليه الإعراضُ عن الجاهِ والمالِ ففارقَ بغدادَ ، وفرَّقَ ما كان مَعَهُ من المالِ ، ولم يَدَّخِرْ إلا قَدْرَ الكَفَافِ ، وحَجَّ البيتَ الحَرَامَ ، ثم دَخَلَ الشَّامَ ، وأقامَ به قريباً من سنتين ، لا شُغْلَ له إلا بالعُزلة ، والخَلْوة ، والرِّياضة ، والمجاهدة ، اشتغالاً بِتَزْكيةِ النَّفْسِ ، وتَهْذِيبِ الأخلاقِ ، وتَصْفِيةِ القلبِ لِذِكْرِ اللهِ تعالى ، ثُمَّ تَوَجَّهَ إلى بيتِ المقدسِ ، فجاورَ به مُدَّةً ، ثم عاد إلى دمشق ، واعتكفَ بالمَنارةِ الغربيَّةِ من الجامع ، وصَنَّفَ التَّصانيفَ المشهورةَ الَّتي لم يُسْبَقْ إليها ، مثل: إحياء عُلُوم الدِّيْن ، وصادفَ دُخُوله يوماً المدرسةَ الأمينية فَوَجَدَ المدرِّسَ يقولُ: «قال الغزاليُّ». وهو يُدرِّسُ مِنْ كلامه ، فخشي الغزاليُّ على نَفْسِه العُجْبَ ، ففارق «دمشق» ، وأخذَ يجولُ في البلادِ ، فَدَخَلَ منها إلى مصر ، وتَوَجَّهَ منها إلى الإسكندرية ، فأقام بها مُدَّةً ، واستمرَّ يَجُولُ في البلدانِ ،

ويَزُورُ المشاهِدَ ، ويُرَوِّضُ نَفْسَه ، ويُجاهِدُها ، واستفادَ من صُحْبةِ الشَّيخ أبي علي الفارمدي ، وانكشفتْ عليه عُلُومٌ وحِكَمٌ ، وعَلَتْ مَدارِكُه ، وعاد إلى الوَطَنِ ، وآثَرَ العُزْلَةَ.

وأُلْزِمَ بالعَوْدِ إلى نيسابور والتَّدريس بها في المدرسة النّظامية ، فأجابَ إلى ذلك بعد تكرارِ المعاوداتِ ، ودَرَّسَ مُدَّةً يسيرةً ، وكلُّ قَلْبِه مُعَلَّقٌ ممَّا فُتِح عليه من الطَّريق ، ثم رَجَعَ إلى مدينة طوس ، واتَّخذَ إلى جانبِ داره مدرسةً للفقهاء ، وزاويةً للصُّوفية ، ووَزَّعَ أوقاته على وَظَائِف من خَتْمِ القرآن ، ومُجالَسةِ أربابِ القُلُوبِ ، والتَّدريس لِطَلَبةِ العلم ، وإدامة الصَّلاة والصِّيام وسائر العِبادات ، بحيثُ لا تَخْلُو لحظةٌ من لحظاتِه ، ولحظاتِ مَنْ مَعَهُ عن فائدةٍ ، إلى أنِ انتقلَ إلى رَحْمةِ اللهِ تعالى في يوم الإثنين (١٤) جمادى الآخرة سنة (٥٠٥ هـ).

قال أخوه أحمد: لما كان يومُ الإثنين وقتَ الصُّبْحِ توضَّأ أخي أبو حامد ، وصَلَّى ، وقال: عليَّ بالكَفَنِ ، فأَخَذَهُ ، وقَبَّلَهُ ، ووَضَعَهُ على عينيه ، وقال: سَمْعاً وطاعةً للدُّخُولِ على الملك ، ثم مَدَّ رِجْلَيْهِ ، واستقبلَ القِبْلَةَ ، ومات قبل الإسْفارِ.

وكانت خاتمةُ أمره إقبالَه على حديثِ الرَّسُولِ ﷺ ومجالسةِ

أَهْلِهِ ، ومُطالَعةِ الصَّحِيحَيْنِ البخاري ومسلم ، ومات وكِتابُ الصَّحيح للبخاري على صَدْرِهِ.

كان الغزاليُّ ـ رحمه اللهُ ـ شديدَ الذَّكاء ، سَدِيدَ النَّظَرِ ، عَجِيبَ الفِطْرة ، عالي الهِمَّة ، مُفْرِط الإدراك ، قَوِيَّ الحافِظَةِ ، بعيدَ الغَوْر ، غواصّاً على المعاني الدَّقِيقة ، مُناظِراً ، قَوِيَّ الحُجَّةِ.

* * *

(٨٣)

بين والد جندي وولد فقيه

خَرَجَ فَرُّوخ أبو عَبْدِ الرَّحمن في البُعُوثِ إلى خُراسانَ أيَّامَ بني أُميَّة غازِياً ، وولدُه ربيعةُ حَمْلٌ في بَطْنِ أُمِّهِ ، وخَلَّفَ عندَ زَوْجَتهِ أمِّ ربيعة ثلاثينَ ألف دينار ، فقدمَ المدينةَ بعد سَبْعٍ وعشرينَ سنةً ، وهُو راكِبٌ فرساً ، في يَدِه رُمْحٌ ، فنزلَ عن فَرَسِه ، ثم دَفَعَ البابَ برمحه ، فخرجَ ربيعةُ ، فقال له : يا عَدُوَّ اللهِ! أتهجمُ على منزلي؟

فقال : لا .

وقال فرُّوخ : يا عَدُوَّ الله! أنتَ رَجُلٌ دَخَلْتَ على حُرْمَتي .

فتواثَبا ، وتَلَبَّبَ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُما بصاحِبِهِ ، حتى اجتمعَ الجيرانُ ، فبلغ مالكَ بنَ أنسٍ والمشيخةَ ، فأَتَوْا يُعِينُونَ ربيعةَ ، فجعلَ ربيعةُ يقولُ : واللهِ لا فارَقْتُكَ إلَّا عندَ السُّلطانِ ، وجَعَلَ

فرُّوخٌ يقولُ: واللهِ لا فارَقْتُكَ إلاَّ بالسُّلطان ، وأنتَ مع امرأتي.
وكَثُرَ الضَّجِيجُ.

فَلَمَّا بَصُرُوا بمالك سَكَتَ النَّاسُ كُلُّهم ، فقال مالكٌ: أيُّها الشَّيخُ لكَ سَعَةٌ في غيرِ هَذِه الدَّار ، فقال الشَّيخُ: هي داري وأنا فَرُّوخ مولى بني فلان ، فسمعتِ امْرَأَتُه كَلامَهُ فخرجتْ فقالتْ: هذا زَوْجي ، وهذا ابني الذي خَلَّفْتَهُ وأنا حاملٌ به ، فاعْتَنَقَا جميعاً وبَكَيا ، فدخلَ فَرَّوخٌ المنزلَ ، وقال: هذا ابني؟

قالت: نعم!

قال: فأخرجي المالَ الذي لي عندك ، وهذه معي أربعةُ آلافِ دينار.

فقالتْ: المالُ قد دَفَنْتُهُ ، وأنا أُخْرِجُه بعد أيَّام.

فخرجَ ربيعةُ إلى المسجدِ ، وجَلَسَ في حَلْقَتِه ، وأتاهُ مالكُ بنُ أنس ، والحسنُ بن زيد ، وابنُ أبي علي اللهبي ، والمساحقي ، وأشرافُ أَهْلِ المدينة ، وأَحْدَقَ النَّاسُ به ، فقالتِ امرأتهُ: اخْرُجْ صَلِّ في مَسْجدِ الرَّسولِ ﷺ ، فخرجَ فَصَلَّى ، فنظر إلى حَلْقَةٍ وافِرةٍ ، فأتاهُ فَوَقَفَ عليه ، ففرجُوا له قليلاً ، ونكسَ ربيعةُ رأسَه يُوْهِمُه أنَّه لم يَرَهُ ، وعليه طويلةٌ ، فشكَّ فيه أبو عَبْدِ الرَّحمنِ ، فقال: مَنْ هذا الرَّجل؟

فقالوا له: هذا ربيعةُ بنُ أبي عبد الرَّحمن.

فقال أبو عبدِ الرَّحمن: لقد رَفَعَ اللهُ ابني، فَرَجَعَ إلى منزله، فقال لوالدتهِ: لقد رأيتُ وَلَدَكِ في حالةٍ ما رأيتُ أَحَداً من أَهْلِ العلمِ والفِقْهِ عليها.

فقالت أمُّه: أيُّما أَحَبُّ إليكَ، ثلاثون ألف دينار، أو هذا الذي هو فيه مِنَ الجاه؟

قال: لا واللهِ، إلاَّ هذا.

قالتْ: فإنِّي أنفقتُ المالَ كُلَّه عَلَيْهِ.

قال: فواللهِ ما ضَيَّعْتِهِ.

[(تاريخ بغداد للخطيب: ج ١، ص ٤٢١ ـ ٤٢٢)]

* * *

(٨٤)

رسولُ المسلمين عنـد قائـدِ قُـوَّاد الـفُـرْس

أَرْسَلَ سَعْدٌ قبلَ القادِسِيَّةِ رِبْعِيَّ بنَ عامر رسولاً إلى رُسْتُم قائدِ الجيوشِ الفارسِيَّة وأميرِهم ، فَدَخَلَ عليه وقد زَيَّنُوا مَجْلِسَهُ بالنَّمارِق المذهَّبة ، وزرابِيِّ الحريرِ ، وأظهر اليواقيتَ واللآلىء الثَّمينةَ ، والزِّينةَ العَظِيمةَ ، وعليه تاجُهُ وغيرُ ذلك من الأمتعةِ الثَّمينةِ ، وقد جَلَسَ على سَريرٍ من ذَهَبٍ.

ودَخَلَ رِبْعيٌّ بثيابٍ صَفِيقةٍ ، وسيفٍ ، وتُرْسٍ ، وفَرَسٍ قَصِيرة ، ولم يزلْ راكِبها حتى داسَ بها على طَرَفِ البساطِ ، ثم نَزَلَ ، ورَبَطَها ببعضِ تلك الوَسَائد ، وأقبلَ وعليه سِلاحُه ، ودِرْعُه على رأسِه ، فقالوا له : ضَعْ سِلاحَكَ.

فقال : إنِّي لم آتِكُم ، وإنَّما جِئْتُكُم حين دَعَوْتُموني ، فإن تَـرَكْتُموني هكذا وإلاَّ رَجَعْتُ.

فقال رستم: ائْذَنُوا له.

فأقبل يتوكَّأُ على رُمْحه فوقَ النَّمارِقِ، فَخَرَقَ عامَّتَها.

فقالُوا له: ما جاءَ بِكُمْ؟ فقال: اللهُ ابْتَعَثَنا لِنُخْرِجَ مَنْ شاء مِن عِبادةِ العِبادِ إلى عِبادةِ الله، ومِنْ ضِيْقِ الدُّنيا إلى سَعَتِها، ومن جَوْرِ الأديانِ إلى عَدْلِ الإسلامِ، فأَرْسَلَنا بدينه إلى خَلْقِه؛ لِنَدْعُوَهُمْ إليه، فَمَنْ قَبِلَ ذلك قَبِلْنا منه ورَجَعْنا عنه، ومَنْ أبى قاتَلْنَاهُ أبداً حتى نفضِي إلى مَوْعُودِ اللهِ.

قالوا: وما موعودُ اللهِ؟

قال: الجنَّةُ لمن ماتَ على قتالِ مَنْ أبى، والظَّفَرُ لمن بقي.

فقال رُسْتُم: قد سمعتُ مقالتكم، فهل لَكُمْ أن تُؤَخِّرُوا هذا الأمرَ حتى ننظرَ فيه وتنظروا؟

قال: نعم! كم أحبُّ إليكم؟ يوماً أو يومين؟

قال: لا، بَلْ حتى نكاتِبَ أهلَ رأينا ورؤساء قومنا!

فقال: ما سَنَّ لنا رسولُ الله ﷺ أن نُؤَخِّرَ الأعداءَ عند اللقاءِ أكْثَرَ من ثلاثٍ، فانْظُرْ في أمرك وأمرهم، واخْتَرْ واحدةً من ثلاثٍ بعد الأجل.

فقال: أسيِّدُهم أنت؟

قال: لا ، ولكنْ المسلمون كالجسدِ الواحدِ يجيرُ أدناهم على أَعْلاهم.

فاجتمعَ رُسْتُم برؤساءِ قومِه فقال: هل رأيتُم قطُّ أعزَّ وأَرْجَحَ من كلامِ هذا الرجل؟

فقالوا: معاذَ اللهِ أن تميلَ إلى شيءٍ من هذا وتَدَعَ دِيْنَكَ إلى هذا الكلب ، أَمَا تَرَى إلى ثِيابِه؟

فقال: وَيْلَكُم لا تَنْظُروا إلى الثِّيابِ ، وانْظُروا إلى الرَّأي ، والكلام ، والسِّيرة ، إنَّ العربَ يستخفُّونَ بالثيابِ والمأكلِ ، ويَصُونُون الأَحْسابَ.

[البداية والنهاية (ج٧ ص٤٠)]

* * *

(٨٥)

أدب القرآن

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ
بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ
لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ
وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟
قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ
يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ
وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ
ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟

بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ۞ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ . [سورة الحجرات: ١ ـ ١٨]

* * *

(٨٦)

شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية

وُلِد أحمدُ بنُ عبد الحليم ابن تيمية بحرَّان ، يومَ الإثنين في (١٠) وقيل (١١) ربيع الأول سنة (٦٦١) وقَدِمَ مَعَ والدِه وأَهْلِه إلى دمشقَ وهو صَغيرٌ كانُوا قد خَرَجُوا من بلادِ حَرَّانَ مهاجرين بسببِ جَوْرِ التَّتَر ، فَسَارُوا باللَّيلِ ومعهم الكُتبُ على عَجَلةٍ لعدمِ الدَّواب ، وكادَ العدوُّ يَلْحَقُهم ، ووقعتِ العجلةُ فابْتَهَلُوا إلى الله تعالى، واسْتَغَاثُوا به فَنَجَوْا، وقَدِمُوا دمشقَ في أثناء سنة (٦٦٧) .

وسمع هناك من أكثر من مئتي شيخ ، ولازمَ السَّماعَ مدَّة سَنَتين ، واشتغلَ بالعلوم ، وحِفْظ القرآن ، وأَقْبَلَ على الفِقْه ، وبَرَعَ في النحو ، وأقبل على التَّفْسِير إقبالاً كُلِّيّاً حتى حازَ فيه قَصَبَ السَّبَق ، كُلُّ ذلك وهو ابنُ بِضْع عشرةَ سنة ، ولم يزلْ على ذلك خَلَفاً صالحاً ، بَرّاً بوالديه ، تقيّاً ، وَرِعاً ، ناسِكاً ،

صَوَّاماً ، قَوَّاماً ، ذاكراً للهِ تعالى في كُلِّ أمرٍ ، وعلى كُلِّ حالٍ ، رجَّاعاً إلى الله تعالى في سَائرِ الأَحْوالِ والقَضَايا ، وقَّافاً عند حُدُودِ الله تعالى ، وأوامره ، ونواهيه ، آمِراً بالمعروفِ ، ناهياً عن المنْكَرِ ، لا تكادُ نَفْسُهُ تشبعُ من العِلْم ، ولا ترْوَى من المطالعةِ ، ولا تملُّ مِنَ الاشْتِغالِ ، ولا تكِلُّ من البَحْثِ ، وكان يحضرُ المجالسَ والمحافلَ في صِغَرِه؛ فيتكلَّم ويُناظِرُ ويُفْحِمُ الكبارَ ، ويأتي بما يتحيَّرُ منه أعيانُ البلدِ في العِلْم.

وأَفْتَى وله نحو (١٧) سنة ، وشَرَعَ في الجَمْع والتَّأليفِ من ذلك الوقتِ ، وماتَ والِدُه فكانَ من كبار الحنابلة وأَئِمَّتِهم ، دَرَّسَ بعدَّةِ وظائف وله (٢١) سنة ، فاشتهر أَمْرُه ، وبَعُدَ صِيْتُه في العالم ، وأَخَذَ في تفسيرِ الكتابِ العزيزِ أيَّامَ الجُمَع على كُرْسِيٍّ مِنْ حِفْظِه ، فكان يُورِدُ ما يقولُه من دونِ تَوَقُّفٍ ولا تَلَعْثُمٍ.

وحَجَّ سنة (٦٩١) ورَجَعَ وقد انتهتْ إليه الإمامةُ في العِلْم والعَمَل ، ولم يخلُ بعد ذلكَ مِنْ فِتْنةٍ بعد فِتْنةٍ. ولم ينتقلْ طولَ عمرهِ مِنْ مِحْنَةٍ إلاَّ إلى محنةٍ ، حُبِس مراراً في مسائلَ فِقْهيَّةٍ وكلاميةٍ ، وحُبِس مَرَّةً بِبُرْجٍ ، وكان مَوْضِعُه فَسِيحاً فصار الناسُ يَدْخُلُون إليه ويَقْرؤُون عليه ، ويَبْحَثُون معه ، ونُقِل إلى الجُبِّ ، ونُفِي من بلادٍ ، ونُقِل من بلادٍ إلى بلادٍ.

وقامُوا عليه في شَهْر رمضانَ سنة (٧١٩) وأُكِّد عليه المنعُ من الفتيا ، ثم عُقِد له مجلس آخر في رجب سنة (٧٢٠) ، ثم حُبِسَ بالقَلْعةِ ، ثُمَّ أُخْرِجَ في عاشوراء سنة (٧٢١) ، ثم قامُوا عليه مَرَّةً أخرى في شعبان (٧٢٦) بسببِ مسألةِ الزِّيارة ، واعْتُقِل بالقَلْعَة ، فلم يَزَلْ بها إلى أن ماتَ في ليلةِ الإثنين والعشرين من ذي القعدة سنة (٧٢٨ هـ) وصُلِّي عليه بجامعِ دمشق ، وصار يُضْرَبُ بكثرةِ مَنْ حَضَرَ جَنَازَتَهُ المَثَلُ ، وأقلُّ ما قِيلَ في عددهم إنَّهم خمسون ألفاً.

قال الذَّهبيُّ: كان يُقْضَى منه العَجَبُ إذا ذَكَر مسألةً من مسائلِ الخِلافِ ، واسْتَدَلَّ ، ورَجَّحَ ، وكان يحقُّ له الاجتهادُ لاجتماعِ شُرُوطه فيه ، وما رأيتُ أسرعَ انتزاعاً للآياتِ الدَّالَّةِ على المَسألةِ التي يُورِدُها منه ، ولا أَشَدَّ اسْتِحْضاراً لِلْمُتُونِ وعَزْوِها منه ، كأَنَّ السُّنَّةَ نُصْبَ عَيْنَيْهِ ، وعلى طَرفِ لِسانِه؛ بعبارةٍ رشيقةٍ ، وعينٍ مفتوحةٍ.

وكان آيةً من آياتِ اللهِ في التفسير والتَّوسُّعِ فيه ، وأمَّا أُصولُ الدِّيانةِ ومَعْرفةِ أقوالِ المخالفينَ ، فكانَ لا يُشَقُّ غُبارُه فيه ، هذا مَعَ ما كان عليه من الكَرَم ، والشَّجاعةِ ، والفَراغ عن مَلاذِّ النَّفْس ، ولعلَّ فتاواه في الفنونِ تبلغُ ثلاثمئة مجلد ، بل أكثر ، وكان قَوَّالاً بالحقِّ ، لا تأخُذُه في الله لَوْمَةُ لائِمٍ.

كان أبيضَ ، أسودَ الرَّأسِ واللحية ، قليلَ الشَّيْب ، شَعْرُه إلى شَحْمة أُذُنيه ، وكأنَّ عينيه لِسانان ناطِقان ، رَبْعةٌ من الرِّجال ، بَعِيدُ ما بين المنكبَيْن ، جَهْوَرِيُّ الصَّوتِ ، فَصِيحٌ ، سَرِيعُ القِراءة ، تعتريه حِدَّةٌ لكن يَقْهَرُها بالحِلْم ، لم أَرَ مِثْلَهُ في ابتهالِهِ ، واستغاثته ، وكَثْرةِ تَوَجُّهه ، وأنا لا أعتقدُ فيه عِصْمةً ، وكان بَشَراً مِنَ البَشَرِ ، تعتريه حِدَّةٌ في البحثِ وغَضَبٌ ، وكلُّ أحدٍ يُؤْخَذُ من قوله ويُتْرَكُ.

وكان محافِظاً على الصَّلاةِ والصَّوم ، مُعَظِّماً للشَّرائعِ؛ ظاهِراً وباطِناً ، لا يُؤْتَى من سُوءِ فَهْمٍ ، فإنَّ له الذَّكاءَ المُفْرِط ، ولا مِنْ قِلَّةِ عِلْم؛ فإنه بَحْرٌ زَخَّار ، ولا كان متلاعِباً بالدِّين ، ولا ينفردُ بمسائله بالتَّشَهِّي ، ولا يُطْلِقُ لِسانَهُ بما اتَّفَقَ ، بل يَحْتَجُّ بالقرآنِ ، والحديثِ ، والقياس ، ويُبَرْهِنُ ، ويُناظِرُ.

قال الأقشهريُّ في رحلته: ابنُ تيمية بارعٌ في الفقه ، والأصلَيْن ، والفَرائِض ، والحساب ، وفنون أُخر ، وما مِنْ فَنٍّ إلا له فيه يدٌ طُولى ، وقَلَمُه ولِسانُه متقاربان.

وقال شمسُ الدِّين ابنُ الحريريِّ قاضي الحنفية بدمشق: إنَّه منذُ ثلاثمئة سنة ما رأى النَّاسُ مِثْلَهُ.

وكان ابنُ تيمية يتكلَّم على المنبرِ على طريقة المفسِّرين مع

الفقه والحديث، فَيُورِدُ في ساعةٍ من الكتابِ، والسُّنَّـةِ، واللغة، والنظر ، ما لا يقدرُ أحدٌ على أنْ يُورِدَهُ في عِدَّةِ مجالس ، كأنَّ هذه العُلوم بين عينيه ، فيأخذُ منها ما يشاءُ ويَذَرُ.

وكان يمرُّ بالكتابِ مطالعةً مَرَّةً ، فينتقشُ في ذِهْنه ، وينقلُهُ في مُصَنَّفاتِه بِلَفْظِه ومَعْناهُ.

وكان من أذكياء العالم؛ وله في ذلكَ أمورٌ عَظِيمةٌ ، منها أنَّ محمدَ بن أبي بكر السكاكيني عملَ أبياتاً على لسانِ ذِمِّيٍّ في إنكار القدر ، فوقف عليها ابنُ تيمية ، فثنى إحدى رجليه على الأخرى ، وأجابَ في مَجْلسِه قبل أن يَقُومَ بمئةٍ وتسعة عشر بيتاً.

وكان دائمَ الابتهالِ ، كثيرَ الاستغاثةِ ، قويَّ التوكُّل ، رابطَ الجأش ، له أورادٌ وأذكارٌ يُدْمِنها قلبيَّة وجَمْعيَّـة.

* * *

(٨٧)

تجارة رابحة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ

بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴾

[الصف : ١ ـ ١٤]

* * *

(٨٨)

كيف تعلَّمت الإسلام في الأندلس النصرانية

أطلعني اللهُ على دِيْنِ الإسلامِ بواسطة والدي ـ رحمةُ اللهِ عليه ـ وأنا ابنُ سِتَّة أعوامٍ أو أقلّ ، مع أني كنتُ إذ ذاكَ أروحُ إلى مكتب النَّصارى لأقرأَ دِيْنَهم ، ثم أرجعَ إلى بيتي فيعلِّمَني والدي دينَ الإِسلامِ ، فكنتُ أتعلَّم فيهما معاً ، وسِنِّي حين حُمِلْتُ إلى مَكْتَبهم أربعةُ أعوام ، فأَخَذَ والدي لوحاً من عُودِ الجَوْزِ ، كأني أَنْظُرُ الآن إليه مُمَلَّساً من غير طَفْلٍ ولا غبرة ، فكتبَ لي فيه حُروفَ الهِجاءِ ، وهو يَسْأَلني حرفاً حرفاً عن حُروف النَّصارى تدريباً وتقريباً ، فإذا سَمَّيتُ له حَرْفاً أعجمياً كَتَبَ لي حرفاً عربياً ، فيقولُ لي : هكذا حُروفُنا ، حتى استوفى لي جميعَ حرُوفِ الهجاءِ في كَرَّتَيْن ، فلمَّا فَرَغَ عن الكَرَّةِ الأولى أَوْصاني أن أَكْتُمَ ذلك ، حتَّى عن والِدتي ، وعَمِّي ، وأخي ،

وجَمِيعِ قرابتنا ، وأَمَرَني ألاَّ أُخْبِرَ أحداً من الخَلْقِ ، ثم شدَّد عليَّ الوَصِيَّة ، وصار يُرْسِلُ والدتي فتسألُني : ما الذي يُعَلِّمُك؟ فأقولُ لها : لا شيءَ ، أَخْبِرْني بذلك ولا تَخَفْ ، لأنِّي عندي الخبر بما يُعَلِّمُكَ ، فأقولُ لها : أبداً ما هو يُعَلِّمُني شيئاً ، وكذلك كان يفعلُ عَمِّي وأنا أُنكِرُ أشدَّ الإِنكارِ ، ثم أروحُ إلى مَكْتَبِ النَّصارى ، وإلى الدَّار ، فَيُعَلِّمُني والدي ، إلى أن مَضَتْ مُدَّةٌ ، فأرسلَ إليَّ مِنْ إخوانه في الله الأصدقاء ، فلم أقرَّ لأحدٍ قَطُّ بشيءٍ ، مع أنَّه رحمه اللهُ تعالى قد ألقى نَفْسَه للهلاك لإِمْكانِ أنْ أُخْبِرَ بذلك عنه ، فَيُحْرَقَ لا محالة ، لكن أيَّدنا اللهُ سبحانه وتعالى بتأييده ، وأعاننا على ذِكْره ، وشُكْره ، وحُسْن عبادته بين أَظْهُر أعداءِ الدِّيْنِ .

وقد كانَ والدي ـ رحمه الله تعالى ـ يُعَلِّمُني حينئذٍ ما كنتُ أقوله عند رؤيتي للأصنام ، وذاك أنَّه قال لي : إذا أتيتَ إلى كنائِسِهم ، ورأيتَ الأَصْنامَ ، فاقرأْ في نَفْسِك سِرّاً قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ و﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ إلى آخرها ، وغير ذلك من الآياتِ الكَريمةِ ، وقوله تعالى : ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا

عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ .

فلمَّا تَحقَّق والدي ـ رحمه الله تعالى ـ أنِّي أكتمُ أمورَ دِيْنِ الإسلامِ عن الأقاربِ فَضْلاً عن الأجانب ، أَمَرني أن أتكلَّم بإفشائِه لوالدتي ، وعمِّي ، وبَعْض أصحابه الأصدقاء فَقَط ، وكانوا يَأْتُونَ إلى بيتنا فيتحدَّثون في أَمْر الدِّين وأنا أسمعُ ، فلمَّا رأى حَزْمي مع صِغَر سِنِّي فَرِح غاية الفَرَح ، وعَرَّفَنِي بأصدقائِه ، وأحبَّائه ، وإخوانه في دِيْن الإسلام ، فاجتمعتُ بهم واحداً واحداً.

وسافرتُ الأَسْفارَ لأجتمعَ بالمسلمين الأخيار من «جيان» مدينة ابن مالك إلى «غرناطة» وإلى «قرطبة» و«أشبيلية» و«طليطلة» وغيرها من مُدُنِ الجزيرةِ الخضراءِ ، أعادها اللهُ تعالى للإسلام ، فتلخَّصَ لي من معرفتهم أنِّي مَيَّزْتُ سبعةَ رجالٍ كانوا كلُّهم يُحَدِّثُونَني بأمورِ «غرناطة» وما كان بها في الإسلامِ حينئذٍ ، وبما أقولُه بَعْدُ ، وقُلْتُه قَبْلُ ، فسندي عالٍ؛ لِكَوْنِهِ ما تمَّ إلا بواسطةٍ واحدةٍ بيني وبين الإسلامِ بها.

فباجْتِماعي بهم حَصَلَ لي خَيْرٌ كثيرٌ ، للهِ المِنَّةُ ، وقد قرؤوا كلُّهم ـ رحمهم اللهُ ـ على شَيْخٍ من مَشَايخِ «غرناطة» ـ أعادها الله

للإسلام ـ يقال له الفقيه اللوطوري ـ رحمه الله تعالى ، ونفعنا به ـ فإنَّه كان رَجُلاً صالحاً ، ولِيّاً للهِ ، فاضلاً ، زاهداً ، وَرِعاً ، عارفاً ، سالِكاً ، ذا مَنَاقِب ظاهِرةٍ مَشْهورةٍ ، وكَراماتٍ ظاهِرة مأثورة ، قد قرأ القرآنَ الكريمَ في مَكْتَبِ الإسلامِ بغرناطة قبل استيلاء العدوِّ عليها ، وهو ابنُ ثمانيةِ أعوامٍ ، وقرأ الفِقْهَ وغَيْرَهُ على مشايخ أجلاَّءَ حسب الإمكان؛ لأنَّ الوقتَ ضاقَ في السِّرِّ والإِعْلانِ؛ لِشِدَّةِ القتالِ والحَصْرِ الذي كان عليهم مع صِغَرِ سنِّه ، ثُمَّ بَعْدَ مُدَّةٍ يَسِيرةٍ انْتُزِعَتْ غرناطةُ من أيدي المسلمين أجدادِنا ، وقد أَذِنَ العدوُّ في رُكُوب البحر ، والخروج منها لمن أراده ، وبَيْع ما عنده وإتيانه لهذه الدِّيار الإسلامية ، أبقاها اللهُ تعالى عامرةً بالإسلام إلى يومِ الدِّيْنِ ، وذلك في مُدَّةِ ثلاثةِ أعوام ، ومَنْ أرادَ أن يُقِيمَ على دِيْنِه وماله فَلْيَفْعَلْ بَعْدَ شُروطٍ اشْتَرَطُوها ، وإلزاماتٍ كَتَبها عدوُّ الدِّينِ على أَهْلِ الإسلامِ ، فلمَّا تحرَّكَ لذلك أجدادُنا ، وعَزَمُوا على تَرْكِ دِيارِهم ، وأموالهم ، ومفارقةِ أَوْطانِهم للْخُروجِ من بينهم ، وجاز إلى هذه الدِّيارِ التُّونسية والخضرة الخَضْراء بعثة مَنْ جاءَ إليها حينئذٍ ، ودَخَلوا في زُقاقِ الأندلسِ المعروفِ بهذا الاسم ، وذلك سنة اثنتين و تسعمئة ، وكذلك للجزائر ، وتطوان ، وفاس ، ومراكش ، وغيرها ، ورأى العدوُّ العَزْمَ فيهم لذلك

نَقَضَ العهدَ ، فَرَدَّهُم رَغْمَ أُنُوفِهم من سَواحل البحرِ إلى ديارهم ، ومَنَعَهُم قَهْراً عن الخروج واللُّحُوقِ بإخوانهم وقرابتهم لِدِيارِ الإسلامِ ، وقد كان العدوُّ يُظْهِرُ شيئاً ويَفْعَلُ بهم آخرَ ، مع أنَّ المسلمينَ أجدادَنا اسْتَنْجَدُوا مراراً بملوكِ الإسلام كملكِ فاس ومصر حينئذٍ ، فلم يقعْ من أحدهما إلا بعضُ مراسلات ليقضيَ اللهُ أمراً كان مَفْعُولاً .

ثم بقي العدوُّ يحتالُ بالكُفْر عليهم غَضَباً ، فابتدأ يُزِيلُ لهم اللباسَ الإسلاميَّ ، والجماعات ، والحمَّامات ، والمعاملات الإسلامية شيئاً فشيئاً ، مع شِدَّةِ امتناعِهم ، والقيام عليه مراراً ، وقِتالهم إيَّاه ، إلى أن قَضَى اللهُ سُبحانه ما قد سَبَقَ في عِلْمِه ، فبقينا بين أَظْهُرِهِمْ ، وعدوُّ الدِّين يحرقُ بالنَّارِ مَنْ لاحَتْ عليه أمارةُ الإسلام ، ويُعَذِّبُه بأنواعِ العَذَابِ ، فَكَمْ أحرقوا! وكم عَذَّبُوا! وكم نَفَوْا من بلادهم ، وضَيَّعوا من مِسلم! فإنَّا للهِ وإنَّا إليه راجِعُونَ .

[سيدي محمد بن عبد الرفيع الأندلسي (١٠٥٢ هـ)]

* * *

(٨٩)

رثــاء الأنــدلس

لكُلِّ شيءٍ إذا ما تَمَّ نُقْصانُ فلا يُغَرَّ بطيبِ العيشِ إنسانُ

هي الأمورُ كَمَا شاهَدْتَها دُوَلٌ مَنْ سَرَّهُ زمنٌ ساءته أزمانُ

وهذه الدَّارُ لا تُبْقي على أحدٍ ولا يدومُ على حالٍ لها شانُ

فجائعُ الدَّهْرِ أنواعٌ مُنَوَّعةٌ وللـزَّمـانِ مَسَـرَّاتٌ وأَحْـزانُ

وللحـوادثِ سُلـوانٌ يُسَهِّلُهـا ومَا لما حَلَّ بالإسلام سلوانُ

دَهَى الجزيرةَ أَمْرٌ لا عَزاءَ لها هوى له أُحُدٌ وانْهَدَّ ثَهْلانُ

أصابها العينُ في الإسلام فارْتَزَأَتْ حتى خَلَتْ منه أقطارٌ وبُلْدانُ

فاسألْ بلنسية ما شأنُ مُرْسية وأيـن شَـاطِبـة أم أيـنَ جَيَّـانُ

وأين قرطبةٌ دارُ العلومِ فكم من عالمٍ قد نَمَا فيها له شانُ

وأين حمصٌ وما تحويه من نُزَهٍ ونَهْرُها العَذْبُ فَيَّاضُ ومَلآنُ

تبكي الحنيفيةُ البيضاءُ من أَسَفٍ كما بكى لفراقِ الإلفِ هَيْمانُ

على ديارٍ من الإسلام خاليةٍ قد أقفرتْ ولها بالكُفْرِ عُمْرانُ

حيث المساجدُ قد صارتْ كنائسَ ما فيهنَّ إلا نواقيسٌ وصُلْبانُ

حتى المحاريبُ تَبْكي وهي جامدةٌ حتى المنابرُ ترثي وهي عِيدانُ

ماشِياً مَرِحاً يُلْهِيه مَوْطِنُه أبعدَ حمصَ تغرُّ المرءَ أَوْطانُ؟!

تلكَ المصيبةُ أَنْسَتْ ما تَقَدَّمها وما لها مع طُولِ الدَّهْرِ نِسْيانُ

أَعِنْدَكُمْ نَبَأٌ من أهلِ أندلسٍ فقد سَرَى بحديثِ القوم رُكْبانُ

كم يستغيثُ بِنا المستضعفون وهُمْ قتلى وأَسْرى فما يهتزُّ إنسانُ!

ما ذا التَّقاطعُ في الإِسلام بينكُم وأنتم يا عبادَ اللهِ إخوانُ؟!

أَلاَ نُفُوسٌ أَبِيَّاتٌ لها هِمَمٌ أمَا على الخيرِ أنصارٌ وأَعْوانُ؟!

يا مَنْ لِذِلَّةِ قومٍ بعد عِزِّهِم أحالَ حَوْلَهم جَوْرٌ وطُغْيانُ

بالأمسِ كانُوا مُلُوكاً في منازِلهم واليومَ هُم في بلادِ الكُفْرِ عُبْدانُ

فلو تَراهم حَيارى لا دَليلَ لهم عليهم في ثِيابِ الذُّلِّ ألوانُ

ولو رأيتَ بُكاهم عند بَيْعَتِهم لهَالَكَ الأمرُ واسْتَهْوَتْكَ أحْزانُ

يا رُبَّ أمٍّ وطِفْلٍ حِيلَ بينهما كما تَفَرَّق أرواحٌ وأَبْدانُ

وطفلةٍ مثل حُسْنِ الشَّمسِ إذ طَلَعَتْ كأنَّما هي ياقوتٌ ومُرْجانُ

يقودُها العِلْجُ للمكروهِ مُكْرَهَةً والعينُ باكيةٌ والقلبُ حَيْرانُ

لمثلِ هذا يَذُوبُ القلبُ من كَمَدٍ إنْ كانَ في القلبِ إسلامٌ وإيمانُ

[صالح بن شريف الرندي]

* * *

(٩٠)

علي زين العابدين

لما حجَّ هشام بن عبد الملك في أيام أبيه ، طاف بالبيت ، وجهدَ أن يصلَ إلى الحجرِ الأسود ليستلمه؛ فلم يقدرْ ، فَنُصِبَ له كرسيٌّ ومعه جماعةٌ من أعيان الشام ، إذ أقبلَ الإمامُ زينُ العابدين ، وكان من أجملِ النَّاسِ وجهاً ، وأطيبهم أَرَجاً؛ فطافَ بالبيت ، فلما انتهى إلى الحجر الأسود تَنَحَّى له النَّاسُ ، حتى استلم الحجرَ الأسود ، فقال رجلٌ من أهلِ الشَّام لهشام: مَنْ هذا الذي هابه الناسُ هذه الهيبة؟ فقال هشامٌ: لا أعرفه؛ مخافةَ أن يرغبَ فيه أهلُ الشام ، وكان الفرزدقُ حاضراً ، فقال: أنا أعرفه ، ثم اندفع؛ فأنشدَ هذه القصيدةَ الغَرَّاء:

هَذَا الَّذيْ تَعْرِفُ البَطْحَاءُ وَطْأته ... والْبَيْتُ يَعْرِفُه وَالْحِلُّ وَالْحَرَمُ

هَذَا ابنُ خَيْرِ عِبَادِ اللهِ كُلِّهِم ... هذَا التَّقِيُّ النَّقِيُّ الطَّاهِرُ الْعَلَمُ

إِذَا رَأَتْهُ قُرَيْشٌ قَالَ قَائِلُهَا ... إِلَى مَكَارِمِ هَذَا يَنْتَهِيْ الْكَرَمُ

يُنْمَى إِلَى ذِرْوَةِ الْعِزِّ الَّتِيْ قَصُرتْ عنْ نَيْلِهَا عَرَبُ الإِسْلاَمِ وَالْعَجَمُ

يَكَـادُ يُمْسِكُـه عِـرْفَـانَ رَاحَتِـه رکْنُ الْحَطِيْمِ إِذَا مَا جَاءَ يَسْتَلِمُ

فِيْ كَفِّه خَيْزُرَانٌ رِيْحُه عَبِقٌ منْ كَفِّ أَرْوَعَ فِيْ عِرْنِيْنِه شَمَمُ

يُغْضِيْ حياءً وَيُغْضَى مِنْ مَهَابَتِه فَـلاَ يُكَلَّـمُ إِلاّ حِيْـنَ يَبْتَسِـمُ

يَنْشَقُّ نُوْرُ الهَدَى عَنْ نُورِ غُرَّتِه كالشَّمْسِ تَنْجَابُ عَنْ إِشْرَاقِهَا الظُّلَمُ

مُنْشَقَّـةٌ مِنْ رَسُوْلِ اللهِ نَـبْـعَـتُـه طابَتْ عَنَاصِرُهُ وَالْخِيْمُ وَالشِّيمُ

وَلَيْسَ قَوْلُكَ مَنْ هَذَا بِضَائِرِه العُرْبُ تَعْرِفُ مَنْ أَنْكَرت وَالعَجَمُ

سَهْلُ الْخَلِيْقَةِ لاَ تُخْشَى بَوَادِرُه يزِيْنُه اثْنَان حُسْنُ الْخَلْقِ وَالشِّيَمُ

مَا قَالَ «لاَ» قَطُّ إِلاَّ فِيْ تَشَهُّدِه لوْلاَ التَّشَهُّدُ كَانَتْ «لاَؤُهُ» نَعَمُ

[الفرزدق]

* * *

(٩١)

مع الإمــام الشــافعــي

دَعِ الأيـامَ تفعـلُ مـا تشـاءُ ... وطِبْ نفساً إذا حلَّ القضاءُ

ولَا تجـزعْ لحـادثـةِ الليـالـي ... فمـا لحـوادِثِ الـدُّنيـا بَقَـاءُ

وكُنْ رجلاً على الأهوالِ جَلْداً ... وشيمتُك السَّماحة والوفاءُ

وإن كَثُرَتْ عُيوبُك في البرايا ... وسَـرَّك أن يكـونَ لهـا غِطـاءُ

تَستَّـرْ بـالسَّخـاء فكـلُّ عَيْـبٍ ... يغَطّيـه كمـا قِيـل السَّخـاءُ

ولا تُـرِ لـلأعـادي قـطُّ ذلاًّ ... فـإنَّ شمـاتـةَ الأعـدَا بـلاءُ

ولا تَرْجُ السَّماحةَ من بَخيلٍ ... فمـا فـي النَّـارِ للظمـآنِ مَـاءُ

ولا حُـزْنٌ يـدوم ولا سـرورٌ ... ولا بـؤسٌ عَليـك ولا رَخـاءُ

إذا مـا كنـتَ ذَا قَلْـبٍ قَنـوعٍ ... فأنت ومالِكُ الدنيا سواءُ

ويقول في قصيدة أخرى:

يخـاطبني السَّفيـهُ بكـل قُبـحٍ ... فـأكـرهُ أن أكـونَ لـه مُجيبـا

يـزيـدُ سفـاهـةً فـأزيـدُ حِلْمـاً ... كعـودٍ زاده الإحـراقُ طيبـا

ويقول:

ما في المقامِ لذي عقلٍ وذي أدبٍ ... من راحةٍ فَدَعِ الأوطانَ واغْتَربِ
سافِرْ تجدْ عِوَضاً عمّنْ تفارقه ... وانْصَبْ فإنّ لذيذَ العيشِ في النَّصَبِ
إنِّي رأيتُ وقوفَ الماء يُفْسِدُه ... إنْ ساحَ طابَ وإن لم يجرِ لم يَطِبِ
والأُسْدُ لولا فراقُ الأرض ما افترسَتْ ... والسَّهمُ لولا فراقُ القوسِ لم يُصِبِ
والشمسُ لو وقفتْ في الفُلْكِ دائمةً ... لملّها الناسُ من عُجمٍ ومن عربِ
والتِّبْرُ كالتُّربِ مُلْقى في أماكنه ... والعودُ في أرضه نوعٌ من الحَطَبِ

ومن جميل مواعظه:

أشـدُّ الجهـادِ جهـادُ الهـوى ... ومـا كـرَّم المـرءَ إلا التُّقـى
وأخلاقُ ذي الفَضْلِ معروفةٌ ... ببـذلِ الجميـلِ وتَـرْك الأذى
وكـلُّ الفكـاهـاتِ مملـولـةٌ ... وطـولُ التَّعـاشُـرِ فيـه القِلـى
وكـلُّ طـريـفٍ لـه لـذَّةٌ ... وكـلُّ تليـدٍ سـريـعُ البِلـى
ولا شـيءَ إلا لـه آفـةٌ ... ولا شـيءَ إلا لـه مُنْتهـى
وليسَ الغِنـى نَسَبـاً فـي يـد ... ولكنْ غِنى النفسِ كلُّ الغنِى
وإنّـا لفـي صُنُـعٍ ظـاهـرٍ ... يـدلُّ علـى صـانِـعٍ لا يُـرَى

[الإمام الشافعي]

* * *

(٩٢)

في السحر

رَبَّاه هَذِي جَبْهَتي تعْنُو لِوَجْهِكَ في حُضُورْ

وَتَسُلُّ من أيَّامِهَا هذِي الدَّقَائِقَ في السَّحُورْ

فَلَعَلَّهَا تَحْظَى بِمَا أكْنَنْتَ مِن سِرٍّ ونُورْ

وَتَذُوقُ مَعْنىً قَدْ طَوَتْه سجَافُ هَاتيكَ السُّتُورْ

وَتَصُوغُ من هَالاتِهِ سوْطاً لأهْوَاءٍ تَثُورْ

فَلَقَدْ أمَضَّ فُؤَادَهَا فوضَى بِأحْناءِ الصُّدُورْ

وَتَشَعَّبَتْ من حَولِهَا فكَرٌ كَأسْرَابِ الطُّيُورْ

وَيَسُوقُهَا أمَلٌ إلى نجوَاكَ في كَنَفِ السَّحُورْ

فَلكَمْ حَدَاهَا بُؤْسُهَا فتَصِيْح لَيْلاً : يَا غَفُورْ

وَلَكَم أثَارَ شُجُونَهَا ألَمٌ مُمِضٌّ لا يَغُورْ

لا الصَّبْرُ ثاوٍ فِيْ الفُؤَادِ ولاَ المُقِيمُ بِه صَبُورْ

أبداً حياتي في عَنَاء ليس يُحيِيهَا السُّرُورْ

قَدْ بَرَّحَ الأَلَمُ الممضُّ بِهَا وَأَضْنَاهَا الفُتُورْ

فَإِلَيْكَ أَشْكُو شِقْوَتِي في هَدْأَةِ اللَّيْلِ الوَقُورْ

وإلَيْكَ أرفَعُ هَامَتِي ويَدَيَّ إبَّان الحُضَورْ

لتشُدَّ أَزْري يا كَرِيم وتمحُ أَخْطَاءَ الشُّعُورْ!

[عبد الرحمن السنوسي]

* * *

(٩٣)

مولد الرسول الحبيب ﷺ

ومِنْكَ أَشْرَقَ نُورٌ عَمَّ مَظْهَرُهُ وفَاضَ منهُ السَّنَا يَعلُو عَلَى القِيمِ

تَبَسَّمَ الكَونُ مِنْ إشْرَاقِ مَولِدِهِ صبحاً يَطيبُ كَفيض الهَاطِلِ العَمِمِ

يَومٌ أَطَلَّ عَلَى الدُّنَيا ببهجتهِ فالبَاطلُ انزَاحَ والإشْرَاكُ لم يَدُمِ

واسْتَرسَل البشْرُ مُذْ هَلَّتْ بَوَادِرُهُ في صَفْحَةِ الكَون بَينَ السَّهلِ والأكَمِ

هَل غَيرُ مَكَّةَ تاهَتْ يومَ مَولده وهيَ التي عُرِفتْ في الأرض بالقِدَمِ

بَها الملائِكَ طَافَت وَهيَ حَائمَةٌ في الأفْق وَالطَّيرُ يَشدو أجملَ النَّغَمِ

تَزيَّنَتْ وجبالُ النُّور رَاقِصةٌ لفَرحَةِ الكَونِ بَل للفَضْل وَالكَرَم

حَيثُ السَّمَاء بهَا الأَفْلاكُ سَاهِرَةٌ والمَوْجُ في البَحْر سَطْرٌ رَائعُ الكَلِمِ

لَمْ يَشْهَدِ الكَونُ نُوراً مِثلَ مَولِدِهِ أكرمْ بمشْرق يَومٍ باسمِ القَسَمِ

هَادِي العِبَادِ جميعاً فهوَ خيرَتُهُم براهُ رَبُّ الوَرىَ مِنْ خِيرةِ الأُمَمِ

وَقَالَ إنَّكَ يا طَهَ على خُلُقٍ منَ الصّفَاتِ عَظِيمُ القَدْر وَالشِّيَمِ

كَفَى بربِّ الوَرى آياتُهُ شَهدَتْ	لسَيِّد الخَلْق بالأخلاقِ والعِظَمِ
وَقَالَ صَلُّوا عَلَيهِ وَهْوَ آمِرُنَا	وسَلِّمُوا تَسْلَمُوا في أحْلَكِ الغَمَمِ
ومِنْ بَشَائِر طَهَ يَوم مَولِدِهِ	خوَارقُ جَمَّةُ الإعجَازِ والحِكَمِ
اهْتَزَّ إيوَانُ كِسْرَى بَعْدَ عزَّتِهِ	وأصْبَحَ القَومُ في هَمٍّ وَفي غَمَمِ
وفارسٌ بَعْدَ أَلْفٍ نَارُهُم خَمَدَتْ	ثمَ البُحَيرةُ غَاضَتَ فَهْي كَالعَدَمِ

[شعر المطوف الأستاذ علي حسن أبو العلا]



نشاطات تعليمية

(١) كيف أقضي يومي

*** الأسئلة:**

(١) ماذا تفعل عندما تستيقظ من نومك؟

(٢) لماذا تستيقظ باكراً؟

(٣) هل تساعد أباك في شراء الحاجيات من السوق؟

(٤) كيف تقضي يوم العطلة؟

(٥) ما الأذكار التي تقولها حين تريد أن تنام؟

*** اختر الإجابة الصحيحة مما يلي:**

أين تتعلَّم؟

(في المسجد ، في المدرسة ، في المنزل).

أين تتلقى الدروس؟

(في الشارع ، في الحديقة ، في حجرة الدراسة).

(٢) لما بلغت السابعة من عمري

*** الأسئلة:**

(١) متى يُؤمر الطفل بأداء الصلاة؟

(٢) كم سورةً تحفظ من القرآن الكريم؟

(٣) كنتَ تشاهد مباراةً وأدركتك صلاةُ العصر ، ماذا تفعل؟

(٤) ماذا تقول إذا أصابك خير؟

(٥) رأيت صديقك يسرعُ في صلاته ، بماذا تنصحه؟

*** ضع كلمة (صح) أو (خطأ) أمام كل جملة :**

ـ لمَّا بلغت الثانية عشرة من عمري أمرني أبي بالصلاة .

ـ الصلاة فريضة على كل مسلم ومسلمة .

ـ أسألُ اللهَ التوفيقَ والثبات .

(٣) النملة

*** الأسئلة :**

(١) ما غاية النملة من سعيها وبذلها للجهد؟

(٢) عدِّدْ بعض الأعمال التي تقوم بها النملة .

(٣) ماذا نتعلَّم من النملة؟

(٤) لماذا تجمع النملة طعامها في الصيف؟

(٥) هل تستطيع أن تحكي لإخوتك قصة تحثُّ على الاجتهاد وترك الكسل؟

*** ضَعْ كلمةً مناسبةً مما يلي مكان النقط :**

(أرضى ، العمل ، بالأمل ، نعم)

طال سعيي . . . . .　　　لستُ . . . . . بالكَسَلْ

إنني . . . . . المثلْ　　　باجتهادي في . . . . .

(٤) في السوق

*** الأسئلة:**

(١) ماذا تشتري من السوق؟

(٢) عدِّدْ ثلاثة أنواع من الفواكه.

(٣) ما صفات الحذاء الذي يشتريه لك أبوكَ؟

(٤) بِمَ يتصف البائعُ المسلم؟

(٥) اذكر حديثاً نبوياً يُحرِّم الغش.

*** صحِّح الخطأ في الجمل التالية:**

ـ يشتري سعيد الموزَ من عند تاجر الأقمشة.

ـ نتلقى الدروس في المدرسة من الآباء.

ـ المطاعم في المدينة قليلة.

(٥) الطائر

*** الأسئلة:**

(١) هل يحب الطائرُ البقاء محبوساً في القفص؟

(٢) ما غاية الطائر وما مطلبه؟

(٣) أين يطيبُ العيشُ للطائر؟

(٤) ضع عنواناً للنص.

(٥) ما الحكمة التي نطق بها الطائر؟

*** مَنْ أنا؟**

- أطير في الفضاء ، وأحبُّ العيش في الغابات والبساتين ، وصوتي جميل.
- تتلقّون مني الدروس المفيدة ، فتزدادون علماً وفهماً.
- تحضرون إليَّ كل صباح لتأخذوا العلم ، وتتزودوا بالثقافة النافعة.

(٦) نزهة وطبخ

*** الأسئلة :**

(١) ما اسم يوم العطلة في المكان الذي تتعلَّم فيه؟

(٢) ماذا تفعل في النزهة؟

(٣) اذكر بعض الحاجيات التي يأخذها الناسُ معهم في نزهتهم.

(٤) لماذا يتنزَّه الناس؟

(٥) يتعاون الناسُ في النزهة. ماذا تحبُّ أن تعملَ في نزهتك مع أهلك؟

*** اختر من العمود الأيسر ما يناسب كل عبارة من العمود الأيمن :**

نخرج إلى البستان	فأكلنا برغبة
أخذنا معنا	نزور بعض الآثار
اشتهينا الطعام	من أجل النزهة
خرجنا بعد الصلاة	الرز واللحم والخضراوات

(٧) من يمنعك مني؟

*** الأسئلة:**

(١) عرِّف الغزوة.

(٢) أين نام رسولُ الله ﷺ؟

(٣) ماذا فعل المشرك؟

(٤) علامَ تدلُّ إجابةُ النبي ﷺ للمشرك؟

(٥) بعد صَفْح رسول الله ﷺ عن المشرك، ماذا قال ذاك الرجل؟

*** أكمل الجمل التالية بكلماتٍ من النص:**

- ليس في . . . . مكان يستريح فيه الإنسانُ إلا الشجر.
- قال المشرك: أعاهدك على أن لا . . . .
- أتى المشرك أصحابه فقال: جئتكم من عند . . . . الناس.

(٨) سفر القطار

*** الأسئلة:**

(١) هل سافرت في القطار يوماً ما؟

(٢) صِفْ قطاراً شاهدته.

(٣) من يحمل الحوائج في محطة القطار؟

(٤) عدِّد بعضاً من فوائد القطار.
(٥) من يعطي الإشارة للقطار بالتحرك والمسير؟
*** رتب كلمات كل سطر مما يلي لتكون جملة مفيدة:**
ـ قبل ، استيقظتُ ، أنتظر ، السَّحَر ، السفر ، ساعة ، وبقيتُ.
ـ الحمَّالون، وصلنا، المحطة، المتاع، إلى، فأخذ، والحوائج.
ـ أصدقائي ، وصلتُ ، قريتي ، وقابلت ، إلى ، وأقاربي.

(٩) ماذا تحب أن تكون؟

*** الأسئلة:**
(١) ماذا تحب أن تكون في المستقبل؟
(٢) هل تكفي الأمنية لبناء مستقبل الإنسان ، أم لا بد من اقترانها بالعمل والاجتهاد؟
(٣) كيف نشكر الله تعالى على نعمه الكثيرة؟
(٤) اذكر حديثاً نبوياً يذكر الحسدَ الذي لا يضرُّ.
(٥) ضع عنواناً آخر مناسباً للنص.
*** أكمل الجمل التالية بكلمات مناسبة:**
ـ أحب أن أكون .... فأداوي .... مجاناً.
ـ أحب أن أكون .... آمر .... وأنهى عن .....
ـ سأجتهد أن أخدم .... بمالي ، وأبتغي .... مرضاة .....

(١٠) مسابقة

*** الأسئلة:**

(١) ماذا اختار مُعلِّم الرياضة؟ ولماذا؟

(٢) ما الصفة التي تجمع بين الطلاب الذين اختارهم المعلِّم؟

(٣) ماذا وضع المعلِّم في آخر ميدان السباق؟

(٤) ما يتوجب على المسلم لبناء جسمه؟

(٥) عدِّد ثلاث فوائد للرياضة.

*** ضع أسئلة للإجابات التالية:**

- أوقف المعلِّم الطلاب في صفوف صفاً خلف صف.
- قال المعلم: استعدوا للسباق.
- قال الطلاب للفائز الأول: مرحى، مرحى.
- ينبغي للمسلم أن يكون نشيطاً حتى لا يعجز عن الجهاد.

(١١) الساعة

*** الأسئلة:**

(١) اذكر ثلاثة أقسام تتألف منها الساعة.

(٢) ما فوائد الساعة؟

(٣) كيف يعرف المسلم أوقات الصلوات والجماعة؟

(٤) علام يدلُّ العقرب الكبير الموجود في الساعة؟

(٥) ضَعْ عنواناً آخر مناسباً للنص.

*** إحدى العبارتين التاليتين صحيحة والأخرى خطأ، أشر بكلمة صح للعبارة الصحيحة:**

ـ بالساعة يعرف التلميذ ميعاد المدرسة.

ـ الساعة غالية الثمن لا يستطيع أحدٌ أن يشتريها.

(١٢) الفطور

*** الأسئلة:**

(١) ما اسم الشهر الذي يصوم الناسُ فيه؟

(٢) كيف يمكن للأهل أن يُرغِّبوا أطفالهم بصوم رمضان؟

(٣) لماذا يتسحَّر الناسُ؟

(٤) على ماذا يُفْطِر الصائم؟

(٥) اذكر الدعاء الذي يقوله الصائم عند إفطاره.

*** استخدم الكلمات التالية في جُمل مفيدة:**

رمضان، الصبر، السُّحُور، الظمأ، الأجر

(١٣) الأمانة

*** الأسئلة:**

(١) ماذا فعل صاحب العمل بأجرة العامل الذي لم يأخذ أجره؟

(٢) بِمَ أجاب صاحب العمل الأجير الذي عاد وطالبه بحقّه؟

(٣) ما الدرس الذي تستخلصه من قصة صاحب العمل والأجير؟
(٤) ما ثمرات الأمانة ، وما نتائجها على الفرد والمجتمع؟
(٥) ما أثر الدعاء في تفريج الكربات والأزمات؟
*** ضع المحذوف فيما يلي:**
ـ كان الرجل . . . . .
ـ يا عبد الله لا . . . . . بي .
ـ أجاب الله . . . . .

(١٤) الصيد

*** الأسئلة:**
(١) عدِّد الحاجيات التي أخذها الصيادون معهم .
(٢) ماذا صاد إسماعيل؟
(٣) الذي يذبح بهيمةً ماذا يقول؟
(٤) لمن أُهْدِي اللحم؟
(٥) ضَعْ عنواناً آخر للنص .
*** استخرج من المقطع الأول حالاً ، واذكر صاحبه .**

(١٥) مأدبة

*** الأسئلة:**
(١) متى يحج الناس إلى بيت الله الحرام؟
(٢) لماذا صنعت الأم مأدبة الطعام؟

(٣) عدِّد أنواع الطعام الموجود على المائدة.

(٤) ماذا يقول الذي يشبع من طعامه؟

(٥) ماذا قال الضيوف بعد أن أكلوا؟

*** أدخلْ على كلٍّ من الجمل التالية فعلاً ناقصاً:**

ـ .... أبي يرحِّب بالضيوف.

ـ .... الماءُ ثلجاً.

ـ .... نُقدِّم الخبز والطعام.

(١٦) بر الوالدين

*** الأسئلة:**

(١) ما العمل الذي كان يمارسه الرجل البارّ بوالديه؟

(٢) عاد الرجل مساءً ووجد والديه نائمين. ماذا قال في نفسه؟

(٣) لِمَ لَمْ يسقِ الرجل أطفاله الجياع من اللبن؟

(٤) ماذا حَدَث مع الرجل في الغار؟

(٥) كيف أعان اللهُ تعالى الرجل البار وقد سُدَّ عليه الغار؟

*** في المقطع الثاني مثنى، استخرجه، واذكر مفرده، ثم ضعه في جملة مفيدة.**

(١٧) فضيلة الشغل

* **الأسئلة:**

(١) لماذا جاء الرجل إلى النبي ﷺ؟

(٢) كيف ساعد النبيُّ ﷺ الرجلَ؟

(٣) إلى أي شيء دعا النبيُّ ﷺ الرجلَ؟

(٤) ما رأيك: العمل أفضل أم سؤال الناس؟ ولماذا؟

(٥) كيف نقضي على ظاهرة التسوُّل؟

* **املأ الفراغات التالية بالكلمة المناسبة مستعيناً بالنص:**

قال رسول .... ﷺ: «هذا .... لكَ من أن تجيء .... نُكتةً في .... يوم .....

(١٨) ترنيمة الولد في الصباح

* **الأسئلة:**

(١) من خَلَق الشمس والليل والنهار؟

(٢) ما واجبنا تجاه نِعَم الله الكثيرة؟

(٣) ما السبيل الأقوم لشكر الله تعالى وحمده؟

(٤) ما الغاية الحقيقية من وجود الإنسان في هذه الأرض؟

(٥) الله يحمي الإنسان ويصونه. أين تجد هذا المعنى في الأبيات؟

* **أكمل البيتين التاليين :**

.... قــــد أجــــارنــــي   مـن كـل .... فـي الظـلامِ
.... لــه قــد صــانـنــي   .... لــه علــى الــدوامِ

(١٩) أصدقائي

* **الأسئلة :**

(١) اذكر أسماء أربعة أصدقاء لك .
(٢) إذا رأيت صديقين متخاصمين ، فماذا تفعل؟
(٣) ما الصفات التي تحبها في صديقك؟
(٤) متى تزور أصدقاءك؟
(٥) ما المقياس الأساس الذي تتعامل وَفْقه مع أصدقائك؟

* **اجمع الكلمات التاليـة ، ثم ضَعْ كل كلمـة في جملة مفيدة :**

الصديق ، الامتحان ، الحكاية ، النَّاحبة ، الصلاة .

(٢٠) قريتي

* **الأسئلة :**

(١) بم شبَّه الكاتب القرية الجميلة؟
(٢) ماذا يوجد في قعر النهر؟
(٣) السباحة ضرورية . أين تجد هذا المعنى في النَّصِّ؟
(٤) ماذا حَدَثَ عندما تعرضت القرية للفيضان؟

(٥) أين يقع المسجد القديم؟

*** هات مفردات الكلمات التالية ، ثم ضعها في جُمل مفيدة:**

بساتين ، السمك ، صغار ، أمطار ، البيوت

(٢١) ترنيمة الليل

*** الأسئلة:**

(١) ما صفة الفراش الذي تنام فيه؟

(٢) ماذا تقول لوالديك عندما يحين وقت النوم؟

(٣) من يحمي الناس في النوم واليقظة؟

(٤) ما الفرق بين الليل والنهار؟

(٥) متى يستيقظ الإنسان ليؤدي صلاة الفجر؟

*** أكمل البيتين التاليين:**

نَمْ آمناً حتى .... من كل .... أو كدرْ

نَمْ في حمى باري.... نَمْ في حِماهُ....

(٢٢) مسابقة بين شقيقين

*** الأسئلة:**

(١) ما اسم الشقيقين المتسابقين؟

(٢) لِمَ أراد الشقيقان أن يقتلا أبا جهل؟

(٣) كيف تتجلى محبة رسول الله ﷺ في حياتنا وسلوكنا؟

(٤) بِمَ شبه الكاتب الشقيقين عندما شدَّا على أبي جهل؟
(٥) أيُّهما قتل أبا جهل؟

* **اذكر مثنى الكلمات التالية، ثم ضع كلاً منها في جملة مفيدة:**

الشقيق ، السيف ، الأخ ، العم ، الأب

(٢٣) جزاء الوالدين

* **الأسئلة:**

(١) من يعتني بشؤون الصغار في المنزل؟
(٢) من يحكي لك القصص الجميلة ، ويتعب كي ترتاح؟
(٣) من يجلب لك الهدايا الجميلة ، ويلاعبك؟
(٤) ما واجبك تجاه والديك؟
(٥) ماذا تقول في دعائك لوالديك؟

* **أكمل الفراغات التالية مستعيناً بالنص:**

سمعتُ أن الولد إذا حفظ .... يُتوَّج .... يوم القيامة ، فسأجتهد في حفظ .... ليتوَّج .... يوم ....

(٢٤) أدب الأكل والشرب

* **الأسئلة:**

(١) ماذا تعرف عن أم سلمة رضي الله عنها؟
(٢) تحدَّث بسطرين عن حياة عمر بن أبي سلمة.

(٣) ما الخطأ الذي ارتكبه الطفل عمر بن أبي سلمة وهو يأكل مع النبي ﷺ؟

(٤) ما التوجيه الذي أرشد إليه ﷺ؟

(٥) اذكر ثلاثة آداب لتناول الطعام.

*** ضعْ حرف الجر المناسب في الفراغات التالية:**

. . . حذيفة رضي الله عنه قال: إنَّ النبي ﷺ نهانا . . . الحرير والديباج، والشرب . . . آنية الذهب والفضة. وقال: هي لهم . . . الدنيا، وهي لكم . . . الآخرة.

(٢٥) شر وخير

*** الأسئلة:**

(١) ما خير الخصال التي يتصف بها الإنسان؟

(٢) اذكر ثلاث صفات ينبغي أن يتصف بها المرءُ العاقل؟

(٣) بِمَ شبَّه الشاعرُ العمرَ؟ وهل أعجبك هذا التشبيه؟ ولماذا؟

(٤) ما الأمور التي يجدر بالإنسان أن يعجل كي يفعلها؟

(٥) اذكر حديثاً نبوياً يدلُّ على ضرورة التمسك بحُسْن الخُلُق.

*** اجعل كل كلمة من الكلمات التالية مبتدأ، وضَعْ لها الخبر المناسب:**

شر، خير، العقل، المال، الأخلاق

(٢٦) يوم مطير

*** الأسئلة :**

(١) ماذا يحدث بعد نزول المطر؟

(٢) بِمَ تحمي نفسك من المطر وأنت تسير في الشارع؟

(٣) اذكر أربع فوائد للمطر .

(٤) هل يتنزه الناس يوم المطر؟ ولماذا؟

(٥) ماذا يقول الإنسان إذا نزل المطر بعد طول انقطاع؟

*** ضع حرف العطف المناسب في الفراغات التالية :**

كانت الأمطار كثيرة . . . قد فاضت أنهارٌ . . . جاء السيلُ . . . تهدمت بيوت عديدة .

(٢٧) البريد (١)

*** الأسئلة :**

(١) ماذا نكتب على غلاف الرسالة التي نرسلها للأقارب والأصدقاء؟

(٢) أين نضع الرسالة لتصل إلى أصحابها؟

(٣) من يأخذ الرسائل من صندوق البريد ويوزعها على الناس المعيّنين؟

(٤) ما فائدة الرسائل؟
(٥) هل كتبت يوماً ما رسالةً؟ ولماذا؟

*** ميِّز بين الفعل الماضي والفعل المضارع فيما يلي:**

لا تعجلْ يا أخي! أنا أخبركَ بخبر الكتاب ، إذا وصل الكتاب إلى مكتب البريد يُفْرَزُ ، ويُخْتَمُ هنالك أيضاً حتى يُعْرَفَ متى وَصَل الكتابُ ، وبعد ذلك يأخذُه الساعي ، ويحمله إلى أخي.

(٢٨) البريد (٢)

*** الأسئلة:**

(١) صِفْ شكل ساعي البريد.
(٢) من يوزّع البرقيات؟
(٣) كيف تُوزَّع الرسائل في جميع أنحاء المدينة؟
(٤) من أين يأتي مكتب البريد بالأموال؟
(٥) ما شعورك إذا وصلتك رسالة من قريب لك مسافر؟

*** استخرج الأفعال الخمسة من الجُمل التالية:**

- الناس ينتظرون ساعي البريد ، ويشتاقون إليه.
- الناس يرسلون البرقية لتصل سريعة.
- رجال البريد يرتدون حُلَلاً ، ويحملون حقائب ، ويركبون دراجات.

(٢٩) من يضع الحجر؟ (١)

* **الأسئلة :**

(١) إلى أين يتوجه الناس في الصلاة ، ويطوفون في الحج؟

(٢) مَنْ بنى الكعبة؟

(٣) لِمَ اختصمت قريش في وضع الحجر الأسود في محله؟

(٤) ماذا صنعت قريش بعد اشتداد الخلاف فيما بينها؟

(٥) كيف تحلُّ خصومة وقعت بين اثنين؟

* **استخرج الفاعل من المقطع التالي :**

الكعبة أول بيتٍ وُضِع للناس لعبادة الله ، بناها إبراهيمُ خليلُ الله في مكة ، وفيها حجرٌ أسودُ يُقبِّله الناسُ في الحج ، وكان النبيُّ ﷺ يُقبِّله .

(٣٠) من يضع الحجر؟ (٢)

* **الأسئلة :**

(١) كم ليلة دام الخلاف في قريش؟

(٢) ماذا قال العقلاءُ لحَسْم الخلاف؟

(٣) من كان أول داخل على قريش؟

(٤) كيف حلَّ رسولُ الله ﷺ الخلافَ بين قريش؟

(٥) مَنْ حمل الحجر الأسود ، ووضعه في مكانه؟

*** بيِّن سبب تذكير العدد فيما يلي :**

مكثت قريش أربع ليالٍ أو خمساً ، ثم إنهم اجتمعوا في المسجد ، وتشاوروا .

(٣١) يوم العيد

*** الأسئلة :**

(١) لِمَ اجتمع الناسُ والأطفال عند الغروب؟

(٢) بأي شيء دعا الآباء والأمهات لأولادهم؟

(٣) ماذا فعل الأطفالُ صباح العيد؟

(٤) ما موقف سعيد من الولد اليتيم؟

(٥) ماذا قال الناس عندما ذكروا رمضان والتراويح؟

*** حدِّد الصفة والموصوف في العبارات التالية :**

- لبس كثيرٌ من الأطفال ملابسَ جديدةً ، وأحذيةً متينةً ، وقلانِسَ جميلةً .
- لم يكن عند اليتيم لباسٌ جديدٌ ، ولا حذاءٌ جديدٌ ، ولا قلنسوةٌ نظيفةٌ .
- شعروا كأنهم فقدوا شيئاً جميلاً ، أو ضاع منهم شيءٌ عزيزٌ .

(٣٢) شهادة اليتيم

*** الأسئلة :**

(١) أين يقع المسجدُ النبوي؟

(٢) إلى أيِّ شيء دعا رسولُ الله ﷺ الناسَ؟

(٣) كيف واجه المسلمون عذاب المشركين؟

(٤) اذكر مراحل بناء المسجد النبوي في المدينة المنورة؟

(٥) مَنْ وسَّع المسجد النبوي؟

*** حدِّد الخبر فيما يلي :**

إنَّ المسجدَ لازمٌ للمسلمين ، وهو قطبٌ يدور حوله رحى الحياة الإسلامية .

(٣٣) كسرة من الخبز

*** الأسئلة :**

(١) أين ينبت القمح؟

(٢) بأيِّ شيء يحصد الفلاح سنابل القمح الصفراء؟

(٣) أين يُطحن القمح؟

(٤) أين يُخبز الدقيق المعجون بالماء؟

(٥) ماذا تقول إذا شبعتَ؟

* استخرج الضمائر المتصلة فيما يلي:

ـ جاء رجالٌ يحملون المناجل فحصدوا، وحملوا.

ـ أخذني الخباز، ووضعني في معجنة، وغمرني بالماء النقي.

(٣٤) عيادة المريض

* الأسئلة:

(١) لِمَ لَمْ يأتِ حسين إلى المدرسة؟

(٢) على أي شيء عزم حامد؟

(٣) بأي شيء أُصيب حسين؟

(٤) ماذا يقول زائر المريض للمريض؟

(٥) كيف نتخلص من المرض؟

* أشرْ إلى المفعول به في الجُمل التالية:

ـ حضر الطبيبُ فجسَّ يدَ حسين، وقاس الحرارةَ، وامتحنَ الصَّدرَ بالسماعة.

ـ أبدى الارتياحَ، وغيَّر الوصفةَ، وأوصى حُسَيناً بالحِمْية.

(٣٥) الكيمياء

* الأسئلة:

(١) كيف علَّم الأبُ أولاده الكيمياء؟

(٢) هل صحيح أن علم الكيمياء يُحوِّل الترابَ ذهباً؟
(٣) ما تعريف الكيمياء من وجهة نظر الأب؟
(٤) ما فضل هداية الناس، وتعليمهم ، ووعظهم ، وإرشادهم؟
(٥) ما أغلى شيء في الوجود؟

*** حدِّد المبتدأ والخبر فيما يلي:**

ـ الإنسانُ أغلى شيء في الوجود.
ـ تثقيفُ الإنسان وإصلاحُه أفضلُ من تحويل التراب ذهباً.

(٣٦) يوم صائف

*** الأسئلة:**

(١) ماذا يتخذ الناسُ في الصيف ليدفعوا الحرَّ عن أنفسهم؟
(٢) هل سكان الأكواخ أنعم في الصيف من سكان القصور؟ ولماذا؟
(٣) إلى أين يسافر الأغنياء في فصل الصيف؟
(٤) ماذا يحسُّ الإنسانُ عند اشتداد الحر؟
(٥) عدِّد أسماء بعض الفواكه التي تنضج في الصيف.

*** استخدم الكلمات التالية من خلال أسلوب التعجب ، على شاكلة العبارة الأولى:**

ـ ما أشدَّ الحر!

(الصيف ، الخوف ، الجمر ، القصور ، الجنَّة)

(٣٧) النظافة

* **الأسئلة:**

(١) ما صفاتُ طاهر ابن الفلاح؟

(٢) من أي شيء يخجلُ طاهر؟

(٣) كيف يحافظ طاهر على وقته؟

(٤) كم مرة يغتسل طاهر في الصيف والشتاء؟

(٥) كيف تحافظ على النظافة؟

* **استخرج من العبارات التالية الحرف المشبه بالفعل، واذكر اسمه وخبره:**

ـ لكنَّ طاهراً ولدٌ مُدبِّر عاقل.

ـ إنه غنيٌّ.

ـ كأنه شمسٌ في النظافة والتألق.

(٣٨) الحنين إلى الشهادة (١)

* **الأسئلة:**

(١) كم كان عُمر عمير بن أبي وقاص عندما خرج ﷺ إلى غزوة بدر؟

(٢) لِمَ خاف عميرٌ ألا يقبله النبي ﷺ بين المجاهدين؟

(٣) إلى أي شيء كان يحنُّ عمير؟

(٤) كيف استطاع عمير أن يشارك في المعركة؟
(٥) ما مصير عمير في غزوة بدر؟

*** املأ الفراغات التالية بالكلمة المناسبة مستعيناً بالنص:**

خرج . . . مع أخيه ومع . . . وكلهم كبار . . . وكان كما أراد ، فقد قُتِل . . . في الغزوة ، وسبق . . . من . . . و . . . .

(٣٩) الحنين إلى الشهادة (٢)

*** الأسئلة:**

(١) لِمَ ردَّ رسولُ الله ﷺ الذين لم يتجاوزوا الخامسة عشرة من عمرهم؟
(٢) كيف استطاع رافع بن خديج أن يشارك في غزوة أحد على الرَّغم من صغر سنه؟
(٣) ما شعورُ رافعٍ عندما قُبِل مجاهداً بين المجاهدين؟
(٤) ما وجهُ اعتراضِ سمرة بن جندب؟
(٥) كيف أجاز رسولُ الله ﷺ سمرة ، وسمح له بالاشتراك في القتال؟

*** استخدم «يا» حرف النداء قبل الكلمات التالية، واضبط بالشكل:**

رسول الله ، ولد ، سَمُرة ، جهاد ، عبد الله

(٤٠) كن أحد السبعة (١)

*** الأسئلة :**

(١) تعجب محمود من شدة الحر ، فماذا قال؟

(٢) كم تبعد الشمس عن الأرض؟

(٣) متى تدنو الشمس من الناس بمقدار ميل؟

(٤) كيف يكون الناسُ في العرق يوم القيامة؟

(٥) من هم السعداء يوم القيامة؟

*** سمِّ الخلفاء الراشدين الأربعة ، وأوَّلهم :**

ـ أبو بكر الصديق

ـ . . . .

ـ . . . .

ـ . . . .

(٤١) كن أحد السبعة (٢)

*** الأسئلة :**

(١) عدِّد السبعة الذين يظلهم اللهُ في ظله يوم القيامة .

(٢) أتصلي صلواتك في البيت أم في المسجد؟ ولماذا؟

(٣) كيف تدخل تحت قوله ﷺ : «ورجلان تحابا في الله»؟

(٤) كيف تساعد فقراء حيِّك؟

(٥) هل تتعاون مع أصدقائك لحضور دروس الوعظ والإرشاد؟

*** استخرج الأفعال المضارعة من الجُمل التالية:**

ـ نجتهد جميعاً أن نكون شباناً نشؤوا في عبادة الله تعالى.

ـ نحاول جهدنا أن نفعل الخير، ونحظى برضا المولى سُبحانه.

(٤٢) العين (١)

*** الأسئلة:**

(١) ما فوائد العين؟

(٢) اذكر ثلاثة أقسام تتألف منها العين.

(٣) ما فائدة الأهداب؟

(٤) كيف نحافظ على العين؟

(٥) لِمَ كان الوضوءُ نافعاً ومفيداً؟

*** استخرج الصفة من العبارتين التاليتين:**

ـ مواصلةُ القراءةِ المستمرةِ ليلاً في النورِ الضَّعيفِ تؤثر في النظر تأثيراً كبيراً، وتضرُّ به ضرراً عظيماً.

ـ العينُ جوهرةٌ غاليةٌ، وهي عضوٌ مفيدٌ في الجسمِ الإنساني.

(٤٣) العين (٢)

*** الأسئلة:**

(١) اذكر حديثاً نبوياً يُبيِّن عظم ثواب من فَقَد نور عينيه.

(٢) عدد بعض أسماء العميان المتفوِّقين في العالم القديم والحديث.

(٣) ما حقُّ نعمة العين على الإنسان؟

(٤) تعوَّذ ﷺ من العين التي لا تدمع. فماذا قال؟

(٥) الله تعالى يعلم خائنة الأعين. اذكر آيةً في ذلك.

*** أكمل الفراغات التالية بالكلمة المناسبة مستعيناً بالنص:**

قال رسولُ الله ﷺ: «ليس شيءٌ أحبَّ إلى ... من... و... قطرة دموع من ... الله، وقطرة دم ... في سبيل الله. وأما الأثران: فأثر في سبيل ...، وأثر في ... من فرائض الله».

(٤٤) أدب المعاشرة

*** الأسئلة:**

(١) ما الطريق السليم لمعاشرة الناس؟

(٢) أين يكمن العز والكياسة؟

(٣) ما آداب المجلس بين الناس؟

(٤) كيف يكون الكلام مفيداً؟

(٥) لِمَ يدعو الشاعرُ الناس إلى ترك الإلحاح؟

*** أكمل البيتين التاليين:**

اسلـــك مـــع . . . الأدبْ   تَـــرَ مـــن الـــدهـــر . . .

ولا تكـــــــــن . . .   واجتنـــــــــب . . .

(٤٥) عيد الأضحى

*** الأسئلة:**

(١) ماذا تقول إذا رأيتَ الهلال؟

(٢) في أي يوم وأي شهر يكون عيد الأضحى؟

(٣) ماذا يفعل الحجاج يوم عرفات؟

(٤) ماذا يفعل الإمام في صلاة عيد الأضحى؟

(٥) ماذا يصنع الناس في العيد؟

*** استخرج المضاف إليه في المقطع التالي:**

كنتُ أسمع الإمامَ من فجر يوم عرفةَ إلى عصر اليومِ الأخير من أيام التشريقِ، يعني: الثالث عشر من ذي الحجةِ يَكبِّر ويُهلِّل دُبُر كل صلاةٍ مكتوبة.

(٤٦) تاريخ القميص

*** الأسئلة:**

(١) اذكر مراحل صناعة القميص؟

(٢) كيف يخدم الفلاحُ الحقل؟

(٣) إلى أين يُرسَلُ القطن بعد جَمْعه؟

(٤) من يخيط القميص؟

(٥) ماذا تقول إذا لبستَ قميصاً؟

*** هات مفردات الجموع التالية:**

العاملون ، الأراضي ، الخطوط ، الأولاد ، المصانع

(٤٧) الأسد

*** الأسئلة:**

(١) مَنْ ملك الغابة وسيِّد السباع؟

(٢) صف الأسد بسطرين.

(٣) كيف يثب الأسدُ على فريسته؟

(٤) ما اسم أنثى الأسد؟

(٥) ما معدل ما يعيش الأسد؟

*** استخرج التمييز من الجملتين التاليتين:**

ـ اللبؤة أصغرُ جثةً من الأسد، وأخفُّ حركةً، وأشدُّ غضباً منه.

ـ الأسدُ أكثرُ شجاعةً في الليل.

(٤٨) غرور الدنيا

*** الأسئلة:**

(١) من هو الماجد؟

(٢) بِمَ وصف الشاعرُ الدنيا في البيت الرابع؟

(٣) من يشقى ويتعب في الدنيا؟

(٤) من يحظى بالدنيا؟

(٥) كيف نستفيد من الدنيا لخير الآخرة؟

*** أكمل البيتين التاليين:**

تقـــولُ ليـــس . . . .   إلا . . . . الـــزاهـــدُ

فمـــا أعـــزَّ مَـــنْ . . . .   ومـــا أذلَّ مـــن . . . .

(٤٩) رسالة إلى رسول الله ﷺ

*** الأسئلة:**

(١) شبَّه الكاتبُ الموت بجسر موصل إلى الآخرة. ما موطن الجمال في هذا التشبيه؟

(٢) ماذا قال رسولُ الله ﷺ في فتح الشام؟

(٣) جُنْدُ الله تعالى هم المنصورون. اذكر آيةً قرآنية تؤكِّد هذا المعنى.

(٤) ما الحاجة التي طلبها أبو عبيدة من الذي هيَّأ نفسه للشهادة؟

(٥) اكتب رسالة لا تتجاوز ثلاثة أسطر تؤكد فيها عزمك على الاجتهاد والاستقامة.

*** اجعل كلاً من الكلمات التالية في جملتين؛ على أن تكون في الأولى ظرفاً وفي الثانية غير ظرف:**

ساعة ، شمال ، عشاء ، وسط

(٥٠) حادثة

*** الأسئلة:**

(١) لِمَ كلَّتْ عضد الرجل ، وخارتْ قواه؟

(٢) ماذا فعل الرجل عندما أحسَّ أنه يغرق؟

(٣) كيف أُنقِذ الغريق؟

(٤) كيف أُخْرِج الماء من بطن الرجل بعد إنقاذه؟

(٥) ما العبرةُ المستفادة من الدرس؟

*** بيِّن المنادى فيما يلي:**

ـ يا رجلاً خُذْ بيدي.

ـ يا أيتها النفس المطمئنة.

ـ يا غارقاً في هَمِّه   ماذا تفيدُ من الألمْ؟!

(٥١) فتى الإسلام

*** الأسئلة :**

(١) إلى أي شيء يطمح الشاب المسلم؟

(٢) اذكر ثلاث صفات لمحمد بن قاسم الثقفي .

(٣) ما البلاد التي فتحها محمد الثقفي؟

(٤) ماذا صنع أهلُ الهند لمحمد الثقفي؟

(٥) كم كان عمرُ محمد الثقفي عندما فتح السند؟

*** هات أضداد الكلمات التالية :**

أقصى ، قَتَل ، الكبيرة ، تعرف ، عَلَتْ

(٥٢) الرماية

*** الأسئلة :**

(١) عدِّد بعض أسماء الطيور .

(٢) ماذا اشترى الأبُ لابنه؟

(٣) كيف يعرف الرامي أنه أصاب هدفه؟

(٤) حثَّ رسولُ الله ﷺ على الرمي ، فماذا قال؟

(٥) هل تحب أن تتعلَّم الصيد؟ ولماذا؟

*** بيِّن المفعول المطلق فيما يلي:**

ـ سُرِرتُ سروراً عظيماً.

ـ ترفَّعتُ عن الصغائر ترفُّعاً.

ـ أبلى الجنودُ بلاءً حسناً.

(٥٣) الجمل (١)

*** الأسئلة:**

(١) هل للجمل مثيل في خِلْقته وشكله؟

(٢) لِمَ كان رأسُ الجمل صغيراً؟

(٣) في أرجل الجمل خفاف. ما فائدتُها؟

(٤) أين يخزن الجملُ الماءَ؟

(٥) إذا فرغ مخزونُ الماء في جوف الجمل، كيف يشرب ويتغذى؟

*** ضع فعلاً مناسباً في المكان الخالي مستعيناً بالنص:**

ـ . . . القَتَبُ على سنام الجمل.

ـ . . . الجملُ على الكلكل.

ـ . . . الجملُ مقداراً عظيماً من الغذاء في معدته.

(٥٤) الجمل (٢)

*** الأسئلة:**

(١) ما صفة الصحارى القاحلة؟

(٢) لماذا تصبرُ الجمال على الجوع والعطش؟

(٣) عدِّد بعض فوائد الجمل.

(٤) متى يثور الجمل؟

(٥) متى يقول الناسُ: إن الجمل صائم؟

*** عيِّن الفعل اللازم والمتعدي فيما يلي:**

ـ يتحمل الجملُ كثيراً من الأذى بالصبر.

ـ يثور الجملُ متى بلغ الأذى شدة عظيمة.

ـ في الصحارى القاحلة لا ترى قطرة ماء.

ـ يسير الناسُ في الصحارة مجتمعين.

(٥٥) أنا هنا فاعرفوني

*** الأسئلة:**

(١) كم يشغل الماء بالنسبة لليابسة في الكرة الأرضية؟

(٢) كيف يتشكل السحاب؟

(٣) ما الفرق بين البَرَد، والثلج، والجليد؟

(٤) ما هو الشلاَّل؟

(٥) عرِّف الندى.

*** ضَعْ حرف العطف المناسب بين كل معطوف ومعطوف عليه في الجُمل التالية:**

ـ أورقت الشجرة . . . أزهرت.

ـ جمدت القطرات من البرد . . . وقعت على الأرض.
ـ يكون الشلاَّلُ في مبدئه صغيراً . . . يكون عريضاً عميقاً.

(٥٦) سفينة على البر

* **الأسئلة:**

(١) كم مرة غزا العربُ القسطنطينية؟
(٢) أمر اللهُ تعالى بإعداد القوة. اذكر آية قرآنية تبين ذلك.
(٣) ما العدة التي هيَّأها محمد الثاني العثماني؟
(٤) كيف سيَّر محمد الثاني السفن على البر؟
(٥) في أي سنة سقطت القسطنطينية بأيدي المسلمين؟

* **ضَعْ أداةً مناسبةً من أدوات الاستفهام في المكان الخالي:**

ـ . . . دُحِر الفرنجة في القسطنطينية؟
ـ . . . تنجح في مهمتك؟
ـ . . . كان عمر محمد الثاني عندما فتح القسطنطينية؟

(٥٧) الخليفة عمر بن عبد العزيز (١)

* **الأسئلة:**

(١) متى وُلد عمر بن عبد العزيز؟
(٢) ما اسم المشية التي كان يمشيها عمر بن عبد العزيز؟
(٣) ما موقف عمر بن عبد العزيز من العلم والعلماء؟

(٤) اذكر بعضاً من الأعمال التي اشتهر بها عمر بن عبد العزيز .

(٥) اذكر قصة حدثت لعمر بن عبد العزيز تتحدث عن تواضعه؟

*** اجعل الخبر المفرد جملةً فيما يلي :**

ـ الطالب مجتهد .

ـ عمر بن عبد العزيز عادلٌ .

ـ الرجل عاكفٌ على القراءة .

(٥٨) الخليفة عمر بن عبد العزيز (٢)

*** الأسئلة :**

(١) عندما أُتي عمر بن عبد العزيز بسلَّتي رُطَب . ماذا فعل؟

(٢) لِمَ كان عمر بن عبد العزيز يدعو بسراجه عندما يكون في حاجة نفسه؟

(٣) قيل : أغنى عمر بن عبد العزيز الناس . كيف كان ذلك؟

(٤) حافظ عمر بن عبد العزيز على الوقت ، فماذا قال؟

(٥) متى توفي عمر بن عبد العزيز؟

*** اجعلْ كلَّ اسم من الأسماء التالية مبتدأ ، وأخبرْ عنه :**

عُمَر ، رُطَب ، بريد ، ليلة ، الناس

(٥٩) في بيت أبي أيوب الأنصاري

*** الأسئلة :**

(١) أين نزل رسولُ الله ﷺ في بيت أبي أيوب؟

(٢) انكسر حُبُّ الماء ، فماذا فعل أبو أيوب وزوجتُه؟

(٣) لِمَ ردَّ ﷺ العَشَاء؟

(٤) كان أبو أيوب وزوجته يتتبعان موضع يده ﷺ في قصعة الطعام. لماذا؟

(٥) لِمَ أحبَّ الصحابةُ رسولَ الله ﷺ؟

*** اجعل المفعول به في الجمل التالية نائب فاعل ، وغيِّر صيغة الفعل وَفْقاً لذلك :**

ـ كسر الرجلُ الجرَّةَ.

ـ نسجت المرأةُ الغزلَ.

ـ صنعت أم أيوب العَشَاء.

(٦٠) الإمام مالك بن أنس

*** الأسئلة :**

(١) متى وُلد مالك بن أنس؟ وأين؟

(٢) كان لمالك بن أنس شأنٌ عظيم في العلم. اشرح ذلك.

(٣) قيل : لا يُفْتَى ومالك في المدينة. علام يدلُّ ذلك؟

(٤) عدِّدْ بعضاً من صفات مالك بن أنس.

(٥) ما اسم الكتاب الذي عُرِف لمالك بن أنس؟

*** استخرج مما يلي الأسماء الممنوعة من الصرف:**

- سمعتُ من شعراءَ كبارٍ قصائدَ جميلة.
- وضع سعيدٌ ملابسه في حقائبَ كبيرة.
- سلَّم خالدٌ على يوسفَ.

(٦١) القاطرة (١)

*** الأسئلة:**

(١) لِمَ ذهب رشيد مع أبيه إلى المحطة؟

(٢) من أي شيء صُنِعت القاطرة؟

(٣) ما صفة قطار البضاعة؟

(٤) من أين تستمد القاطرةُ قوتها؟

(٥) ما اسم مخترع القطار؟

*** ثَـنِّ الكلمات التالية:**

الجاهل، قطار، متأخر، خبير، سابق

(٦٢) القاطرة (٢)

*** الأسئلة:**

(١) ماذا يُلقى في الموقد؟

(٢) كيف تدور عجلات القطار؟

(٣) ما وظيفة الوقَّاد؟

(٤) ما تعريف المصدّ؟

(٥) عدِّد ثلاث فوائد للقطار.

*** اجمع الكلمات التالية:**

السائق ، البخار ، أنبوب ، آلة ، النار

(٦٣) جسم النبات (١)

*** الأسئلة:**

(١) ماذا يفعل البستاني في الحديقة؟

(٢) لِمَ يزيل البستانيُّ الحشائش من حول الفَسِيل؟

(٣) أين تُغرس الفسائلُ؟

(٤) إلى أي شيء يحتاج النبات؟

(٥) هل يكتفي البستاني بغرس الفسائل ؟ ولماذا؟

*** ميِّز الأسماء المقصورة من المنقوصة من الممدودة فيما يلي:**

وادي ، حِمى ، مستوى ، قاضي ، سماء

(٦٤) جسم النبات (٢)

*** الأسئلة:**

(١) لِمَ يحفر البستانيُّ حول الفَسِيل بحيطةٍ وحذر؟

(٢) ما فائدة الجذور؟

(٣) ما الأجزاء اللازمة للنبات غير الجذور؟

(٤) النبات جسم حيّ نامٍ. اشرح ذلك.

(٥) اذكر ثلاث فوائد للنبات.

*** ميِّـز الأسماء المجردة من المزيدة فيما يلي:**

الأرض، فَسِيل، جذور، شُغل، أوراق

(٦٥) الببغاء

*** الأسئلة:**

(١) لِمَ توهَّم الشاعر أن الببغاء إنسان؟

(٢) الببغاء بكماء، فكيف يصفها الشاعر بأنها سميعة؟

(٣) ماذا يأكل الببغاء؟

(٤) شبه الشاعرُ منقار الببغاء باللؤلؤ. بين موطن الجمال في هذا التشبيه.

(٥) هل رأيت ببغاء؟ وهل أحببته؟ ولماذا؟

*** أكمل البيتين التاليين:**

ألفتُهـــا ... مليحـــةْ نـــاطقـــةً بـــاللغـــة ...

بكمـــاء إلا أنهـــا ... تعيـــدُ مـــا ... طبيعـــةْ

(٦٦) الحجاج والفتية

*** الأسئلة :**

(١) مَنْ وجد صاحبُ الحرس؟

(٢) أوهم السُّكارى صاحبَ الحرس بأنَّ لهم شأناً ، فَبِمَ أوهم كلُّ واحدٍ منهم؟

(٣) مِمَّ تعجب الحجاج؟

(٤) ماذا قال الحجاجُ لجلسائه؟

(٥) ما مصير السُّكارى؟

*** صُغْ اسم فاعل من كلٍّ من الأفعال التالية :**

رَفَع ، خاضَ ، عَلِم ، طاف ، خَرَج

(٦٧) أنا تراب

*** الأسئلة :**

(١) بأي شيء يُضرب المثل بالحقارة والذل؟

(٢) عدِّد منافع التراب .

(٣) من أي شيء يصنع الورق؟

(٤) من أين يُستخرج البترول؟

(٥) لِمَ دعا الشاعر لتخفيف الوطء على الأرض؟

*** صُغْ اسمَ مفعولٍ من كلٍّ من الأفعال التالية :**

وَطَأَ ، أكل ، شرب ، قرأ ، بُعْثِر

(٦٨) الباخرة (١)

*** الأسئلة:**

(١) كيف كان الناسُ يسافرون قديماً؟

(٢) ما فوائد البواخر؟

(٣) شبه الكاتب المسافر في ظلمات البحر كدودٍ على عود، ما رأيك في هذا التشبيه؟

(٤) سمِّ بعض الرَّحَّالة الذين سافروا بالسفن.

(٥) كان السفر عن طريق البحر مخاطرة، لماذا؟

*** استخرج المعارف من الجمل التالية:**

- كان الناسُ يخافون السفر في البحار ويتحامونه.
- هذه السفن الشراعية تسير ثلاثة أميالٍ في ساعة واحدة.
- أوصى سعدٌ أخاه بالسفر عن طريق البحر.

(٦٩) الباخرة (٢)

*** الأسئلة:**

(١) بأي شيء تسير السفنُ الشراعية؟

(٢) ما فوائد إدارة العجلة بالبخار؟

(٣) ما اسم مخترع أول سفينة بخارية؟

(٤) ماذا يُسمَّى قائد السفينة؟

(٥) شبَّه الكاتب المراكب الحديثة كأنها حارة من حارات البلد.
ما رأيك في هذا التشبيه؟

*** بيِّن أحرف الزيادة في كلٍّ من الأفعال التالية:**

توصَّلوا، تقدَّم، ظهرت، تُسخِّرها، صالَحَ

(٧٠) جسم الطيور

*** الأسئلة:**

(١) ما فائدة المنقار للطائر؟

(٢) لِمَ طالت أعناقُ ومناقير الطيور المائية؟

(٣) ما صفة أرجل ومخالب الطيور آكلة اللحوم؟

(٤) ما فائدة المناقير المتقوِّسة والحادة الطرف عند النسور والصقور؟

(٥) لِمَ كانت عظام الطائر رقيقةً جوفاء؟

*** ميِّز فيما يلي أنواع الأفعال الثلاثية الصحيحة والمعتلة:**

وجد، سقى، صَدَق، نضح، شدّ

(٧١ ـ ٧٣) حديث القمر

*** الأسئلة:**

(١) لِمَ نظر هشام إلى القمر؟

(٢) كم يبعد القمر عن الأرض؟

(٣) عدِّد أسماء ثلاثة كواكب.

(٤) من أين يستمد القمرُ النورَ؟

(٥) عرِّف الخسوف والكسوف.

*** رتِّب الكلمات التالية لتصير جملاً مفيدة:**

- الأرض ، القمر ، إلى ، الكواكب ، أقرب ، إن.
- الشمس، الشكل، حول، كروية، الأرض، مستديرة، تدور.
- حال ، بينها ، الشمس ، الأرض ، تنكسف ، وبين ، إذا ، القمر.

(٧٤) الحياة في مدينة الرسول ﷺ

*** الأسئلة:**

(١) ماذا كان يفعل الصحابة إذا سمعوا الأذان؟

(٢) بعد قضاء الصلاة ماذا يصنع المسلمون؟

(٣) تحدَّث عن مجالس الذكر في مدينة الرسول ﷺ.

(٤) من هم القُرَّاء؟

(٥) احفظ قوله تعالى: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾.

*** استعمل الكلمات التالية في جمل مفيدة:**

أَجْر ، العلم ، النبي ، حَسَد ، صَخَب

(٧٥ ـ ٧٧) من النجوم إلى الأرض

*** الأسئلة :**

(١) لِمَ لَمْ يحتج المجتمع الإسلاميُّ الأول إلى سجن يُوْضَعُ فيه السارقون ؟

(٢) كيف كانت العلاقاتُ الاجتماعية بين الناس عند السلف الصالح ؟

(٣) ما صفات الجند في الإسلام ؟

(٤) اذكر أسماء بعض الأعداء الذين حاربوا المسلمين ، وعادَوا الحضارة العربية ؟

(٥) مَنْ حرَّر القدس من سيطرة الصليبيين ؟

*** اكتب أمام كل كلمة مما يلي كلمة واحدة تفيد عكس معناها :**

ـ نام	عكسها	استيقظ
ـ الشقاء	عكسها	. . . .
ـ الذكاء	عكسها	. . . .
ـ الضحك	عكسها	. . . .

(٧٨ ـ ٨٠) المنارة تتحدث

*** الأسئلة:**

(١) لماذا خرج الكاتبُ من مدينة دهلي؟

(٢) ما الأمر العجيب الذي سمعه الكاتب؟
(٣) ما اسم الفاتح الحقيقي للهند ؟ وكيف تمَّ له ذلك؟
(٤) ما الأثر الذي حققه المصلح الشيخ أحمد السرهندي؟
(٥) كيف تفلح الأمة العربية والإسلامية ؟

*** ضع دائرة حول الكسرة في الكلمات التالية :**

خرجتُ يوماً من مدينةِ دهلِي أُروِّحُ نفسِي من صخبِ الأسواقِ ، وعَناءِ الأشغالِ ، وذهبتُ إلى مَنارَةِ قطبِ الدِّينِ خارج دهلِي .

(٨١) عمر بن الخطاب وأم البنين

*** الأسئلة :**

(١) بم اشتهر عمر بن الخطاب؟
(٢) ما قصة المرأة العجوز مع صغارها الجائعين؟
(٣) كيف اكتشف عمرُ حاجة المرأة العجوز؟
(٤) من حمل كيس الدقيق؟ ولماذا؟
(٥) متى ارتسمت البشاشة على وجه عمر بن الخطاب؟

*** اذكر قصة عن ملكٍ عادل .**

(٨٢) الإمام أبو حامد الغزالي

*** الأسئلة :**

(١) متى وُلد أبو حامد الغزالي؟ وأين؟

(٢) ماذا تعلَّم الغزالي في صباه؟
(٣) اذكر ثلاث صفات اشتهر بها الغزالي؟
(٤) سمِّ كتاباً ألَّفه الغزالي.
(٥) متى توفي أبو حامد الغزالي؟

*** ضعْ كلَّ كلمة مما يلي في المكان المناسب لها:**

(النفس، التدريس، الحجة، ختم، الأخلاق، الذكاء)

- اشتغل الغزالي بتزكية ... وتهذيب ...
- وزَّع أوقاته على وظائف من ... القرآن و...
- كان الغزالي شديد ... قوي ...

(٨٣) بين والد جندي وولد فقيه

*** الأسئلة:**

(١) إلى أين خرج فرُّوخ؟
(٢) كم ترك عند زوجته من المال؟
(٣) كيف ربَّت زوجة فرُّوخ ابنها ربيعة؟
(٤) على أي شيء صُرِف المال كله؟
(٥) ماذا قال فرُّوخ عندما علم بأن المال قد أُنفق بأجمعه على تربية ابنه؟

* خُـذْ كلمةً من السطر الأول مع ما يناسبها من السطر الثاني لتكون جملة مفيدة:

رمح تربية كَثُر حلقة

الضجيج وافرة صالحة طويل

(٨٤) رسول المسلمين عند قائد قوّاد الفرس

* الأسئلة:

(١) ما اسم المسلم الذي أرسله سعدٌ رسولاً إلى رستم؟

(٢) ماذا فعل ربعي بن عامر عندما دخل على رستم؟

(٣) قال رستم: ما جاء بكم؟ اذكر إجابة ربعيّ له.

(٤) ما موعود الله لمن قُتِل شهيداً في سبيل الله؟

(٥) المسلمون كالجسد الواحد. اذكر حديثاً نبوياً يوضِّح ذلك.

* أكمل الجمل التالية بكلماتٍ مناسبة من النص:

ـ زُيِّن مجلس رستم بالنمارق ... وزرابي ...

ـ الله ... لنخرج مَنْ شاء من عبادة ... إلى عبادة ...

ـ إنَّ ... يستخفون بالثياب ... ويصونون ...

(٨٥) أدب القرآن

* الأسئلة:

(١) لِمَ مُنِعَ المسلمون من رفع أصواتهم فوق صوت النبي ﷺ؟

(٢) ما ثواب الذين يغضّون أصواتهم عند رسول الله ﷺ؟
(٣) ما موقف المسلمين إن جاءهم فاسقٌ بنبأ ما؟
(٤) ما دور المسلمين إزاء طائفتين من المؤمنين اقتتلوا؟
(٥) عدِّد بعض المنهيات التي أشارتْ إليها الآيات.
* **احفظ قول الله تعالى:** ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾.

(٨٦) شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية

* **الأسئلة:**
(١) لماذا هاجر ابنُ تيمية مع أهله من بلاد حرَّان؟
(٢) تحدَّث عن النشأة العلمية لابن تيمية.
(٣) اذكر ثلاث صفات لابن تيمية.
(٤) صفْ ابن تيمية من حيث الصورة والشكل.
(٥) هات دليلاً على أنَّ ابن تيمية كان شاعراً.
* **استخدم كل عبارة مما يلي في جملة مفيدة:**
حدود الله، جهوري الصوت، بارع في الفقه

(٨٧) تجارة رابحة

* **الأسئلة:**
(١) ما الأمر المقيت الذي يبغضه اللهُ تعالى؟
(٢) بِمَ شُبِّه الذين يقاتلون في سبيل الله؟

(٣) بماذا بشَّر عيسى بن مريم؟
(٤) ما التجارة الرابحة التي أشارت إليها الآيات؟
(٥) من هم الحواريُّون؟

* **هات أضداد الكلمات التالية:**

العزيز، مصدّق، مبين، أطفأ، بشَّر، عذاب

(٨٨) كيف تعلمت الإسلام في الأندلس النصرانية

* **الأسئلة:**

(١) ماذا كان يُعلِّم الوالدُ ابنَهُ؟
(٢) لِمَ أمر الوالدُ ابْنَهُ بالتكتم وعدم إباحة السر؟
(٣) كيف كان الوالدُ يختبر ولده بأنه لم يخبر أحداً بما علَّمه؟
(٤) سمِّ ثلاث مدن في الأندلس.
(٥) كيف عامل العدو المسلمين في الأندلس بعد سقوط دولتهم؟

* **هات مرادف كل كلمة من الكلمات التالية:**

شدّد، الإنكار، الأصنام، الفرح، البحر

(٨٩) رثاء الأندلس

* **الأسئلة:**

(١) ما الأمر العظيم الذي أصاب الأندلس؟

(٢) بِمَ اشتهرت قرطبة؟
(٣) شجب الشاعرُ التقاطع بين المسلمين ، فماذا قال؟
(٤) إلى أيِّ شيء دعا الشاعر في البيتين الأخيرين؟
(٥) ضع عنواناً آخر للنص.

*** أكمل البيت الشعري التالي :**

حتى المحاريبُ تبكي وهي جامدةٌ . . . .

(٩٠) علي زين العابدين

*** الأسئلة :**

(١) لِمَ تنحَّى الناسُ لعلي زين العابدين كي يستلم الحجر الأسود؟
(٢) لماذا تجاهل هشام بن عبد الملك معرفة زين العابدين؟
(٣) ما الصفات التي أضفاها الشاعر على زين العابدين؟
(٤) متى كان زين العابدين يقول : لا؟
(٥) اشرح البيت الشعري السابع ، وبيِّن مواطن الجمال فيه.

*** تجد في كلِّ سطر مما يلي كلمة لا علاقة لها ببقية الكلمات ، اشطبها :**

ـ الكعبة المشرفة ، دمشق ، الحجر الأسود ، عرفات.
ـ الخُلُق الكريم ، حُسْن المعاشرة ، الطعام.
ـ أحمر ، أزرق ، فول ، أخضر ، أسود.

(٩١) مع الإمام الشافعي

* الأسئلة :

(١) اشرح الحكمة الواردة في البيت الثالث من القصيدة الأولى

(٢) بِمَ شبَّه الشافعي مواجهة السفاهة بالحلم في القصيدة الثانية؟

(٣) إلى أي شيء يدعو الشاعر في القصيدة الثالثة؟

(٤) ما أشدُّ الجهاد؟

(٥) ما حقيقة الغِنى؟

* أكمل الأبيات الشعرية التالية :

- تستَّر بالسخاء فكل عيبٍ ....

- سافرْ تجد عوضاً عمن تفارقه ....

- وليس الغنى نشباً في يد ....

(٩٢) في السحر

* الأسئلة :

(١) متى تخضع جبهة الشاعر لله تعالى؟

(٢) تحدَّث عن جمال السَّحَر ، وبين أثره على النفس الإنسانية .

(٣) متى يحلو التضرع إلى الخالق المولى عز وجل؟

(٤) إلى مَنْ يشكو الإنسانُ همومه وغمومه؟

(٥) احفظ قول رسول الله ﷺ : «الدعاءُ مُخُّ العبادة» .

* هات أضداد الكلمات التالية:

حضور، السر، الفوضى، تشعبت، أبدأ

(٩٣) مولد الرسول الحبيب ﷺ

* الأسئلة:

(١) صف ما حَدَثَ يوم ولادة رسول الله ﷺ؟

(٢) اشرح قول الشاعر: (جبال النور راقصة).

(٣) اذكر بعضاً من صفات النبي ﷺ.

(٤) ماذا حدث لإيوان كسرى ونار فارس يوم ولادته ﷺ؟

(٥) ضع عنواناً آخر مناسباً للنص.

* قارن بين قول الشاعر:

تبسَّمَ الكونُ من إشراق مولده   صُبْحاً يطيبُ كفيض الهاطلِ العَممِ

وقول أحمد شوقي:

وُلِـدَ الهدى فالكائنـاتُ ضياءُ   وفـمُ الـزمـانِ تبسُّـمٌ وثنـاءُ

* * *

معاني الكلمات الغريبة الواردة في الكتاب

السَّمُرة: مؤنث السَّمُر ، ضَرْبٌ من الشجر.

النَّوْل: أَجْرُ السفينة.

النَّقَّاب: مُفَتِّش التذاكر.

الربّان: رئيس مَلاَّحي السفينة ، والذي يُجْرِيها.

أقران: جمع قِرْن ، وهو النَّظير في العلم والشجاعة وغيرهما.

أكفاء: جمع كفؤ ، وهو النَّظير والمماثل.

الأتراب: جمع التِّرْب، وهو المماثل في السن ذكراً كان أو أنثى.

حِلْس: هو ما يُبْسَط في البيت من حصير ونحوه تحت السجاد وكريم المتاع.

القَعْب: قَدَح ضخم.

نُكتة: بُقْعة يخالف لونها لونَ ما حولها ، كالنكتة البيضاء في العين.

الضيم: الظلم أو الإذلال ، ونحوهما.

لعق العَسَل: لحسه بلسانه ، أو تناوله بإصبعه.

سَلَتَ القَصْعة: تتبَّع ما بقي فيها من الطعام، ومسحها بالإصبع ونحوها.
الشيمة: الخُلق والطبيعة.
المَطَرِيَّة: المظلَّة تقي المطر.
الحُلَّة: الثوب الجيِّد الجديد.
الجَفْنة: القَصْعة العظيمة.
القَلَنْسُوة: لباس للرأس مختلف الأنواع والأشكال.
اغتبط: حَسُنَتْ حالُه، وفرح بالنِّعمة.
الرَّحَى: الأداة التي يُطْحَنُ بها، أو: حَجَرُها المستدير.
المِرْبَد: موقف الإبل ومَحْبِسُها. ومكان يُجَفَّف فيه التمر.
الغِرارة: كيس كبير من الخيش ونحوه تُوضَعُ فيه الحبوب.
دَحَى الشيءَ: بَسَطه، ومَهَّده.
الدُّوار: اختلال في التوازن يُحِسُّ فيه المرءُ أنَّ المكان يدور فيه.
السَّمُوم: الريح الحارَّة. والحرّ الشديد.
الخُصُّ: بيت من القَصَب أو الأغصان.
الحَقْو: الخَصْر، والإزار أو مَعْقِدُه.
ابتدر: أسرع.
وَصَلَه بكذا: أحسن إليه به.

القَذَى: ما يقع في العين من رَمَصٍ وَغَمَص. وما يقع في الشراب من تِبْنَةٍ وغيرها.

السراة: جمع السَّرِيّ ، وهو الشريف السيد.

يوم التروية: هو الثامن من ذي الحِجَّة ، وكان يتزوَّد فيه الحُجَّاج بالماء ، ويرتوون فيه لما بعد.

المزدلفة: موضع بين عرفات ومِنى. وسُمِّيت بذلك لاقتراب الناس من مِنى بعد الإفاضة من عرفات.

هلَّل: قال: لا إله إلا الله.

القديد من اللحم: ما قُطِّع طولاً ، ومُلِّح ، وجُفِّف في الهواء والشمس.

نَجَم النبات: ظَهَر.

عَزَق الأرض: شَقَّها بفأس ونحوها. وَعَزق الحقلَ: كشف تربته السطحية لتعريضها للهواء ، وإزالة الأعشاب المضرَّة ، أو إبادتها.

الحَلاَّج: مَنْ صَنْعَتُه الحِلاجة ، وهي حرفةُ الحلاَّج. وحَلَج القطنَ: خلَّصه من بذره.

اختلج: تحرَّك واضطرب.

العَرين: مأوى الأسد الذي يألفه.

اللَّبُؤَة: أنثى الأسد.

الشِّبْل: وَلَدُ الأسد إذا أدرك الصَّيد.

الماجد: الشريف الخيِّر، والحَسَنُ الخُلُق السَّمْح.

اللبيب: العاقل.

كِسْرى: لقب ملوك الفُرْس.

قيصر: لقب كان يُلقَّب به ملك الروم والروس.

اليرموك: وادٍ يرفد بمياهه نهر الأردن من جهة الشمال، وفيه كانت المعركة بين العرب والروم عند فتح الشام.

أخذ بتلابيبه: أمسك بِخُنَّاقه مُتمكِّناً منه.

نكَّس الشيءَ: قَلَبه وجعل أعلاه أسفلَه.

قاء: ألقى الأكل من فمه. والقيءُ: ما قذفته المعدةُ من الفم.

يرتعون: رَتَع: أكل وشرب ما شاء في خصب وسَعَة.

الهِنْدام: حُسْنُ القَدِّ، وتنظيم الملابس. يُقال: فلان حَسَنُ الهِنْدام؛ أي: حَسَنُ اللباس.

الوِسام: ما يُعلَّق على صَدْر مَنْ أحسن عملاً مكافأةً له عليه.

الحِجَّة: السنة.

الحُقَّة: وعاء من خشب أو عاج ونحوه.

المناضلة: المباراة في رَمْي السهام.

الداجن: من الطير والحيوان؛ ما أَلِفَ الإقامةَ مع الناس في بيوتهم.

السَّنام: حَدَبة في ظهر البعير والناقة تتكون من كتل من الشحم.

القَتَب: الرَّحْل الصغير على قدر سنام البعير.
أزقاق: جمع زِقّ، وهو وعاء من جِلْد يُتَّخذ للماء أو الشراب.
القِفار: جمع القَفْر، وهو الخَلاَء من الأرض.
عاف الطعامَ أو الشراب: كرهه فتركه، فهو عائِف.
الشِّقْشِقة: لَهاةُ البعير، وهي شيء كالرئة يُخرجه الجمل من فيه إذا هاج. وشقشق الجملُ: هَدَر.
الطل: المطر الخفيف الضعيف الصغير القَطْر.
الندى: قطرات ماء كالمطر تُرى عند الصباح على النبات وغيره.
سُقِط في يده: زلَّ، وأخطأ، وتحيَّر.
السُّرَادق: الخيمة الواسعة. ومِنَصَّة تُنصب في الساحة العامة يكون فيها رجالُ الحكم يشهدون عَرْضاً عسكرياً، أو احتفالاً.
القُمْقُم: إناء من نحاس أو فضَّة أو خَزَف صيني، يُجْعَل فيه ماء الزهر أو الورد.
القطيفة: كساء له خَمْل. ونسيج من الحرير أو القطن صَفِيق أَوْبَرُ، تُتَّخذ منه ثياب وفُرُش.
المراء: المناظرة والمجادلة.
اللَّغَط: كلام فيه جَلَبة واختلاط لا يُفْهَم.

البَيْرَق: الراية أو العَلَم.
البكماء: العاجزة عن الكلام خِلْقةً.
القِرى: ما يُقدَّم إلى الضيف.
الخريدة: من النساء: البِكْر والخَفِرة الحييَّة الطويلة السكوت المستترة. ومن اللؤلؤ: التي لم تُثْقَب.
الخِدْر: الستر، والبيت إذا كانت فيه امرأةٌ.
دان له: ذلَّ وخضع.
السرابيل: جمع السِّرْبال، وهو ما يُلْبَسُ من قميص أو دِرْع.
مَخَرَت السفينة: جَرَت تشقُّ الماءَ مع صوت.
أزيز: صوت غَلَيَان القِدْر.
المرجل: القِدْر يُطبخ بها.
رشاء الدلو: حَبْلُه.
العيَّارون: جمع العَيَّار، وهو الذي يتردَّد بلا عمل، يُخَلِّي نَفْسَه وهواها، لا يردعها، ولا يزجرها.
المِخْلاة: ما يُجْعَل فيه العَلَف، ويُعَلَّق في عُنُق الدابة.
الرياضة: تهذيب الأخلاق النفسية بملازمة العبادات، وبالابتعاد عن الشهوات.
بعيد الغور: داهية، عارف بالأمور.
الحَمْلُ: ما يُحْمَلُ في البطن من الولد.

الصَّفْصَف: المستوي من الأرض لا نباتَ فيه. قال تعالى: ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴾.

الشَّزْر: نظرة الإعراض، أو الغضب، أو الاستهانة.

النمارق: جمع النُّمْرُق، وهي الوسادة الصغيرة.

الزرابي: جمع الزَّرْبِيَّة، وهي البِساط أو السِّجَّادة، والوسادة تُبْسَط ليُتَّكأ عليها.

أحرز قَصَب السَّبَق: سَبَقَ أقرانه.

لا يُشَقُّ غُبَاره: لا يُدْرَك.

الرَّبْعة: المتوسط القامة.

رابط الجأش: ثابت القلب عند الشَّدائد.

كبر مَقْتاً: عَظُم بُغْضاً بالغ الغاية.

زاغوا: مالوا باختيارهم عن الحق.

أزاغ الله قلوبهم: حَرمهُم التوفيقَ لاتباع الحق.

الحواريُّون: أصفياء النبي عيسى وخواصُّه.

ظاهرين: غالبين بالحُجَج والبَيِّنات.

القمين: الجدير بالشيء.

الخَدِين: الصديق الذي يكون معك ظاهراً وباطناً في كل شيء.

الأَثَلات: جمع الأَثْل، وهو جِنْسُ أشجار، تُستعمل أخشابُه في صناعة السفن وبعض الأدوات.

الأثافي: جمع الأُثْفِيَّة ، أَحَدُ أحجارٍ ثلاثةٍ تُوضَعُ عليها القِدْر.
عيل تصبُّراً: نَفِد صَبْرُه.
الضنين: الشديد البخل.
الخصاصة: الفقر ، وسوء الحال ، والحاجة.
الحُزُون: جمع الحَـزْن ، وهو ما غَلُـظَ من الأرض ، وَخَشُن ، وارتفع.
الصَّفاة: الحجر العريض الأملس الذي لا يُنْبِتُ.
تضوَّر من جوعه: تلوَّى ، وصاح.
القُلَل: جمع القُلَّة ، وهي أعلى الجبل.
القَتَاد: نباتٌ صُلْب ، له شوك كالإبر.
دُوَل: جمع دُوْلة ، وهي الغَلَبة ، والشيء المتداول.
ثَهْلان: جَبَل ضخم.
العِلْج: الشديد الجافي من الرجال.
بطحاء: كل موضع متسع ، وهو موضع بعينه يقال له بطحاء مكة وأبطحها ، وتقع مكةُ في وسطها.
الذِّروة «بالضم والكسر»: أعلى الشيء ، (ج) ذُرىً ، وذِرىً.
عرفان: معرفة.
خَيزُران: القصب ، وكل غصن لين ينثني.
عَبِق: الذي تفوح منه رائحةُ الطيب.

الأروع: من يروعك حسنه ، أو شجاعته .
العرنين: الأنف كله أو ما صلب منه ، (ج) عرانين .
الشَّمَمُ: ارتفاع قصبة الأنف مع حُسْنها واستوائها .
الغُرَّة: من كل شيء : أوله ، ومن الرجل : وجهه ، (ج) غُرَر .
النبعة: شجرة تصنع منها القسي ، وهي أجود الشجر ، يقال : هو من نبعة كريمة ، أي : أصل كريم .
الخيم: الطبيعة .
العُرب والعَرَب: (لغتان) معروف ، (ج) أعْرُب وعُروب .
البادر: البادرَة : الحدَّة ، أو ما يبدو من الإنسان عند حدَّته (ج) بوادر .
التشهد: هو قول المصلي في التشهد : أشهد أن لا إله إلا الله .
النَّصَب: التعب .
التبر: فُتات الذهب والفضة قبل أن يُصاغا ، فإذا صِيغا فهما ذهب وفضَّة .
النشب: المال ، والعَقَار .
تعنو: تخضع وتذلّ .
السجاف: جمع السَّجف ، وهو أحد السترين المقرونين ، بينهما فُرْجَة .
الأَكَم: جمع الأكمة ، وهي الرابية ، أو التل .

أغبط: غَبَط فلاناً بما نال: تَمنَّى مثل ما لَهُ من النعمة، من غير أن يريد زوالها، أو تحويلها عنه.

الدّعارة: الفسق، والخبث، والفجور.

الجشع: أشدُّ الحرص.

الخصاصة: الفقر، وسوء الحال، والحاجة.

يثقفون: الثِّقَاف: أداة من خشب أو حديد تُقَوَّم بها الرماح المعوجَّة ونحوها؛ لتستوي، وتعتدل.

القنا: جمع القناة، وهي الرمح الأجوف.

يريشون: راش فلانٌ السهمَ: ألزق عليه الريش.

النبل: السِّهام. الواحدة منها: سَهْم، ونُشَّابة.

الجزور: ما يَصْلُح للذَّبْح من الإبل.

الشّطّار: جمع الشاطر، وهو الخبيث الفاجر.

نواصيهم: جمع ناصية، وهي ما يبرز من الشعر في مُقدَّم الرأس، يكون حِذاء الجبهة.

خراجك: الخراج: الضريبة المفروضة على البلاد التي فُتِحَتْ صُلْحاً. وما يخرجُ من غلَّة الأرض.

لسابلة: المارُّون على الطريق المسلوكة.

حَدَب: هو ما ارتفع وغلظ من الأرض.

* * *

فهرس الموضوعات

الجزء الأول

الجزء الثاني

الجزء الثالث

هذا الكتاب

«يحتوي على مواد في اللغة والأدب متنوعة بأسلوب تدريجي ملائم لذوق الناشئة المسلمة الهندية، ونشء البلاد الإسلامية عامة، واجتهد المؤلف في:

(١) أن تكون اللغة أدبية دينية عليها مسحة من جمال أدب الكتاب والسُّنَّة.

(٢) استعمال الكلمات المستحدثة التي لها أصل عربي واشتقاق صحيح لموضوعات عصرية قد عوَّل المؤلف فيها في الغالب على قرارات مجمع فؤاد الأول للغة العربية، حتى لا يلجأ الطالب في استعمال الكلمات العجمية أو الدخيلة، أو يكون له لسان أخرس في المناسبات العصرية.

(٣) تكرار المفردات العربية حتى يتمرن عليها الطالب.

(٤) تنوع الموضوعات والمواد لينشط الطالب وينتقل فيها من فائدة علمية إلى حديث ممتع وحوار لذيذ، ومن درس علمي إلى حكاية تاريخية، ومن نثر إلى شعر أو نشيد.

(٥) نقل الحكايات الواردة في الحديث إلى لغة تنشأ على أسلوب الحكايات الموضوعة للأطفال.

(٦) دروس خلقية تهذيبية تعلّم الآداب الإسلامية في مختلف نواحي الحياة.

(٧) تضمين الدروس الأدعية المأثورة والآداب الدينية بحيث لا يشعر الطالب بأنها تلقى عليه إلقاءً بل يحفظها عفواً في ثنايا الدروس والحكايات.

(٨) الروح الديني الساري في الكتاب بحيث لا يمكن تجريد الكتاب منه، ويعم ذلك الدروس الدينية، ودروس المعلومات الكونية والحيوانية والنباتية وعن الاختراعات الحديثة».

من مقدمة المؤلف

ISBN 1-872531-47-4



